

سفرُ الرِّيحِ



الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: سفر الريح
اسم المؤلف	: عزة سمهود
الغلاف	: عبد الرحمن حافظ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧ / ٢١٤٥٦
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١١٨-٢

٨ عبارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

رواية

سفر الريح

عزة سمهود

دار نشر التوزيع

إهداء

إلى أمي

ثم أولئك النبلاء، والنبيلات ..

لا يسع قلبي إلا شكرهم.

عزة سمهود

قبل السفر..

الشخصيات الموجودة بالرواية هي شخصيات خيالية،
مُستوحاة من الواقع، سافرت عبر أزمنة الريح، وتاهت في
مسارب الغبار، حتى وقتنا هذا ..

سفر الريح ليست رواية واحدة، إنها ثنائية في كل معانيها.

عزة سمهود

مطب هوائي كبير

استيقظت مبكرة كالعادة، بقيتُ في فراشي أتأمل الفراغ حولي، ونباتات الظل التي تُطوّق عنق نافذتي الصغيرة، كان الضوء المتسلل للغرفة ضئيلاً، وكنتُ أتوقُّ لأن أرى تماذي ظاهرة النور، واستشراء الضياء في أرجاء البيت، أما سقف الغرفة المطلي بطلاء أبيض، تتخلله خطوطٌ ذهبية رفيعة بزواياه، فقد أصبح صديقاً لأفكاري التي أسردها عليه، وأنتظر رأيه الجميل بخصوصها.

كنتُ أنظر إلى اللبنة التي تتوسط السقف، لوهلة ظننتُها تُشبه حالة ترفٍ، فهي رغم بساطتها تستطيع أن تجتاح الظلام، وتبدد وحشة الليل، إلى أن نوقفها نحن بضغطة على زر المفتاح...

تناقض شكل غرفتي المرتبة، مع الحال خارج الغرفة، وخارج البيت.

إذ في هذا التوقيت الصعب، تنتشر الفوضى الخلاقة المرتبة، بطريقة أكثر تفنُّناً في صناعة أفكار غير صالحة للنمو في الربيع، فالربيع الذي زرعناه نحن ذهبَ مع الريح، أو ربما خرج ولم يعد، وبدلاً من حصاد حضاري لمواسم الفرح، والعرس الجماعي لدول الربيع، حصدنا المعاناة والمزيد من الألم، وكأن ذلك عقوبة التمديد للحلم.

لطالما ظلت الأسئلة الكبيرة قابضة، تدورُ كالدم في فراغات رأسي، تحاول أن تمتلئ بإجابة قاطعة تكتسح خانة الاحتمالات لديّ، وتقطع شكوك الأسئلة بيقين الإجابات، لكنني في كل مرة أعود مُحَمَّلة بقائمة أكثر إثارة من سابقتها.

فماذا يعني أن تخسر كل شيء؟

من بيتك إلى كلمة القداسة العظيمة التي اسمها وطنك؟ ثم تكتشف فجأة أنك كنت مجرد أداة، مُسَخَّرَةٌ في يد الآخر، ليقودك لمغادرة وطنك، كما يغادر السنونو في رحلة اغتراب جديدة، لكنك ستخرجُ بحثاً عن عيني "إلزا" في غربة واقعنا المرير، وسيكون الوطن هذه المرة حقيقية، تحملك من منفى إلى منفى

ستكتشف كم يبدو هذا العالم مليئاً بالخراب! وكم يبدو الناطور^(١) الذي كان يحرس الحلم سوداويّاً؛ لأنه أول مَنْ سمَحَ للصّوص بالقفز من السور

(١) الناطور: بالأصل حارس الزرع والكرم، ثم أطلقت على كل حارس.

إنك لن تُدخّن سيجارة على مقياس همومك، ولا يمكنك أن تستورد أخرى تُشبهك، تُشبه أملك، وتشبه غرابة واقعك، ولن تتظاهر أن لك فلسفتك في رؤية الأمور ومعالجتها، ثم تعترف أن هنالك جزئية صغيرة، في سطر كبير غيرت كل مفاهيمك، وجعلت توجهاتك تعيد تأيين نفسها، ضمن سلطة الأمر الواقع.

لا تحاول أن تقنع نفسك مُجدّدًا أن كوكب جوبيتير^(١) دخل بيت سعدك، وغير مسار حياتك، وأن بلوتو^(٢) سوف يتزحزح من هذا العالم، خارجًا من بيت العقارب؛ وداخلًا بيت الأحمال والجديان، وبناء على احتمالات الفلك، فهو عام وفيير غيداق^(٣) بقمحه وشعيه . . .

لأنك ستُفاجأ أن المربخ يتحكم في مزاج الحلم، ولم ينتج في الربيع سوى الحروب والفواجع . .

فهل حقًا أنت في ربيع مُزهر؟

وهل صدّقت أن مدناً من ورق ستتحوّل إلى ناطحات سحاب، معجونة من أسمنت مسلح وحديد صلب؟

ثم هل يُمكننا أن نتخلى عن أحلامنا قصيرة المدى، وطويلة المدى؟ لنعيش حلمًا واحدًا أماننا نمارس فيه شبق لحظّاتنا؟ حلمًا مسافته سنة، أو

(١) هو كوكب المُشترى، أضخم كواكب المجموعة الشمسية.

(٢) أصغر كواكب المجموعة الشمسية.

(٣) واسع مُخصب.

شهر، أو أسبوع، أو حتى يوم، نُلَوِّنه بالأبيض والوردي، لنقول للعالم
إنَّ رحلة البياض مهما تطل فلن تندثر، ولن يتبخر ماؤها، ومن معاقل
الحزن الموغلة في العمق، ومن قِمَمِ الألم الراسية كالجبال فوق الأرض،
كانت البداية دائماً، وكان الضوء يُعمدها بشعاعه كالعادة! .

لذلك نحن حين نكتب المنّا، نَهْبُ للأمل فرصة أخرى..

إننا نظهر في شكلنا الخارجي كمختصرات

مفيدة عنا، أما التفاصيل الصغيرة - التي تعج داخلنا؛ فهي
هوامش متروكة، لمن يُجيد قراءة أرواحنا، ولمن يُثير رغبة السؤال عنا...
هأنذا أفتحُ نوافذ قلبي لتأويلات الريح، وأتركُ روحي وليمةً شهيةً
لفخاخ الأسئلة، والرسائل النصية، التي تطير فوق رؤوسنا ليلاً، في
شكل معدن عشوائي يُترجم مرارة واقعنا باختصار شديد..

وها هو الحظُّ الذي تصدَّعت به رؤوس العرب، في أعوام الربيع
بقراءات متفائلة، لكارمن شماس، وجمانا قبيسي، وماغي فرح، وليلي
عبد اللطيف^(١)، قد بدأ يتغير من بيوت المال، وبيوت السعد، وبيوت
الزواج، إلى أكوام بيوت، وبقايا أعشاش، وإفلاس وفقر، ومنازل
نحس، تُلاحقنا من حظٍّ إلى آخر.

طائرٌ مهاجرٌ يبحثُ عن عشٍّ ..

مواطنٌ مهاجرٌ يبحثُ عن بيتٍ ..

(١) علامات في علم الفلك.

ربما صدقت ذات حلم، أو ذات فزع، أو ذات ربيع، أنَّ حلمك انطفأ فجأة كرجوة الصابون؟ وأنَّ جذوة الأمل فقدت الوهج مرة واحدة؟ وأنَّ غرباناً استوطنت قِمَّةَ رأسك، فصارت تأكل منه الأفكار النيرة؛ حتى توسَّط محكَّ استفهامٍ كبير، وتعجَّب عملاق، يتساءل ويتمدد في شراهِةٍ عجيبة: مَنْ أنت الآن بعدما غيَّرت أفكارك؟

لا أحد سيُجيبك؛ لأن الفراغ الذي تكوَّر مصدوماً في رأسك، ونَمَتْ تشكُّلاته الرحمة في متاهات معقدة، سوف يرد لك سؤالك في صدى، ليقول لك: بعد فصل الربيع تغيرت المعطيات، وتغيرت المعادلة، وتغيرت ثقافة الأسئلة .. فيا سيدي رتَّب أفكارك من جديد، وأعدِّ كتب الفلسفة إلى الرفِّ العلوي، فلن تفهم هذه الحياة قبل أن تدرج في استيعاب أبسط نظريةٍ وأتفَّهها تقع في أقرب رفٍّ لمتناول عقلك ..

عليك أن تُعيد تدوير المؤامرة في رأسك، وتصديق أنك تحوّلت لأضحوكة متجعّدة جدًّا، ومُزحة من العيار الثقيل، بهذه الدموية التي تقترفنا في شراهِةٍ مقيّنة، وأنك ببساطة مواطن شارك دون علمه، أو بعلمه في حفل تنكري ضد الوطن ..

والآن بعد الانتهاء من تصديق هذا الواقع الصادم والمرعب، أجب عن جميع الأسئلة الآتية:

هل خسرت بيتك؟

لماذا غادرت الشارع الذي تقطن فيه؟

هل تسنّى لك الوقت لإغلاق باب غرفتك؟

أين تركتَ مذكراتك اليومية، حين غادرت تحت القصف؟

أأنتَ متفاعل بالعودة إلى بيتك، بعد خروجك منه؟

ماذا يعني لك كلُّ من:

الأشياء الحميمة، التفاصيل الصغيرة والكبيرة، القرية من باب

البيت، أو المعلقة على المشجب، أو طاولة الإفطار تلك؟

الحذاء المكون قرب خزانتك؟ ذلك الذي يدور بك طوال اليوم،

يحملك لأي مكان تشاء، ربما لمطعم يهملك، أو جامعتك؟ أو حييتك؟

إنه وفيٌّ ومخلص، أقرب إليك من صديق خائنك، وباعك ببلاغ عنك

....

حسنًا

ربما أفرطتَ في تناول جرعة زائدة من الأدرينالين، فتصورت أنك

ستكون مواطنًا سعيدًا؟ وأن العالم المتأخم لك سوف يفوت عليه،

فرصة أكلك، ونهش لحمك، في أقرب فرصة ضياع لك! الضياع الذي

يعني أن تخسر أرضًا عشتَ فيها طوال رحلة حياتك ..

أعلمُ أنَّ المساحات على الورق متشابهة، كلما امتلأت بالكلمات،

تخسر بياضها، مقابل أن تهبنا معرفة جديدة، أما على الأرض فالمساحات

مختلفة، إذا خسرناها نفقدها، ونفقد نحن بياضنا، نفقد تاريخنا،
ورموزنا، ومرجعنا، وسرائرنا، ووسائلنا، نفقد معالم كل شيء، ابتداء
بالتراب، وانتهاء بهاء البحر.

أتصدق أنني كرهت البحر؟

كان يسحرني بتحرُّكه مثل كتلة هلام في إناء بلا حدود؟ تشوّه
كثيراً، واستحال سريعاً للموتى، ومقبرة عائمة للأصدقاء، والأحباب.

البحر، كحبر دمي الأزرق، أستهلكه في الكتابة إليك، معتقدة أنني
سأحلبُ غيومه لتمطر، وسأعيدُ تشكيل كائناته، لأُكبرَ في حلمي،
ويمكنني أيضاً أن أُغيّر مذاق ملوحته، فأجعله مثلاً ينساب في شارعنا،
أو في وسط الحي الذي أُقيم فيه، ستقول لي: نعم يمكنك ذلك، ولكن
الذي لا يمكن: هل سيرضى البحر بذلك؟ وهل سترضى الأسماك؟
وهل سأقلب مفاهيم الأشياء من أجل حلم؟

لقد تعلمت كثيراً، حين فكرتُ في قلب فهمي للأشياء، بواسطة
حلم جميل ..

تعلمتُ أنَّ الجمال، لا يُبرِّز انطلاقة الحلم، فقد يكون مصيدته
تماماً..

فالحلم أن تجعل كل شيء ممكناً، وجميلاً في آن، أن تملأ حقيبتك
بألوان مُشبعة بالحياة، ثم تُلوّن فراغات هذا الوجود الأبيض، الحلم
لونه أبيض، أو زهري، أو أخضر، الحلم ليس أسود، أو أحمر، الحلم بطةٌ

تدربُ صغارها على المشي، تخرج من بحيرة مليئة بالماء، وأنت تُراقبُها،
دون أن تتحرَّك غريزة الصيد داخلك، تتركها تنساب نحو اليابسة،
تعطي درسها، وتعود للماء، وأنت تبتسم ..

الحلم شجرة سرو جذورها ضاربة في الأرض، عُنقها مرفوع
للسماء، تُججِدُ الأمومة في الكون، تقترب منها لتحبها، وتستظلُّ تحتها،
تستفيد من رائحتها، تُقرِّرُ أن تستزرع من أحد أعضائها، سرواً أخرى،
لكنك لا تفكر في كسر عظامها، وتحويلها لهيكل عظمي، يتوسد قارعة
الطريق.

الحلم امرأة وحيدة، روَّضتها صروف الدهر، أحبتها، وكشفت
لك عن بياض حزنها، فقررت أن تزرع في روحها السعادة، وتعيد
عجنها بيديك، لعلها تنبت بذرة صالحة من مائك، الحلم هنا ألا تفسد
قلبها، ألا تجرح إحساسها، ألا تقتل الأنوثة في داخلها؛ لأنك إن فعلتَ
ذلك، فسوف تمتدُّ يدك للأرض وتُشوِّه جمال كل شيء ..

الحلم ليس غضباً، وليس أن تسمع كلاماً مجرداً، الحلم الجميل أن
تتبع قلبك، ومعانيه السامية، وقيمته النبيلة، ألا تخونها ولو بالقدر
اليسير؛ لئلا تفسد أنت، ويفسد عقل من حولك.
الحلم وطنٌ بالقدر الذي أخبرتك عنه الآن ..

نهضتُ من سريري، اغتسلتُ، وأقمْتُ صلاتي، ثم سرحتُ شعري، وعرجت على غرفتي، فحملت بعض الأوراق، التي أَرغبُ بمراجعتها، أعددتُ قهوة، سكبتُ منها كوبًا، أخذني إليك بعيدًا عن مساحات الأسي التي أجدني مُحاصرةً فيها، تنهدتُ، وأنا أشعر لأول مرة أنني أتنفّس هواء نقيًا بمجيئك التاريخي لحياي

كانت خطيئتي الأولى أنني اقترفتُ فنَّ الإصغاء لمحدثٍ مثلك، يتحدثُ معي ويسرق مني وقتي، ثم يجعلني أقرأُ له، مُفضّلة أن أسمع كلماته المكتوبة، بطريقتي، وأرهفُ سمعي لصوته العنديل، المغرّد في ظلمة الحياة.. وكم أعلمُ أنَّ العنديل يليقُ بك؛ لأنه أيضًا لا يُغني؛ إلّا إذا اشتدَّ عليه سوادُ الليل، وإيقاع العتمة.

كنتُ أظنُّ أنَّ بُؤَيَّ الشعر، فدعوتُ الله أن يفتح حصون اللغة الجميلة، على لساني واقترافاتي المجنونة، فوق بياض الورق، وكنتُ أقنع نفسي بأنَّ اقتراف قصيدة شعر، أفضل مليون مرة من معرفة رجل؛ لأنني في كل مرة أتسامي، وأشعرُ بقدرتي - على المُضي قُدُمًا - دون رجلٍ يملأ وقتي، أو يسرق قلبي، لكنني الآن أتساءل: أكنتُ مخطئة بمعرفتك؟ فالمحصلة التي أحصدها معك الآن، أنا في أثناء تقاسمنا الألم، والوجع، والحزن الذي يحصده الوطن، بدلًا من أن نجعل كل ذلك مقسومًا على العالم حولنا، صار مقسومًا على اثنين، وتحولَّ ألمنا إلى هاجسٍ يُطاردنا بشكله المُشوّه، كلما تعافينا منه خلدوه في تاريخ، أو على اسم شارع، أو فوق يافطة مدرسة، وكأنهم يقولون لنا إنَّ الحزن سيرة مُخلّدة فوق تُرابنا المجيد ..

فهل نحن شعوب تراثية نُجيد تمجيد الموتى؟ وتبدع في تخليد
أحزانها؟ تتقدّم أماما بذاكرة الوراء، ومتى غيرت بيتها، تحمل أمتعتها
القديمة، وتجعلها أساساً لبداية جديدة؟

وهل نحن شعوب تربطها العادة، وتعوق تقدّمها نحو الحداثة؟
تجعلني أترسّب مني، منك، من المرأة المختبئة تحت جلدي، لأقرأ
لك تاريخك المصبوغ بالألم، الندوب التي يخرتها على وجهك، في تجاعيد
مرّرت خطوط السنين على ملامحك، ظانّة أنني عشت كل الحقب
الزمنية، التي غرقت فيها بمستنقعات الحزن، فكنّت فيها كشجرة
خُدش لحاؤها، ببساطة لأنني أنثى، والأنثى لا تكون إلا شجرة عتيقة
ومُظِلّة، مليئة بالزخم، وكثيفة في عطائها، وزخمة في إحساسها؛ لذلك
حين ترى رجلاً يفكر في اجتثاث شجرة من بيتها، فاعلم أنّ غضب الله،
سيحلّ عليه عاجلاً أم آجلاً.

حين كتبت لي أنك ستأتي أزهر وجهي، وتفتّحت مسامات جلدي
على ضوء الشمس، رأيت براعم الورد البلدي في بنغازي تستدير
بوجهها للأعلى، يومها كنت أقود سيارتي قرب شارع سيدي عمر
المختار، ومقاهي بنغازي تضجُّ بالأحاديث، وتنفجر منها الثروة
كالفوشار على الطريق، فأحسست أنّ الأرض دارت في الاتجاه
الصحيح أخيراً، ومسألة تأخر سلامها وتذبذبها، واتساع ثقب
الأوزون في قلبها، سوف تُحلُّ بمجرد اختراع البشرية لحلم أبيض، حلم
على مقاس براءة كل أطفال الأرض، وطهارة كل قلوب أهلها، وعفة
كل أنثى تسري في مسارب^(١) أرضها

(١) جمع مسرب، ومسرب الماء هو مسيله ومجراه.

ستقول لي: ما الحلم الأبيض الذي يستحق كل هذا العرس؟

أليست الأحلام البيضاء والنقية أعراس الطمأنينة؟

إنه أجمل حلم، حلمٌ يُعيد المعدن المليء بالصراخ إلى صناديقه؟ يُعيد الرصاص إلى حالة السكون، إلى الموت الأبدي في أقبية الخشب، ذلك أجمل حلم أبيض، يشبه فستان زفاف فتاة جميلة في ليلة عرس بيضاء ..

حين كتبتَ لي أول مرة، اكتشفتُ أنني تأخرتُ كثيرًا عن القطار الذي كان بانتظاري، ويبدو أن المحطة فقدت مخزونها من الوقت المُعبأ بالزخم، فاخترلت سنين عمرك في السجون الصحراوية السَّرية؛ لتكمل بعدها رحلتك في منافي البرد والثلج، اجتاحني حينها شعورُ المسافر، بأنَّ ثمة محطة فقدت بوصلة رحلته؟ وأنَّ المسافة بينه وبين حبيبته أُصِيبَت بالشيخوخة، من كثرة الغياب، وتأخر قطار العبور؟

ألم أقل لك ذات رسالة إنَّ المسافات تُصاب بالشيخوخة؟ ويتجعد حُيَّاهَا؟!

المسافات مثلنا مُعبَّأة بالحنين، وموقوتة بالانتظار الصعب، ومحملة بأعباء الحلم المُترع بالأمل، إذا عبرناها فإنها تُزهر، وتُشرقُ باللقاء، وترتوي للثمالة بالحب. المسافات مثلنا، تنتظر الرسائل بفارغ الزمن، وتُمرُّ الابتسامات بفارغ الأمل، وتختصر الاشتياق والحنين في تقاسيم اللقاء ..

وحده اللقاء يعرف حجم المسافة، التي قطعها من أجل الحنين ..

وحده اللقاء يقرأ تفاصيل الوجد، والفرح من حُما العناق
وحده اللقاء يستطيع أن يُجيب عن كل أسئلة الغياب... وملحقات
الفراق... وتوابع الاشتياق ..

هكذا أنت كما تحدثني عنك، تريد لقاء يليق بحجم الغياب عن
ليبيا، طوال سنوات وعقود من الزمن، ولأنك لا تملك حتى مفتاح بيت
هنا، ولا تملك عنواناً دائماً تكتب له، فقد خطفتني بطلب صداقة عن
طريق فيس بوك...

وسألني السيد فيس بوك في كياسة، وبموضوعة تامة: أرسل لك
نبيل القاسم طلب صداقة، تأكيد؟ أو حذف الطلب؟

فكرت طويلاً، ثم قبلتُ صداقتك، فإذا بك تقتحم عالمي،
باسمك المستعار، تكتب لي، وأردُّ عليك، لأشبع فضولك، عن بنغازي
الغارقة في تفاصيل الدقة، والإسهاب اليومي ..

بنغازي المطرزة بالشعر والدانتيل، الفارحة كنصّ عابر للأجناس،
ما زالت خليطاً عجيباً من نسيج ليبيا، مهما تعبت به الريح، يظل يتهدى
كفستان سيدة بنغازية، تغازله الرياح، ويتسرّبل معها، يتماوج مع الهواء،
يتطاير في كل اتجاه... ثم يعود، ويسكن ملتقاً على ساقها ..

بنغازي الرقم الصعب الذي بواسطته نُجبر كُسورنا، ويُعاد وصل
ما تفكّك من علاقاتنا، الرقم الذي يصعب إسقاطه من المعادلة، ويمكنه
أن يضرب بورصة الاحتمالات السيئة بالوطن، ليقول للعالم في علو
أسهم حبه للوطن، ومضاربه للعشق الليبي، ليبيا واحدة ..

بنغازي الممزوجة برائحة الثُّبْن، وعبق الهيل، ما زالت مدينة الفن، والجنون، مدينة برائحة الليل العليل ودهشة النهار المشمس، وبغريزة المطر، الذي ينزل لمداعبة البذور القابعة في أقبية الطين، لا أحد يشبع من بنغازي يا عمر، حتى الذين قالوا إنهم يستطيعون أن يغادروها، بقوا فيها، وثمة حرقه في أعماقهم تُصيبهم؛ لأنهم لم يصلوا لنشوة ذلك العشق بعد.

بنغازي الغارقة في التفاصيل، وفي السرد فوق المناضد العامرة، والموائد التي تعجُّ بها البيوت، ما زالت أحاديثها تتسرَّب همساً، بين النوافذ العطشى للكلمات، ما زالت تقولنا في دقة متناهية، وكأنَّها وحدها رواية كل الرواة وكأنَّها ليلي قيس، وعزة كثير، وبلاغة المتنبي..

يقولون إنه طعم الملح، ويقولون إنه همس برنيق^(١)، وجليانا^(٢)، ويقولون إنه مذاقها الغريب، ويقولون بل هي طيبة أهلها، ويقولون روحها المتمردة، ويقولون أشياء كثيرة عنها، لكنني كشاعرة مولودة في تربة هذا الألم، أقول إنه الافتتان بعفويتها، وروحها ذات المزاج الممزوج بالتناقضات، هي خليط مجنون من الشغف، والهوس، والاستكشاف، قوام من البساطة والعمق، من الثقافة، والفن، والترابط، يخالطه شعور بأنني أسمع في بعض الأوقات، هسيس برنيق بين الأحياء، والشوارع،

(١) الاسم الإغريقي القديم لمدينة بنغازي الليبية.

(٢) شبه جزيرة تقع وسط مدينة بنغازي، وتعد مركز المدينة السياحي.

أتبعها بفستاني القصير، أركض وراءها، وأحفظ عن ظهر قلب، ما تلقيه على سمعي، من قصائد مُطرزة كثوب من الموسلين^(١) الفاره ..

حين كتبت لي لأول مرة، انزاح حزني وراء الشمس ملّم الضباب أمتعة حضوره، وخبأ وجهه وراء أول زجاج مُعتم، لكن ضوءاً باغته من لدن نظرة أمل، فأشرعت عليه نوافذ عينيّك، وتبخر عند أول سحابة واقفة بمحطات انتظار الريح... محطات تلاقحت فيها غيوم حبل بال دعاء، فترصدها عيوننا من الأرض، مترقبة أول سرب للهواء، يفجر الماء بين سحابتين ... أرأيت كيف يأكلنا الانتظار حين يتصدر الصبر وجه غيمة؟ وكم يبدو المطر عيداً لنا وقت هطولهِ!

ها هي ذي تفاصيلك الصغيرة تُحاصرني، بذات الكلمات، بذات الشغف، وأنا كنتُ أتساءل: من أين تأتي رائحة الزهر، ورذاذ ماء الورد؟ فإذا بي أكتشف أنها تفوح من روايتك التي أرسلتها إليّ في ديسمبر ٢٠١٠، كنتُ أظن أنها تأتي مصادفةً مع رائحة الكعك البنغازي، والمعمول الذي تنجزه جارتنا عائشة، وتبيعه نظير عدة جنيهاً؛ لتقتات بها وتوفر مصاريف بناتها، كانت حين تنتهي من عجنه، ترشّه برذاذ الزهر، فتفوح رائحته، وتملأ السطوح المطل على بيتها، ستقول لي: وما الذي جعلك تصعدين السطوح؟ إنه مكاني المفضل حين أتأمل، وأقرأ، الهواء هنالك يليق بامرأة جوزائية^(٢) مثلي ..

(١) نوع من الأقمشة ناعمة الملمس .

(٢) نسبة إلى برج الجوزاء .

انتبه!

الجورائيات: سيدات المزاج المتغير، فانتات، وجهيلات، وذكيات!

لذلك، لا أعلم كيف تطلب قراءة روايتك، من شاعرة تقول عنها مجنونة؟ وتصفها بالحكمة؟ ثم تطلب إبداء رأيها فيها على مهل؟ تساءلت هذا السؤال، وقلت: لعل كتاباتي السردية التي على صفحتي بالفيس بوك تروق له، العاقلة منها، والمجنونة، ارتكبتها في نزق، وأترك الصفحة تضجُّ بالحديث عنها، أكون حينها مستغرقة في قراءة أخرى، أو أفتش في حقيبتني عن هاتفي؛ لأدوّن به ملاحظاتي كالعادة، أو أتذكر أنّ طلاء أظفاري، يبدو سيئاً في أثناء الكتابة، فأستغرق في تغييره ..

أعتقد أنّ المسودات التي كتبتها لي، لا تصلح لأن تكون رواية، فهي كثيرة التواريخ، ويغلب عليها طابع الكتاب التاريخي، فضلاً على أنني لا أحبُّ ذلك الخط المستقيم الذي تسير عليه كل رواية أقرأها، فيبدأ الكاتب في قصته، ثم يخترع ذروة لها، ثم نهاية ينهي بها فصوله، وتنتهي بذلك حياة المروي عنه ..

كل شخصيات الروايات - التي أقرأها، إما أن يقتلها الكاتب، أو يجعل لها دوراً في الرواية، لكنني أتساءل عن الناس الذين نقابلهم في حياتنا، بالمواقف العابرة: هل دورهم أن يكملوا معنا رواية حياتنا؟

هم لا يموتون، بل يغيبون في الزحام، ويذهبون لروايتهم وحياتهم.... لهذا أميل أن أكون إنسانة وجودية، وأراني لست مضطرة لقتل

شخصياتي، سأتركها تغيب في الزحام، متسرّبة في خيال القارئ؛ لأدعه يتصورها كيف ستكون؟ وأين ذهبت؟ وماذا حصل لها؟ هذا جميل، ما دام الخيال يظلُّ يطاردنا بعد قراءة الرواية، وما دمتُ أضمن فعل ذلك، كإدماي لأشغال التريكو التي أعشقها ...

ثم لماذا يعتقد الكاتب أنَّ كتابة رواية، يعني أن تسير على نسق طولي ومستقيم؟ لا أعرف كيف لنا أن نسرّد حياتنا، وتاريخنا الطبيعي، وهو لا يسير على هذا النسق؟

حياتنا ليست خطأً مستقيماً تماماً، كما تكتبه الرواية، وكما أقرأ بعض تفاصيل روايتك هذه، في نظري، لو كانت حياتنا تسير في خطٍّ مستقيم، كما تسير الرواية؛ لعرفنا كيف ستكون نهاية كل واحد فينا، لكنني أجزم أننا نسير في دوائر كونية، ندخل في واحدة، ثم نتكاثف مع الأخرى، حتى يتكون معها شبق الحياة؛ لتتغير ماهية التفاعل نحو ذروة حلٍّ، ونبدأ في تشكيل دائرة أخرى، تسير بطريقة ما نحو دائرة أخرى، تتكاثف معها، وهكذا ..

الحياة.... شبق... تفاعل .. ولهذا نشعر بروحها الحية .. نشعر بالتغيير ..

كلما سردنا جزءاً في رواية ما، نفقدُ حزناً يتكوّن رحيماً داخلنا، كلما كتبنا وُلد مخلوقٌ جديد فوق بياض الورق وعاد يتشكل، ويتمظهر وفق إحداثيات نراها بعيون تعبر أرواح الآخرين، إنَّ الله يبعثنا رسلاً، وأنبياء لبياض الورق، وها نحن أولاء نسافرُ، نعبُرُ المدن، ونتجاوز السُّحب،

ونصعد الطائرات، ونُبحرُ فوق ظهور السفن، نجتاح أكوأنا أخرى من مكاننا، نسري ونُمرّر معراج صفائنا عبر مسافات الزمن وتجاويز الوقت .. أليست هذه معجزاتنا النبيلة، ونبوتنا للبشرية؟

أما لو كنت شاعرًا مثلي، سترى العالم بطريقة أكثر تكثيفًا وجمالًا، فالشعر يعني شمولية المشهد، واختزاله في عدة ألفاظ، تأتيك قصيدة لتلقيه على سمعك، تخدرك، تأخذك في عوالم الكلم الجميل أو حتى الحزين، تقولك في بضعة أسطر، تختصرك، تجردك، تجعل أطرافك تتسرب منك، وأضلاعك تستكين، تتسبب في خلع أُناتك منك؛ لتعيد أنت تشكيل روحك .. بسبب ما فعله الشُّعر فيك.

الشُّعر يحمل كلماتنا، وما نريد قوله، بمقطع موجز، يمرُّ أمام أبصارنا في هيئة أفلام، وأشرطة حياتنا، لذا عليك أن تعترف أن الرواية تمارس فن التفاصيل، والشعر يُختزلها بين رثيته.

ربما ستقول لي كيف؟

كعادتك تعشق إثارة الحوار بيننا!

ألَسنا أمام نافذة وسما؟ النافذة ترى السماء الكبيرة، بصورة كلية وهذا هو الشعر، والسماء ترى النافذة بتفاصيلها الصغيرة، وهذه هي الرواية.

يُذكّرني الشعر بأناس تحبهم، يهتمون بتفاصيلك الدقيقة أولاً، ثم يجمعونك بكل ما فيك في كلمة، وهنالك أوطان تأوي إليها، ترسم

ملاحك في دقة عجيبة، تحبك وتعيش جمال روحك، لكنها توجزك في كلمة غريب.

ستظل في بعض الأحيان هكذا، غريباً في الأحاديث الحميمة، ووحيداً في الأحاديث التي يحب أصحابها بعضهم بعضاً، وحتى الأحاديث تختار من تحبهم، ومن تستمتع بهم، حين يتداولون لغتها بفن وحب ..

هذا أمر يشبه رواية جميلة، رواية فارهة وعميقة، وقعت بين يدي صائد للعبارات، ولجماليات اللغة، يشبه أمرها وجوهاً جميلة، تكاثف حضورها، في جلسة أصدقاء، وجوها أليفة، بأكفها الدافئة، في أمسية حديثها شائق، وبصداقة معجونة برائحة الوفاء، وزبدة التراحم، يشبه أمرها زيتاً من بياض لوز النيات، وقرنفل من الورد، يتفنن في تذوق مذاق الحديث الجميل .. الحديث الذي أنت معه، لا تريد أن تغادره، إلا إلى النوم، أو الحلم ..

أقرأ تاريخك، في فصول حياتك الورقية، معتقدة أن التاريخ يمكن أن تمرره أي رواية في أحداث فصولها، ومجرياتها، لكن مع تعمقي في القراءة، اكتشفت أن التاريخ ليس مجرد قراءة لحدث، قدر ما هو توثيق لحفرياتنا الذاتية، لمرجعية ماضينا، لبداياتنا، ولا يوجد تاريخ دون قصة، ولهذا أستغرب كثيراً، تنكّر شعبنا لحقبة النظام السابق، بمحاولته حذفه من ذاكرته، وقتل ملامحه، والتخلص من ذكره.

لقد فعلنا ذلك ببشاعة، ولم نتصالح معنا، وفي هذه الثورة جَلَدْنَا ذواتنا، حتى وقعنا في جريمة تجاه أنفسنا، حرمتنا من التصالح مع بلادنا، الكل يرمي الكل بالتهم، ويُكيل لهم أنهم من حقبة النظام السابق، نسوا أننا جميعنا جزء من تلك الحقبة، جزء لا يتجزأ من خانة الفعل الماضي، في زمن المضارع الذي نحن نقترفه الآن ..

أشياء كثيرة تغيرت، أفكار قديمة تم إحيائها، وأفكار جميلة قُتلت بسهولة، وأفكار روج لها القُبْح فتصدرت بتوجهاتها حياتنا ..

إعلامٌ يجري تحييده عن مسيرة الشرف، وإعلام ينغمس في حالة من التمثيل، أصابته فلسفة الاستغراق، وصار مُؤدِّجًا، يغسل يوميًا عشرات العقول، ويقتل باسم موثائق الشرف والوطن، أسماء بمجرد تلاوتها، ينفذ فيها حكم القتل، والغياب عن الحياة ..

نحن فقط تحررنا من سجوننا السَّرية، فمارسنا أُميتنا في مجتمعنا، ووصلنا إلى الاعتراف بأننا مجموعة مرضى يخوضون تجربة التخلص من الماضي بصعوبة، بمحاولة قتله، والماضي يا عزيزي لا يُقتل، الماضي جزء من هويتنا، وعدم الاستفادة من تجربته، يعني وأد هويتنا الحاضرة.

وأي وأد؟

إنه محاولة إنتاج ذات لا بداية لها، ولأنه لا يوجد شيء دون بداية وولادة، سنظل نتخبط ونعيد تشكيل مُسوخ لا جسد لها، تلك لا تكتب تاريخًا واضحًا، بل سيرة مُشوَّهة مبلة بالدموع والألم.

حين كتبت لي لأول مرة، وقلت لي إنك هارب إلى المنفى، ومُبعد
قسراً عن ليبيا، شعرت أنَّ هنالك نوافذ للألم ما زالت مغلقة في ليبيا،
وأنَّ ثمة حكايات بقيت غافية، وسيرتها نائمة في سُباتنا المحلي، فالحكاية
ليست سجن (بو سليم) فقط، وليست حقن الإيدز التي تمَّ حقنها
لأطفال بنغازي الأبرياء، وليست حديثاً عابراً يُمرر عن حرب تشاد، إنه
أكبر من ذلك، أكبر من أن تبقى في العتمة طوال سنوات من العمر، لا
يمكنك أن ترى ابنك، أو بيتك، أو حانة شارعك ... لا يمكنك أن
تأكل رغيف خبز محلياً، وتلك وحدها قضية إنسانية .. تُسجل ضد
مجنون عادةً ..

هأنت تُشبه النافذة التي حكم عليها الزمن؛ لتبقى مُوصدة، ليس
من حقها أن تُمرّر النور إلى رُدهات الظلام .. ولو استنطقوا النوافذ
وسألوها: ما غايتك النبيلة التي وهبك الله إياها؟ لقاتل تمرير الضوء ..
أنا أو من بالماهيات كثيرًا، فدورها لا يقل عن دورنا، بل إنَّ ما تهبه
لك النافذة، أو المنضدة، قد لا يهبه لك إنسانٌ تعيش معه يومياً ..

تُشبه أنت باباً مُقفلاً - تقبع خلفه حكايات الماضي البعيد، اختار لها
التاريخ مكاناً، تراكم فوقه غبار الصمت عشرات السنين، فبقيَ أسيراً
في مخطوطات ورقية، ما زالت لم تُوثق بعد مسيرة النضال الليبي، تُشبه
صرخة مكبوتة، بقي صوتها حبيساً بين أضلاعها، باحثاً عمن يسمعه،
ومن يسأله، ومن يقول له تكلم فأنت آمن ..

فهل أنت ومن معك، ضحايا الجزء المخفي من تاريخ ليبيا؟

الجزء الذي حذفته الحكومة من شريط الأخبار اليومية، فبقي في ملفات مقفلة، يدور الحديث حولها في همسٍ وتكتمٍ شديدين، ويُصادر رأي من يتداولها، في اليومي والعادي؟!!

هنالك أشياء تظلُّ في العتمة لا يراها إلا النور، ومهما تَغِب الحقيقة لزمنٍ، تعود الذاكرة لتجدد حضورها بين رفوف الزمن الآني .. فالذاكرة تشبه شجرةً كبيرة، تتجددُ في ربيعٍ يتذكرها، وتبهتُ في خريفٍ ينساها.

كنتُ أديرُ نظري بين أوراق روايتك، فأستغرقُ في قراءة تفاصيلها الدقيقة، أتخيلك وأنت فارع الطول، واسمك كسيمفونية أندلسية، تتهدى بين طيات أوراق المسودة، المكتوبة بحبر الآلة الطابعة، والمعطرة ببعض رذاذ الزهر، أتخيل كم قضيت من الوقت، وأنت تحاول شحذ ذهنك؛ لتكتب وتوثق الأحداث؛ لتشحن قلبك، فيسقط صريعاً فوق طرقات الأسطر، ربما حينها يُشفى من عذاب وحدته، وقهر إبعاده عن ليبيا.

كنتُ أعرف أنها تصلح لأن تكون وثائق تاريخية مهمة، وشهادات عن مرحلة تاريخية، نامت بين سُببات السنين، ولم يتجرأ أحد على الخوض فيها - إبان مرحلة القذافي - مقاطع من حياة شعبنا، حريٌّ بالتاريخ أن يفرد لها معزوفة يتيمة، ليوصم بها جبين الزمن، ويعيد تدوير الكرة الأرضية، فيخلب لبَّ لحظاتها، لعله يرجع بها زمنًا إلى الوراء، ويُرينا المنسي في الغبار، من عام ٧٨ إلى عام ٨٧ عن تلك

الحرب المُخبَّاة في رحم الصحراء، والندوب المطمورة في الحقبة التي قبلها - والتي أخبرنا بها أجدادنا في تواتر الأحاديث، والروايات المنقولة عبر التراث ..

ما زلتُ أؤمن أنَّ الروايات ليست خطأً مستقيماً، وما زلتُ أقول إنَّ الرواية سيرة غير مثالية، وغير كمالية، ولهذا لا أريد أن أعتبر روايتي مثالية؛ لأنني لو فعلتُ ذلك فسوف أفسد مذاق الحياة، فالحياة شبق ثائر، لا علاقة له بالمثالية، سواء في سعادتها، أو حزنها، وإمكانية الضعف في شخوص أي رواية يعطيها مثاليها الطبيعية، إذ لا توجد شخصيات مثالية تماماً في الحياة، وإلا ما أمكننا أن نخترع هذا الجنس الأدبي، لعلاج قصورنا الطبيعي في حياتنا.

أتذكَّرُ ردِّي جيداً، على مكالمتك الهاتفية، التي خابرتني فيها قبل لقائنا الأول.

- عليك أن تحيلها لمذكرات شخصية، أو وثائق تاريخية؛ لأن المذكرات الشخصية توثيق لتاريخك الشخصي - دون أن تضطر لإنهائها، لكنك في الرواية تضطر للتوقف، وحبس أنفاس الحبر عند نقطة ما تنتهي إليها، وفي رأيي يا عزيزي، لا توجد رواية منتهية تماماً، فنحن بعد كل رواية نبدأ روايتنا قُرَّاءً، وتبدأ ولادات جديدة من لغة اللاوعي، المختبئة بين نصوص الرواية... هنالك تتفتح عوالم أخرى، يكتشفها القراء، بعد الاكتشاف الأول للنص من قبل الراوي.

أقول لك ذلك، لأنني أظنُّ أنَّ كل رواية ستظل عذراء، مهما تمَّ اقتضاض لغتها البكر، فلا أخفي عنك إيماني المطلق، بالتنوع، والاختلاف، ذلك الشيء عظيم في نظري؛ لأنه يَهْبُ الروايات عيون الوجوديين، واللا وجوديين، عقول القراء الذين يهتمون، بما يطفو فوق السطح، وهم أصحاب المنهج الظاهراتي^(١)، وعقول القراء، عشاق النظرة العميقة، وهؤلاء أصحاب المنهج الفينومينولوجي^(٢) ..

فنحن ممرات ودهاليز، غرف ونوافذ، مفاتيح وثغور، مسامات وعظام موصدة، عيون رخوة، يملأها الحنين، وأذان رطبة بذكر الحبيب، جفون ناعسة، وقلوب هجرت إحساسها، قد نختلف في المزايا، هنا نتعارض فيما بيننا كثيرًا، لكن حبرنا الأحمر السائل، في ممرات أجسادنا، يجعل المساواة بيننا حقيقة لا مفر منها، وهذا النسيج الجلدي أيضا يجعلنا في تساو تام، حين تُفتته رصاصة، وحين تُخيطة إبرةً بخيطٍ ..

ما زلتُ أؤمنُ أيضًا، أنَّ قصائد الشعر تكتب ولاداتها، وتحرر القارئ من عقده النفسية، فبعد القراءة تتوقف حكايته عند القصيدة التي عرف بها نفسه، لأن الشعر يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا، ولأنني أعرف نفسي أكثر مني، ويعرفني الشعر أكثر من نفسي، فإنني أقول لك

(١) هي مدرسة فلسفية أسسها إدموند هوسرل، كان لها تأثير في مدارس فلسفية أخرى كالوجودية، يقوم هذا المذهب على أساس أن ظواهر الوعي أو المعطيات المباشرة، يجب أن تكون محل الاهتمام الأول من جانب الفلاسفة.

(٢) "الفينومينولوجيا" تعني الوصف السيكلوجي المحض لأفعال الفكر.

— وفي أثناء كتابتي روايتي هذه، أني أقرأ بين الحين والآخر، مسودتك المليئة بالأسرار، ولعل قلبي يشعر أنه من الإنصاف أن يسردها داخل ممراتي، ودهاليزي هنا، مع حفظ حقك في نشر هذه النصوص، مستقلة كوثائق، هكذا فكرت، وأظنك ستقترح هذا عندما أخبرك مباشرة .

يوم آخر لا يشبه سابقه ،،

تسربت أصابع الصباح لنافذي، امتدت أشعة الشمس لجسدي، تغلغت لمسامات جلدي، وسقتني باليخضور، كنت أبتسم وأنا أتحوّل لنبتة بدائية، أرتشف فيتامين دال، وحاء الحب، وأشرع شفتي للتهويّ لرحلة من الضحك، أشعر بالشكر لهذه السيدة الذهبية، التي وهبنا الله إياها، تتصدر السماء كبروش يزين صدر الأفق، نبدأ منها رحلاتنا، ونشابه مع الطيور، في الانطلاق نحو بناء أعشاش جديدة تليق بالحياة.

ألا تبدو الحياة واضحة جلية المعالم في حركات الكون، كلما رأينا وجه النهار؟ بعكس الليل لا يدرك الناس منه سوى تفاصيل بعضهم، وأرواحهم في غرف النوم، ربما لهذا السبب تغزو الجيوش القرى، والمدن في الليل البهيم، الغارق في السبات، إذ تحت عباءة الليل تختبئ الجرائم، والسرقات، والاعتداءات، وأشكال العنف، وألوان الشر، يختبئ الحزن، والألم، خوفاً من ضوء يكشف عيون أصحابه للآخرين.

في ٢٠١١ التحقت لبيبا بركب تونس ومصر، وصليت لله ألا يُسرق فرحنا الربيعي، مع أني لا أفهم: لماذا سموه ربيعاً بالضبط؟ وقفز

سؤال كبير لذهني: هل كنا في الخريف؛ حتى استحقَّ أن يكون ما حصل ربيعاً؟ وهل شاخت هذه الدول حتى عاد إليها ربيعها؟ أم أنه الاعتقاد بأن الحكومات هي التي شاخت وكبرت، فوجبت إزالتها؟

تعلمتُ أنا فتاة الجيل السبعيني - الجيل الذي تم تهميشه، نتيجة ما عاناه من إقصاء وإبعاد عن حركة التطور الثقافي في بلادنا - أنَّ إثارة السؤال تعني البحث عن الإجابة، ولأنه جيل روَّض نفسه على عشق القراءة، وحبَّ العلم، وتعلم طرق طرح السؤال، وكيفية البحث عن الإجابة، فإنني تلكأتُ عن إجابة هذا السؤال، إذ كلما صدمني واقعنا المرير.... أحسستُ أنَّ استحقاق الإجابة كبير..

وها قد مرَّ وقت طويل على ولادة حقولٍ من زهور الياسمين، والجوري، وانطلاق زغاريد الحرية نحو فضاءات المدى، بعدما كانت حبيسة الصدور، وخروج سكان العتمة، والسجون إلى أراضي الضوء، والنور، فأصبح من الممكن أن تدخل قناة، وتصورك وأنت في غرفة نومك، دون أن يصادرك أحد.. إنها الحرية، التي جعلتنا نُشرع نوافذنا على مصراعيتها، بعدما كانت مغلقة طوال عقود، هكذا فَهَمَ البعض الحرية من شدة ما سحرهم الإعلام.

تذمرتُ كثيراً من هذا الافتتان الإعلامي، وهذا الانغماس، في تصوير الانتصار الشعبي على سلطة النظام، لكنني لا أخفيك أنني أُصبت بنكسة نفسية، وانطويتُ بعيداً، منذ أن تمَّ القبض على القذافي والاعتداء عليه بأبشع الصور، كان ذلك صدمة كبيرة لي، ولمن يناصرون

قيام دولة القانون، كان ذلك بعيدًا عن الإنسانية، من أشخاص تفننوا في تعذيبه، وكأن الأمر تحوّل لانتقام شخصي.

تصورتُ نفسي أُنْفِرج على أحد أفلام الرعب، ثم هطلت على فكري أسئلة ما كان لغيمة أن يكون في ربيع مشرق، لكنها مشيئة السماء، فكيف ننادي بحرية سجناء الرأي، ونبدي رفضنا للقمع والانتهاكات؟ ثم نبدأ نحن في ممارسة هذا السلوك المريض؟ كيف نترك المتسرعين يتصدرون مشهدنا أمام العالم؟ ويمثلوننا بهذه الطريقة البشعة - التي تعدُّ انتهاكًا حقيقيًا لإنسان كان أعزل؟

منذ ذلك المنظر، كرهتُ أن أنادي بالحرية، عندما لاح لي مضمونها في هذا الانفجار الكبير، المعبر عن مشاعر الكبت، والاحتباس الانفعالي، داخل نفوس الفاعلين.

نسيْتُ مطالبتي بحياة شريفة، وقانون عادل، ودولة خالية من مظاهر العنف والتأخر والجهل، كان الشعب ثائرًا، وغاضبًا غضبًا أعمى لا يرى، نسي أنَّ الحرية، لا تعني حق التصرف في أرواح غيرنا، ولا تعني تخريب الدولة، وإذا كانت الحرية تعني أن نسير بهذا الطريق، والبدء بهذه الطريقة التي مفادها تفجير العنف المكبوت، فلا شك أننا على جهل بالطريقة المثالية، لاسترداد الحقوق.

وقياسًا على ما يحصل في دول الربيع.. كنتُ أراقب الأحداث، وحراك الشعوب.... أعترفُ أنني من وقتها، بدأت أشكك في امتلاكنا مفهوميًا شموليًا عن الحرية، واحترام القانون، وخشيتُ فيما يخشى

العاقل، الذي يدرك ويعرف جيداً مفهوم المواطنة، أن تكون نظرية القطيع قد سرحت بنا، فسر حنا عن مرعانا، وتُهنأ داخل أراضينا، في غياب قيادة آمنة، موضوعية وحيادية، تحتمل إجابة السؤال الكبير الذي يحتاج استحقاق الإجابة الحيادية... لماذا انتقلنا من مرحلة تُرنا، إلى مرحلة هجنا ؟

بدالي في السنوات التي تلت الربيع، وضياح القطيع، أن الأمور تتجه نحو التذبذب، تارة نُحيي الشعور بحاجتنا السريعة إلى الاستقرار الآمن، فنعيش حالة من الترقب، والخوف، وتارة نجد أنفسنا في تسارع مع وتيرة الأحداث، فنخوض الانتخابات، ونذوق حلاوتها النفسية، والإحساس بالانطلاق والاستقلالية، نحو خيارات تناسب اختيارنا للشخصيات، التي تمثلنا أفراداً.

وقتها التقينا.

نعم .. أذكر أنك قلت لي إنك ما إن تأتي ليبيا، فأول شيء ستفعله هو أن تراني، وتحدث معي، ثم تتوجه للمشاركة في حراك فبراير، لحين انتهاء العملية السياسية، والمرحلة الانتقالية في ليبيا، وتبدأ في إنشاء مكتب لإدارة أعمالك .. إنه يومك، ويوم الكثيرين ممن أُبعدوا، وقطعوا كل هذه المسافات؛ ليعبروا عن استعدادهم؛ لاسترجاع كرامتهم، والعودة لأعشاشهم التي ظلوا يرونها بعين بصيرة، ويد قصيرة ..

في اليوم الأول للقاء بك، تصورتُ أن بنغازي الضيقة، ذلك المجتمع الصغير المترابط، يمكنه أن يغفر لي لقائي بك، وحاجتي للهواء

الطلق والحرية، تُشبه حالة التلبس في بلادنا، بصعوبة بدأ الناس يتقبلون المزيد من الحريات للمرأة، وأعتبره تقبُّلاً مؤقتاً، كالبالون المنفوخ، يمكنه أن يفرغ من الهواء، وينفجر في أي لحظة.

كان الوقت ضحى، وقد عاد أغلب الذين قاتلوا في الجبهات إلى منازلهم، وبدأت رحلة تحقيق الحلم العظيم، رحلة انطلاقة الطائر من عُشِّه إلى هدف قيام الدولة، لا أنكرُ أنَّ الهواء يملأ رئة الكثيرين منا، منهم من يحلم بتحسين معيشتهم، ومنهم من يحلم بفرص عمل، ومنهم من يحلم بالعودة إلى ليبيا بعد حرمان منها، ومنهم من يحلم بأن تكون ليبيا دولة حديثة الإعمار، دائمة الازدهار، راقية البناء والشكل الهندسي.

سرحت بناظري في المنار، إذ يتوسط قصر المنار خصر بنغازي، كبروش أبيض يزين وسطها، فيما استرسل عنقها الطويل، على امتداد البحر ليمعن في بياضه، محتفياً بزناده الأزرق الشاسع الممتد، كما المدى.

كان بحرهما شديد الزرقة، مُزبداً برغوة الملح الوفيرة، ومن الشرفة الخلفية المطلة على ميناء بنغازي البحري، شاهدتُ السفن تطفو، وتترنح في نعومة فوق صفحة الماء، ونوارس بيضاء تطلق صرخاتها بجذل، وفي ومضة برق تجدها تعلو ثم تهبط فجأة لالتقاط سمكة، يومها تضاعف عدد المارة قرب المنار، من جهة واجهته الأمامية، المُطلّة على شارع جمال عبد الناصر، أمّا من جانبه يمكنك أن تسترسل في خطواتك؛ لتجد نفسك تسير نحو شارع سيدي عمر المختار ..

كنتُ أجد نفسي هناك، وأترك قلبي مُنسباً كالماء، يتنشّق رائحة
القهوة المخلوطة بمزيج الكزبر والهيل، هنالك أستشعرُ بعمق روح
الصادق النيهوم^(١)، تجول، وتصول في شوارع وحانات بنغازي،
بمقاهيها، وشرفاتها المبنية على النسق الإيطالي، تسرد تاريخها في باحاتها
العتيقة، وتفوح منها رائحة الثقافة، والهوس البنغازي بالرسم، والفن
التشكيلي، والشعر، والمسرح، والتمثيل.

في بنغازي يا عمر ... يمكنك أن تقبض في كفك على نجمة ذهبية،
وتغمض عينيك، وأنت تتصور هامات الشعراء، والمفكرين الذين
عبروا من هذه المدينة، يمكنك أن تتصور الأصوات الحرة التي كانت
تناهض العنف، والقمع، وتشكو في تذر صرخ سوء الأحوال
المعيشية، دون خوف، يمكنك أن تتصور تعداد الأرواح الشابة، التي
أزهقت من أبناء هذه المألحة العتيقة، في أحداث السفارة الإيطالية بـ
٢٠٠٦؛ ليقولوا ما في قلوبهم من تعابير تشجب سياسات النظام،
واستفزاز الطليان المستمر لنا.

- هذه أنت، يا فراشة النهار!

- أهلاً عمر، وأخيراً لييا بين عينيك..

كنتَ فارح الطول، مهلباً بإطلالتك الجميلة، وقلتَ بسرعة من
وراء نظارتك الشمسية:

(١) كاتب وأديب وفيلسوف ليبي.

- نعم أخيرًا، ليبيا والحرية، والعودة لتراها .. الحمد لله، ما رأيك
أن ننزل إلى باحة القصر؟
قلتُ بسرعة أيضًا:

- لا، دعنا في الشرفة، فثمة ممرات طويلة تبدو جيدة للجلوس
على الطاولة، وهناك بأسفل الشرفة معرض قائم، على أنقاص الحرب،
وفرق شبابية تغني للانتصار والحرية ..
- نعم .. أرى كل شيء من هنا .. حسنًا سنجلس هناك، بشكل
أوضح.

وأشرت إلى طاولة قريبة من زاوية الشرفة، مقابلة لمدخل القصر
الكبير ...

وجلسنا كأنها جلسة تاريخية ..

كما يجلس اثنان، من زمنين مختلفين ..

عائدٌ من الفعل الماضي، وعائدةٌ من أزمنة الغبار.

كنت أنت فاقداً لنا، ومفقوداً منا، وكنتُ أنا فاقدة لي، ومفقودة
منك، وبين تلالٍ من ركام السنين، أنت من زمنٍ، سادته لغة المكر
والحرب، وأنا من زمنٍ سادته لغة الكبت، وطاعة العصا ..

كلانا كان يتعلمُ المشي على قدميه، أنت تحبو لتدخل أسوار المدينة،
التي كنتَ خارجها طوال سنوات تغربك عنها، وأنا أحبو لأخرج من
كرتونة - طال بقاؤها في منازل العتمة، حتى أرى النور.

كلانا كان بأجفان تهدلت، من السهر طوال ليلها، فحففر الشوق
أخاديد حنيته فوق خدودنا، بعد أن تسربت الدموع إليها، فاتخذتها
مجرى لها.

كلانا كان مُعَبِّاً بالأسئلة، أنت تسأل عن الأماكن وإلام آل حالها؟
وأنا أسأل عن الأزمنة، وماذا حصل في الخارج؟

كلانا جاء من مدن محملة بلغة الطين، أنت من عالم يحترم قيم
الإنسان، ويقدس عترة الطين، وأنا من عالم ينبذ الإنسان، ويدوسه فوق
الطين.

كلانا تواطأ مع التاريخ؛ لينشئ سراديبه السرية، فكتب أجندته،
وترك لأصابعه مشيئة اقتراف الذكرى، ثم تغيرت أزمنة الريح، فآن
أوان اكتشاف كهوفنا الذاتية، وقنوات صمتنا المُخَبَّاة ..

كلانا خرج من جدار الزمن، أنت خرجت من جدران السجون
الباهتة، وأنا من جدار هذه البيضة التي فقسست للتو، تحاول أن تتلمس
طريقها نحو العالم الخارجي، إنها ليبيبا العذراء الصغيرة، ما زال بصرها
في أطوار التكوين، وجناحها بصعوبة يرفرفان، وقدمها بصعوبة
تتعلمان المشي.

كلانا ممتلئ بحكايات مُبَلَّلَة بهاء الحنين ...

فَمَنْ منا سيبدأ الحوار؟

وَمَنْ منا سيكتب تاريخ ميلاد أول لقاء بيننا؟

مَن منا سيضيع في لغة الاسترسال؟

ومَن منا سيقراً على جبين الآخر آية النور؟

تحدثنا في ذلك اللقاء كثيراً، وعلّق شصّ اللقاء باللقاء، فأخرج لغة عشقٍ كبير لنا سواء، لم أكن أعرف أنني بدأتُ أتعلّق بك أكثر، إلا بعد ذلك اللقاء العميق .. لقاء يشبه شروق شمس قوي، اجتاح بضراوة لغة السديم^(١)!

طوال الوقت الضائع من عمر الدولة، وأنا أقرأ سيرتك الذاتية، أتساءل عن هذا القادم لي عبر تاريخ أزمّة عتيقة، عاش فيها أهلنا تاريخاً أسود، من الاحتلال الإيطالي الفاشي، ودخلت بلادنا مستنقاً موحلاً بالظلم، والإقصاء، والتشريد، وسلسلة طويلة من مراحل القتل والشنق، والاختفاء والنفي.

كانت حركة الجهاد الليبي منهكة في أتون الحرب، وتُمارس ضدها أشد أنواع الاعتقال وأعتها التي عرفها التاريخ البشري، كنت أتذكر أصابعي وهي ترتطم لأول مرة، بنتوء أجوف في ظهر جدي، متسائلة بدهشة: ماذا يكون هذا يا جدي؟ خيم صمت ثقيل عليها، انتهى حين ذرفت دموعها قائلة لي: إنه انبعاث من الأحمال، التي كنا نحملها فوق ظهورنا باستمرار، حين كنا نتنقل ونعمل في المعتقلات.

(١) تجمع نجوم بعيدة تظهر وكأنّها سحابة خفيفة، أو بقع ضعيفة النور، كما يتكوّن السديم من غازات مضيئة شديدة الحرارة، تدور حول نفسها.

لا أنسى جدي الذي تُوفِّي بعد سنوات جهاد طويلة، لم يعيش فيها حياة مستقرة، إلا أيام قيام المملكة الليبية، تلك الأيام أعتبرها العصر الذهبي في ليبيا، لا أنسى حقائق دامغة عن هذا التاريخ المحمل بمنجزات الطليان ببلاذنا، عن حبس العقيلة^(١) وعداه، لا أنسى تلك الصورة وهي تتوسط صفحة المسودة، وتكتب تحتها بخط واضح: انظري بعد قراءة هذا الجزء لصورة والدي، وركزي في قدمه اليسرى، وعينه اليسرى، لسوء حظه العين والقدم اليسريان مصابتان، وأضيف لك: ربما حتى قلبه! ستشعرين به كالتنور الفائر، من شدة الجمر، يضح الألم، ويتنفس برئة يمى، عدا أن أبي يسمعُ سمعاً ثقيلاً، يرهفه كلما ذكرنا سيرة حبس العقيلة، وقصيدة الشاعر رجب بوحوش^(٢) التي يقول في أجزاء منها:

* ما بي مرض غير فقد الرجال..

* وفنية المال..

وحبسة نساوينا والعيال

ما بي مرض غير فوت الحدود..

ووقاف سود..

وشبردق ملوي على رأس عود

(١) يقصد بها قصيدة "ما بي مرض غير دار العقيلة".

(٢) شاعر ليبي من قبيلة المنفة، من أشهر أشعاره (ما بي مرض غير دار العقيلة).

لا حيل لا قادرة لا جهود..

لشيل الثقيلة.

زاهدين في العمر لوجا وكيلة

ما بي مرض غير برمة أفلاكي..

وهلبة أملاكي..

وضيق دار واشون قاعد متاكي^(١)

كان شاعراً يُشكل ثقلًا كبيرًا في التراث الشعبي والمأثور، استطاع نقل معاناة شعبنا في معتقلات الطليان، واستفزَّ بقريحته شعراء كُثر؛ لمحاكاة قصيدته الشعبية العظيمة، فكتبوا على منوالها قصائد عدة، وردوا عليها بكلمات أشد بلاغة، جذبت ذاكرتنا لحقبة سوداء، وذكرتنا بشعبنا الغائب وراء سجون الطليان ومعتقلاتهم، وتعرضه لأبشع أنواع الظلم والاستغلال.

(١) في هذه القصيدة الطويلة كمعلقة شعبية، يتداول الناس أحوال أجدادنا، من قول الشاعر في شكواه من خلال معانيها: ليس بي مرض إلا حبس العقيلة (معتقل العقيلة) وفقد رجالنا، وفناء مالنا، وسجن نساءنا وعيالنا، ليس بي مرض إلا قطع الحدود الواصلة بيننا وبينهم، عن طريق إقامة الأسلاك الشائكة والتي عبر عنها بـ(شبردق) حتى أنه زهد في عمره لوجه الله، ووكله إليه، إذ لا يملكون جهداً لعمل جهود فاعلة؛ لإنقاذ بلادهم، فهذا مؤثر ما دامت الأفلاك، أو الأقدار قد دارت دورتها به، فسلبت أملاكه، وضاعت به الدار، مع عائلات كبيرة لا تملك قوت يومها.

أما سبب إصابة أبي، القاسم حسن، فقد لاقى الويل، وعاش وبال
المطاردات من الطليان، وفقد عينه اليسرى، وقدمه اليسرى، كان نتيجة
زخم من الرصاص، بعد اكتشافه يتجسس لصالح المجاهدين في الجبل
الأخضر، ظل هكذا مثل رجل فَقَدَ ظِلَّهُ في الحرب، يسير بنصف
جوارح، والنصف الآخر بقي له ليتعذب به؛ حتى تغمّده الله برحمته، في
أوائل سنوات قيام المملكة الليبية المتحدة.

ووجدتني أكمل الاستماع لك في حديثك عن والدك، بلقاء آخر -
خلال سنوات من الربيع، ثم أسابق صفحات المسودة التي أحضرتها
معي، فوصلت لصورته الباهتة، والتي كان يتكى فيها على عكاز هو
أقرب للعصا الغليظة ... كانت ملامحه فعلاً قاتمة، ومعذبة، ويبدو أن
هنالك الكثير مما يقال في نبرة صورته... تساءلت حينها: كم من روح
خطفت؟ وكم من قلب تعذب في أتون الحرب، وبين برائن الاحتلال
الإيطالي؟ لم تنج ليبيا من مافيا الألم، والعنصرية، لأنّ المعتقلات مقسمة
عنصرياً لأشكال وأنواع، تعددت غاياتها، والطريق إلى الموت واحد،
وإن حمل أوجهًا كثيرة ..

آه لم ننج من النفي

تقولها يا عمر بحسرة؟

رفعتُ رأسي الصغير وقلت لك: طوال حياتي تعلمت مفهوم
النفي، بأدوات النفي، التي تنفي الكلام، وتعبث بأجساد الكلمات،
فتسكّن الذي كان مرفوعاً، ومنصوباً؛ ليعيش ساكناً، وفي تاريخ

الاحتلال الإيطالي لبلادنا، ثمة سكون من نوع آخر، سكون أبدي،
يحيل المتحرك إلى جثة هامدة وساكنة، ينفيه بلا قلب إلى جزرٍ، ومدن
بعيدة عن عيون ليبيا ..

كنت أرتدي فستاناً أبيض اللون، أزيّنه بوردة جورية حمراء
صغيرة، وملتفة مثل زهرة قرنيط مغلقة، تعلو ياقة الجاكيت الذي
أرتديه فوق الفستان، فيما بقيت عيناى تجوبان دقة ملاحك الشرقية،
أنف دقيق، وشفتان ملتويتان، وشعر أجعد مسترسل إلى حد ما، أصابع
طويلة، الأصغر منها مبتور إلى حد ما، طولك الفارع يشبه طول أبي
رحمه الله، ويذكّرني بالصادق النيهوم رحمه الله، حين كان يطلُّ على
مقاهي بنغازي، ويحدث ضجّة بحضوره المهيّب.

إنَّ أجهل شيءٍ تتعلمه في بنغازي، هو الثثرة الجميلة، تجعلك
ترتبك في نفسك، وتنصت جيداً لما يقال حولك، ثم تقرر أن تعيد
ترتيب داخلِك؛ لأنك أمام مجتمع ذكي، وفضولي، يقرأ الأمور بطريقة
مختلفة، ويتكلم بصوت مسموع.

أما عني، وأمام هذه الهامة القادمة من الزمن الآخر، فأنا امرأة
مستديرة الوجه، ملتفة القوام، طويلة إلى حدٍّ ما، حنطية البشرة، لوزية
العينين، كستنائية الشعر، متشربة من ثقافات الأمم الأخرى، تعلمت في
جامعات من ورق، وقرأت أمهات الكتب، واقتنيت الروايات العالمية،
وتعاطيت الشعر، دون تمييز بين الأسماء التي نهلت من لغتها ..

أدرُسُ أي شيء يقتل الضجر في روعي، فلم يتسن لي الوقت
لأكمل تعليمي الجامعي، توقفتُ في السنة الرابعة بكلية الحقوق،
وعدتُ للعيش بين الجدران، كتحفة مُجَبَّاة في البيت، كلما خرجت جعلوا
لي كلبًا يحرسني، ينبح لمن ينظر متفرسًا في وجهي، ويركض وراء من
يحاول الاقتراب مني، وبقيت هكذا حتى تراكم الغبار على جسدي،
فملّني أخي، وحاول تزويجي بصديقه الحسين، وافقتُ عليه وأنا
مغمضة العينين، معصوبة الجبين، قصيرة اليدين، أما القدمان فأقسم
لك أنهما مبتورتان، لا أذهب لأحد، ولا أقابل رجلاً ..

تزوجنا زواجًا تقليديًا، ويوم زفافنا نظفوني، نظفوا جسدي من
الغبار العالق به، على مدى سنين، كتهيئة للخروج إلى الضوء، وقلعت
النساء بحلوى الشمع حشائش السافانا، التي نمت فوق هضابي
وسفوح، صبغن لي شعري، وقمن بتهيئتي لزوجي، فحضبن يديّ،
وقدمي بالحناء، ثم جعلنني ألوك السواك؛ لتتلون شفتي، ويزداد بياض
أسناني، وقمن بجلب اللكلوكة (١) لي، لغرض تسمين وجهي، وزيادة
استدارته بعد الزواج.

وبدأن في إلقاء المحاضرات عن الطاعة، والتطويع، وعن فن إعداد
الطعام، وفن التزاور والتواصل، وفن الاهتمام بالجسد؛ لاسترضاء

(١) اللكلوكة: مجموعة من حبوب الكمون المطحونة، والسمسسم، مع خليط من
أنواع اللوز، والفول السوداني، تُطحن ويسكب فوقها زيت زيتون وتؤكل
صباحًا على الريق، يستخدمها السكان، كمقوٍ لعلاج النحافة، والتسمين
للوجه.

زوجي، ثم اختلت بي خالتي، بعدما غلّقت دوني الأبواب، وبلهجة حادة وتحذيرية، وجهتها لي فقالت: إياك أسمعك (حرجانة)^(١) امسكي بيتك، وأطيعي زوجك، واثبتي... ورسخت هذه المقدمة في رأسي، كمقدمة ابن خلدون في رأس كل عربي.

صباح يوم الحناء، قدم أهل زوجي بالهدايا بحسب العادات، وجلبوا معهم ما يُسمى مجازاً في العرف البنغازي بالسياق^(٢)، وهو مصروف الحفل، بما فيه من أغنام يتم ذبحها لاحقاً، ومواد غذائية تكفي لتسيير الحفل، وهدايا أخرى تشمل ملابس داخلية، وملابس سهرة لي، وحلياً وجواهر.. ولعلاقة^(٣) بشكلها الكبير.

ما إن سمعنا أصوات السيارات، وهي تزمز عند مدخل شارعنا، حتى قامت بعض النساء تحت وقع الزغاريد، بوضعي تحت جرد جديد^(٤)؛ لإخفائي عن أهل العريس، وفي هذا إشارة للفضول حول العروس التي انتقاها العريس، دون غيرها من فارسات القبيلة....

(١) حرجانة: بلهجة شرق ليبيا تعني تركت بيت زوجها نتيجة خلاف * اثبتي: بمعنى كوني متوازنة، ويقال في اللهجة زوجة فلان ثابتة.

(٢) السياق: هو مصروف يُساق في يوم مخصص لأهل العروس، يجلب فيه أهل العريس هداياهم كاملة للعروس، وأهلها، وضيوفهم.

(٣) لعلاقة: ينطقها السكان بدون ألف، وهي قفة كبيرة، تُجلب للعروس، وتحتوي على جميع أنواع البخور، وحلوى للأطفال، وسواك، وأشياء أخرى للزينة.

(٤) الجرد: رداء طولي، وزى شعبي، تتدثر به اللبيبات، عند الخروج من البيت، ويستخدم أيضاً في الأفراح والأعراس، وأثناء طقوس يوم حناء العروس.

بانتهاء الطقوس، وبدء عودة أهل العريس لبيتهم؛ جاءني أخته هنيئة، فحاولت الحديث معي، وكشف الجرد عني، منعها شقيقتي سمية، فاضطرت لأن تدخل رأسها تحت الجرد، وتكلمني وجهاً لوجه، لأجدها تمدُّ لي خاتماً كبيراً، وتهمس بلغة مكر ومرح: يقول لك الحسين اهتمي بلون الحناء، اجعليه أحمر قانياً، وارفعي الحناء فوق ركبتيك، ولا تنسي السواك، إنه يحبه ..

هذا هو ما تفعله النساء في العهد الذهبي، بل هذه حقيقة حياتنا الاجتماعية، دون أن يتشدد إعلامنا على العالم بأن المرأة حرة، نكبر وكلمات أمهاتنا ترطن في آذاننا: يا بنتي تعلمي، لتتزوجي، وتستفيدي من شهادتك، فكان التعليم تحصيل حاصل، ونهاية المطاف من أجل اللحظة التاريخية للمرأة العربية، وهي أن يتزوجني الرجل، صار ذلك هدفاً للفتيات، وسبباً وجيهاً للبحث عن فرص العمل، ومن أجل مساعدة الزوج، لا من أجل تطوير البلاد، والاستقلالية، وتحرير عقل المرأة من التبعية للرجل، ومنع تكريس جسدها له، متهاونة في حقوقها النفسية، والصحية.

تكريس يتم وفق طرق حديثة، تضحك فيه الفتاة على نفسها، وتصدق أنها تعمل بحرية، وتسهم في حركة التغيير، وما إن تحدث أول قفزة ذكورية فوق جسدها؛ حتى تتحول لشيء يتبع أملاكه الخاصة، فتحصل ثورة التحول في تفكير الفتاة، بتقلدها منصب صاحبة السعادة في البيت، على حساب العمل، وإثبات الذات، وعليه تطلب من إدارة

العمل، أن يبرمجوا لها عملها بحسب ظروفها، فتقضي نصف الدوام في انتظار العودة للبيت، ويصبح محور اهتمامها، وحياتها في العمل، يدور حول لحظة العودة إلى البيت.

خِفْتُ أَنْ أُشْبِهَ الْبَقْرَةَ

فبعد أن تزوجت الحسين - باعتبار أن الزواج خلاص للمرأة من بيت أهلها، ومن حصار القبيلة ما دام اسمها لصيقاً بالكنية....

شعرت أن الزمن داهمني معه، وبالاحتقار لنفسي، لماذا ينتهي بي الأمر لهذا المطاف؟ ولأن أبدأ فاصلاً تاريخياً آخر، من رحلة كل منظومتها مبرمجة على إلقاء الأوامر، اطبخي لي، ونظفي بيتك، وابقِي في البيت، واكوي لي ملابسِي، واهتمي بأهلي، وأعدي لي كيّاً، وجهزي نفسك للخروج للأهل، الجيران، وأهل الزوج، طوال أيام الأسبوع لا توقيت محدد، ولا نظام مرتب، للتنظيّمات القبلية الاجتماعية، فأغمر جسدي بينها، وأنا أتقلُّ في الأفراح، والمآتم، والدعوات، من بيت لبيت، أمارس مجاملة الأكل، بحسب العادة اللبّية في الضيافة، حلو ومالح، بشكل متواصل، عصائر ومعجنات، إلى أن أكتشف - ذات يوم- أن جسمي يعدُّ مخزناً لأمراض الضغط، والسكري، والمرارة، وتآكل الأسنان ..

هذه المرحلة الأولى في الزواج، ثم تبدأ مرحلته الثانية بعد الولادة، ويبدأ الزوج في أطوار التذمر، وطور إهمال الزوجة، المحملة بالإرث الاجتماعي الثقيل، الذي همّش دورها كونها إنساناً ..

بدأت مع الحسين أشعر أنني أتحوّل من نظرية الضلع الأعوج، إلى نظرية الجسد المسخر له، الجسد الذي يتلقى حالات الكبت العاطفي لزوجي، فالحياة أيضاً قاسية، على الرجل الليبي، الذي عاش في بلاد يمكنها أن تقتله، وهو يسير في الشارع بسبب معاكسة سيدة ..

ورغم تحفظي على نظرية الضلع الأعوج، احتراماً لقوامه الرجال علينا، لكنني أستغرب من النظرة الدونية، التي تُرمق بها المرأة في مجتمعاتنا، ومن تفنن بعض الذكور في جعلها مجرد شيء، لا كيان، ومجرد جزء، لا قطب، ومجرد عامل، لا أساس، في الحقيقة هذا ظلم، مُحجّف في حق روح، تتنفس، وتحسّ، وتشعر، وتتألم، تفرح، وتتعب، ربما أكثر من أصحاب الضلع الأعوج!

لم تطاوعني روحي لفعل ما يريده الحسين بشكل مستمر، حتى يكون الأمر جلياً له منذ البداية، فأنا لي كياني ورأبي، وحقيقة رفضي ونظرتي لجسدي، أنه له ما له، وعليه ما عليه، لكنه ليس ملكية شيء لزوجي، ولست مُكرّسة له، ولن أكرس نفسي لإرث اجتماعي بغضٍ.

كم من مرة أخبرته أنه يمكنني أن أخرج ولو بشكل محدود، وأمارس هواياتي وأقرأ وأشارك بالنوادي كعضو فاعل، وأحترم نظرتي لجسدي، دون أن أشعر أنني مكرسة لهذا الدور فقط، كنت أختلف معه

كثيراً .. فيتهمني أنني امرأة سليطة اللسان، ولست على طوعه، ونكدية جداً.

لم نتفق، ولم أهتم بالجميل الاعتراضية التي ترميها لي حماتي، عن تفكيرها في تزويج الحسين بنت خالته، لا أريد أن أشعر أنني أعيش معه كبقرة، على حد تسمية صديقتي سعاد لنفسها، فبعدما جرّدها زوجها من عملها، ومن مرتبها بالاستيلاء عليه، وانتقلت من عملها أستاذةً معيدةً بكلية الحقوق، إلى معلمة في مدرسة تقع وجهًا لوجه، أمام بيتها، ذكرت لي متألة:

كلما خرجتُ لمزرعة أهل زوجي، شاهدتُ كيف يعلفون البقرة، تأكل، وتشرب، وتنام، تتزوج ثم تنجب، فما من فرق بيني وبينها، إلا أنني أشعر فقط بالسمو عنها قليلاً، كوني إنساناً، أفكر أفضل من البقرة، أنا غير راضية عن نفسي، أطبخ ولا أخرج من المطبخ، أو أكون في غرفة المعيشة لاستقبال الضيوف، ثم أصل منهكة إلى سرير نومي، لأداء واجب أقوم به دون شعور بذاتي .. أنا أعيش في زريبة يا صديقتي!

رددتُ عليها مُعلقة، ومُصححة: لا، يا عزيزتي، أنت تعيشين في زريبة محترمة، وأنيقة، بها سرير، ومراة تشاهدين فيها مراحل التحول على وجهك، وجسدك، وعمرك، في أثناء اندثار عقلك تحت الأغطية!

لا أنكر أنني خِفْتُ منذ ذلك اليوم، أن تتربص بي نظرية الأبقار، فصارت تلاحقني، وصرت أرفض كل ما يعني أنني أستجيب لطلب الحسين بناء على رغبته، وليس على توافق بيننا، خذلت في بعض المرات

في الطبخ، فكنت كلما مرضتُ ركنتُ للراحة، واحترمتُ ألي وقدسيته، اعتذرتُ له بحجة الوهن، وتعللت للحسين أني أشعر بالغثيان في أثناء الطهو، كان يتدمر ويقول لي: كل النساء يعملن في أثناء المرض الشهري .. بماذا تتميزين عنهن؟

لذلك كلما شعرت أن هناك رغبة في تكريسي له، أطفأتها له، وكلما شعرت أنه تمنّ واحترام لآدميتي، احترمتُ شعوره، ويبدو أن هذا أصابه بخيبة أمل كبيرة، فوسمني بالأنانية، العاصية لزوجها، الراكبة لرأسها على حد قوله لأخي .. فكان الفصل ..

وأي فصل؟

إنه العار الكبير، وبموجبه يمكن أن تلحق بي تهمة أخلاقية، مع أي رجل أتحدث إليه لمجرد أنني مطلقة، وستظل صفة مطلقة تلازمني أكثر من اسمي، حتى أن الناس - إذا سألوا شقيقتي سمية عني سيقولون لها: كيف حال أختك المطلقة؟ هل جاء نصيب أختك المطلقة؟

أمّا الجيران، فحيثما خرجتُ وذهبتُ، سيكون التعليق: دخلت المطلقة، وخرجت المطلقة، ولأني كذلك، كان لزاماً على أخي نفسه توصيلي، لأي مكان أريده، خشية العار وكان جزاء أخي دعوة كبيرة يسمعها من الناس: فرّج الله عليك، وستر أختك ال ...

وطبعاً فرّج الله على أخي الذي هو شقيق المطلقة، المتبوع بخطيئتي إلى يوم الزواج العظيم.

وهكذا مضى بي الأمر، ومضى بالكثيرات، الواقعات تحت حكم
الأسر في ليبيا، فلا يخلو من بعض الأحكام الجائرة التي تلحق المرأة،
تكاد تبلغ حد الحَجَرِ عليها، لئلا تتزوج سوى ابن عمها وهَمَّها.
حسناً

الحمد لله أنني تجردت من إحساسي كبقرة، وقبلت بجهنم طلاقى!

ها نحن أنا وأنت نلتقي مجدداً، ونتلاقى في جملة أخطاء زرعوها
داخلنا، فكبرنا، وكبرت أشجارها فينا، تكاثفت أغصانها، وعششت
فيها العادات والتقاليد، وتمكنت من عقول مَنْ نفتخر بأنهم مثقفوننا،
وهم بذات التخلف الاجتماعي، يرزحون تحت وطأة القبيلة، وتعصب
المدينة، والانغلاق الشديد، كالنا بلغ حد الترف من التشبُّع بالثقافة،
حتى أنني لم أعد أشعر أن هناك من يفهم حوارى، ولا كتاباتى، وحتى
أنك ستحتاج إلى وقت طويل؛ لتتأقلم على العيش في ليبيا، التي ظلت
بنوافذ وأبواب مغلقة، لا تفتح مصراعيها للنور، وللتطور.

طلبنا قهوة من النادل الذي تألَّق في سرعة تحركه، كنتُ في السابق
حين التقيك أعشقتُ تناول قهوتي معك على شرفة قصر المنار، بعد أن تم
الاستيلاء على القصر وفُتحت أبوابه، للعوام من الشعب، وإنشاء
متحف فني داخل ردهاته الفسيحة، ومرسم صور لشخصيات شهيرة،
بفرشاةٍ وألوان ليبية، لست أم كلثوم، للملك السنوسي^(١)، للصادق

(١) الملك محمد إدريس الأول، هو أول حاكم لليبيا بعد الاستقلال عن إيطاليا
وعن قوات الحلفاء في ٢٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥١ م وحتى ١٩٦٩ م.

النيهوم، وأحمد رفيق شاعر الوطن^(١)، لمحمد عبد الوهاب، لمي زيادة، للذين أكلهم الغبار، ولم ينسهم التاريخ في ذاكرته الزمنية ..

أما الآن، فنحن نلتقي في مطعم متواضع، وبعيدٍ عن وسط البلاد، وعن الأماكن الرائجة برائحة الزمن والتاريخ، الأماكن التي أصبحت مهجورة من السكان تعتبر خطيرة، إذ ترتعُ فيها الجماعات الإرهابية، وتستولي على مبانيها، ومقدراتها.

كانت نظراتنا تتلاقى في إعجاب جميل، وكنتُ كعادي امرأة فضولية، مُتفرّسة في قراءة العيون، فأول ما تبادر لذهني هو: كيف سنعبر مساحات الأزمنة بيننا؛ لنتقي عند نقطة تفاهم بيننا؟ لم أكن امرأة صالحة للحب، فهذا الزمن ليس لحبّ رجل، بل لحبّ وطنٍ يحتاجني بشدة، كما يحتاج كل محبيه وأهله، ليقوم سالمًا معافً ... وتلك الفوضى الخلاقة التي تحيط بنا، وتأكل الحصاد في دول الربيع، بدأت بالتهام لحمنا البشري، ولم تستح من أكلنا في شراهة قبيحة ونزق!

كان الزمن صالحًا جدًّا للنقاش، وفتح جبهات من الوعي، وزرع مشاتل الورد، وبناء أعشاش صالحة لاستمرار الحياة في أراضينا الممتدة.

قلت لي بصوتك العميق: هل قرأتِ روايتي كاملة، أم ما زلتِ تصرين على أنها وثائق؟

(١) أحمد رفيق المهدي (١٨٩٨ - ١٩٦١) أديب وشاعر ليبي، لُقّب (بشاعر الوطن).

ابتسمتُ لك، فيما تسللت لشفتي رشفةً من القهوة المرة، وأجبتك:

يمكن معالجة النص والوثائق، لإحالتها لسيرة ذاتية، إنَّ ما جعلني مصرّة أنها وثائق، فذلك لأن التوثيق بالتواريخ المؤرشفة بدقة - في حرب تشاد - يُحيل ما كتبتَ إلى حدث تاريخي، ولو فكرت في كتابة رواية تاريخية، يجب أن تعالجها بأسلوب أدبي، وتصبح صالحة للقراء، ومثيرة للقراء، ومحفزة للمتابعة... أي تخلطها بالسرد؛ لتحيلها من نصوص مقالية، إلى حكاية طويلة، أو رواية..

- في هذه الحالة، أنت تضعين النقطة في آخر السطر، قبل كتابة أول كلمات السطر.

- عزيزي، كتابة رواية يعني أن تروي حياة، وتسرد تاريخها بأسلوب روائي... قصصي... إلخ.

- أنا كتبت معاناتي، وما خفي من المرحلة، محافظاً على التواريخ، وتسلسلها، لأنها حرب موثقة.

- التواريخ الكثيرة، والأحداث تكبل سطوة السرد، وتدخله في سلطة المقال التاريخي.

إلا إذا افتعلت لها سرداً، يليق بها، تضيف لها من خيالك، فتكون مقبولة للقراء، و.....

قاطعتني:

- هل لي بطلب صغير يا إناث؟

يا الله!

هأنت تقول لي أجمل اسم، أسمعه منك مباشرة، هذا الاسم الذي
أهديتني إياه، ومنحتني إياه من كينونة عالمك، فجعلتني أُغَيِّرَ اسمي في
صفحتي الشخصية إلى إناث، احتفاء بالأنثى سر وجودنا معًا ..

- نعم ما طلبك الصغير عمر؟
- هل يمكن أن تدجي وثائقي في روايتك التي تكتبينها حاليًا؟
- مع أي توقعات طلبك، ولكن لماذا تطلب ذلك؟ يمكنني أن
أساعدك لتكتب سيرتك كرواية، وكما تشتهي يا عمر ...

قاطعتني وأنت تقول:

- أشتهي أن أقرأ عني يا إناث، أشتهي أن أجد نفسي في رواية،
أو في ثلة نصوص، أو قصائد، في أي تاريخٍ مشرّدٍ من حانة التاريخ،
تسرب غصبًا من سراديب الإخفاء القسري، وخرج للنور ..

أنا بلا حقوق تذكر منذ سنين مضت.

أنا الجزء المخفي من الحكاية ..

والمقطع المبتور من الرواية ..

والصفحات الفارغة من كتاب التاريخ الليبي ..

كان عمر يتحدث بمرارة، وينظر لي بعينين عميقتين، وشاردتين،
وكفّاه تضمان بعضها بعضًا في قلق، كان قميصه الأبيض يحاكي بياض

فستاني، ولم أكتشف أننا التقينا في الزمن الأبيض النقي، إلا بعد أن قلتُ له مشجعة: "استمر يا عمر، أسمعك، قل ما في بالك" ..

تناول عمر قهوته بهدوء، ونظر إليَّ بعمق ثم قال بهدوء:

"إناث، عدتُ إلى ليبيا، نعم، ومنذ ثلاث سنوات وأنا أشارك في جبهات القتال، ومن غرف العمليات، أدت حق النداء لشعبي، فأين سأزرع روعي في هذه الأرض البدائية؟ تغيرتُ أشياء كثيرة، وتغيرتُ أنا فكرياً، وعقلياً، تغير العالم حولنا، وهنا كل شيء قديم، ومتأخر، بصعوبة بدأت الصحافة تتكلم بحرية هنا، والناس بدأت تتفهم الاختراق الذي أفسد حراكها، ولا يمكنني أن أقول إنَّ هنالك أخطاء كبيرة تحصل، وأنا خرجنا جدًّا عن المسار، هذا يعني أنني سأعرض لاغتيال آخر، والتحق بمن يفتح فمه بكلمة، قولي لي: أنا مخطئ؟ أو أنني أُسيء تقدير الأمور؟

- عمر، أفهمك، ثمة أيّدولوجيات دخلت، فأفسدت رياح الربيع العربي بأكمله، حسناً... حاول أن تكون بخير، وشارك بالقدر الذي يمكنك أن تجد فيه نفسك..

ولم أدرِ إلا ويدك تمتدُّ لي، وتضمُّ كفي الصغير، وتنظر لي نظرة عميقة، ثم تنتهد وأنت تقول:

- أنت إنسانة مثقفة، وملهمة، ولديك فيض نوراني، يبصر الحقائق عن بُعد، وكم أحترمك، وأحبُّ حقيقتك كما هي ..

- عمر أنت في نظري رجل نبيل، ولديك أيضًا بُعد نظر بحسب تجربتك وخبرتك في الحروب، التي كنتَ فيها قائدًا يحارب بالفكر، في صحراء تشاد، سأكرس وثائقك في فصول نصوصي الروائية، وأكتبها كما تشتهي وتحب، هذا وعد، على أن أسمىك فيها نبيل، كما هو وارد بصدافتك لي على فيس بوك.

- سَمِنِي ما شئت، أريد أن أجد الرجل الذي ضاع فوق رمال الصحراء، الرجل الذي فَقَدَ ظِلَّهُ! أريد أن أستعيد ظلي هنا، بعد عودتي لبلادي؟

- وإذا وجدته بعد قراءة روايتي؟

- سأرسل طلب صداقة باسمي (عمر قاسم) ستعرفين أنني آمنت بعودة الحرية لبلادي، وأنني عدتُ لبيئًا حُرًّا طبيعياً، كما أريد أن أكون بهذه الأرض .. ولن أتركها، أو أتركك وحدك بعد ذلك .

- سيعود ذلك الظل لصاحبه، أعترف لك أنني مثلك صدمني تغيير مسار الفرح في بلادنا.

- نعم يا إناث، بدأت الاغتيالات، وبدأت تصفية النشطاء، والضباط .. لاحول ولا قوة إلا بالله.

- لم يكن في الحسبان، مع أنني أؤيد إقامة علاقات اقتصادية مع الدول، ولكن الموضوع كبير.

- ليس هذا حالنا وحدنا يا صديقتي، أغلب الدول حولنا، وجوارنا تحاول أن تقوم على قدميها.

- حسنًا، عمر يجب أن يغادر، فأنا لا أستطيع أن أبقى في الخارج كثيرًا، وسوف تقلق سُميَّة شقيقتي عليَّ.
- كيف حالها؟ وحال أولادها؟
- هي بخير، زوجها يعمل بالمصرف الآن، بقيت عندها من أجل أن أراك، فأنت تعرف طبيعة أخي، لن يسمح لي بالخروج وحدي.
- نعم، نعم، أقدر ذلك، إلى اللقاء إناث.
- إلى بقاء ولقاء يا نبيل ..
- هههههه .. جميل هذا النبيل الذي أسبغته عليَّ في روايتك.

وبمجرد أن فتحتُ حقيبتني لأخرج قفازيَّ انتبهتُ لضحككتك وهي تتسلل إليها، وتدخل فيها، تحتبئ داخلها مندسة بهاءاتها المتصلة... انظر ماذا تفعل بنا الأشياء الغالية علينا، إنها تشاركنا أفراحنا، وتعلم سرائرنا.

كنتُ أعلم أننا من زمن ثالث، زمنٌ مختلف عن الزمن الذي يعيشه من حولنا، يسبقه بعشرات السنين، لكنه لا يتصل من معرفته من أجل الإنسان، الإنسان الذي خرج ليُغيِّر قدره، بحثًا عن حلم جميل يشبه إيمانه بالله، ويشبه حياة يرنو إليها، أبسط حقوقه فيها أن يُعبّر عمَّا بداخل قلبه، دون أن تصادره البنادق في أثناء نومه ..

تركني عمر وذهب، غادر وهو يتحسّر، يتوجس خيفة من إبعاد آخر عن ليبيا، كان يعرف أنَّ حاله ليس استثناء هذه المرة، فهناك صديقه السوري هيثم نحّاس أبلغه أنَّ الأوضاع تسوء بسوريا، وأن ثمة

غرباناً سرقتُ الحلم السوري، واستولت على معالم هويته، وهَدَّمت كل ما له علاقة بتاريخه، وتراث بلاده، ظلَّ عمر يتساءل بعد غياب طويل عن ليبيّا: هل سيكون عليه الرحيل هذه المرة كخيار شخصي منه؟

هأنت نائمٌ، مستغرقٌ في نومك، تشاهد نفسك، نبيل الذي كان يكتب على صفحته بفيّس بوك معاناته، ويحاول العبور فوق جراحه، فتريد أن تراها كما تراك إناث بعقلها، وأفكارها الجميلة.

وكأنها تردد على مسامعك سؤالها: ماذا يعني أن يسرقوا حلمك؟ ويُعاد تدوير أمنيّاتك في مكبِّ الأجندة، لتقع في الفخ، وتظنُّ أنك تُشارك في ترسيخ الحقيقة الخلاقة، فتخرج، ويخرج أطفالك، وجيرانك، وهنالك في ميادين التظاهرات يطلق عليك الرصاص، ينقسم الناس إلى أحباء، وأعداء، تجدد نفسك في مباراة سياسية، فعليك تأييد إمام مسجدك الذي اعتنق بدوره توجهًا معيّنًا، وعليك أن تساند قريبك الذي دخل في حزب الإسلاميين؛ لأن زوجته تكون أخت زوجتك، وعليك أن تحتل عشق ابنك لقناة سياسية، وجلوسه ليل نهار أمامها، فيما أنت تُفضّل قناة أخرى، نتيجة ميلك للجهة التي تسوق لها إعلاميًا.

أنت باختصار... تعيش هذه الحياة، المصابة بالفصام العقلي، والتوجُّهات السياسية، أنت سياسي في بيتك، ولست مواطنًا مدنيًا، يبحث عن شخصيته الضائعة فيك.

يمضي بك الوقت، وتترك كل شيء في حياتك، من أجل أن تتغذى
على مشاهدة التغطيات الإعلامية، وتخرج بعدها؛ لتعبر عن قلقك،
ورفضك لما قالوه لك عن الجانب الآخر،

تسمع ...

ترى

تصدق

تخرج، وترفض

قد يصيبك رصاص طائش

قد تحسر حياتك لا يهم، أليست هذه هي الحرية التي خرجت
تنادي بها؟

كنتَ يومياً تخرج من أجل توصيل أطفالك للمدرسة، ثم تذهب
للدوام، وتعرج على محل الخضار؛ لتغطية مؤونة بيتك، واهتماماتك
الصغيرة، وكان هذا أهم حدث في حياتك، أن تعيش حياتك طبيعياً ..

لم تنتبه إلى أن كل تفاصيل حياتك، صارت مجرد هامش لا يكاد
يذكر أمام حبك للسياسة، وتكريس وقتك، وتسخير أسرتك من أجل
تأييد تيار ما، قد تكون نتيجته فقدانك وخسارتك بيتك، وسريرك،
ووسادتك.

وها نحن أولاء نستغرق في كل شيء، حد الانغماس، حد الذوبان،
للنخاع ..

ويفعل مثلنا المخرج، والمصور الذي من المفترض أن ينقل لنا الصورة على حقيقتها، لكنك تتذكر حديثك عبر فيس بوك مع هيثم نحّاس السوري

- الصور التي رأيتهافي على القناة، ليست من قلب الحدث، يا عمر.

- تصورت ذلك، فهذه المظاهرة التي تعرضت أنت فيها للاعتداء قديمة، وصورة الطفل المصاب الذي تحمله هي التي برأت موقفك أمامي.

- هل تشك بي يا عمر؟

- لو لم تكن قد أرسلت لي سابقاً، صورتك مع الطفل وهو معافي، لصدقت هذه الصور المفبركة.

- إنه الاستغراق، وتلبس الحالة يا عمر، ويبدو أننا في حالة تلبس كبير، كبير يا صديقي!!

- ماذا ستقول للمصور الذي يكذب؟ والمخرج الذي يفبرك الصور؟ وتخرج وراءه كل هذه الجموع؟

- يقودوننا كقطيع أعمى، لم أعد أريد مشاهدة التلفزيون يا عمر...

- إن لم توقظ هذه الجموع من سُباتها، واستغراقها في المشهد، فسلام على أوطانٍ مشتكاها إلى الله في ثورتنا.

-- لا، لا يا عمر، لا تُسِفِّه أحلام الشعوب الباحثة عن أمنها، لا تقل مشتكاها إلى الله في ثورتنا، بل في تثويرنا ..

هذا هو تشوير الجموع، لقد خدمناهم بكل كفاءة ...

تأمل عمر في كلام صديقه هيثم، وما الحل؟ إنه لا يملك شيئاً أمام حدث كبير كهذا... ظل يقول لنفسه:

أنت تريد أن تثور وفق مبادئ تؤمن بها، وشعبك يؤمن بها، أما أن يُثورك طرف ما، وتُكرس نفسك له، فأنت لست للوطن، بل أنت أداة تخدم من أجل الآخر، وقياساً لكل ما يحصل، نحن شعوب تتحول إلى أدوات، بل إلى أجندة يومية، تعمل من أجل أطراف لها توجهات، تعبت بأوطاننا ودولنا... هل تتصور ذلك؟

تصور ذلك، نعم أنت مستغرق في حالة تشويرك، لدرجة أنك تستمتع بذلك، وتفبرك صور الفيديو التي ترسلها إلى المحطات التي تعجبك، وتصديق ما يقوله لك المخرج الذي غيّر الفيديو، بل يعجبك أنه قلب الموضوع لتوجه آخر، أنت الآن عميل بطريقة ما، مخبر سري بطريقة أخرى ..

تقول لك زوجة صديقك هيثم في رسالتها على فيس بوك:

لم نعد أنا وهيثم ننسجم في حياتنا، لقد تغيرت حياتنا إلى فوضى مرتبة، نحن مكرسون من أجل الخروج، والتظاهر، والاستمرار في العناد لإسقاط النظام، ورغم أنني يا أخي عمر بدأت أؤمن أننا تسرعنا في ردة فعلنا تجاه النظام، لكنني أعلم أنه يجب احترام خيارات الشعوب، وتوجهاتها، وقلت في نفسي الله يسامح الأنظمة، لو كان تفهمت حاجتنا

لبعض الحريات، ومطالبنا بتحسين الحياة، ما كان حصل (هيك) قط،
تصور يا أخي عمر حتى في علاقتنا الجنسية تأثرنا، وصار هيثم
يستخدم مصطلحاته السياسية أثناء وجودنا في غرفة نومنا، (الي صفى
أمرها) على بساط لافتراش الأرض، ومرآة مكسورة، وبعض عبوات
الماء، التي أشربها كلما فرغت من سلوك هيثم، لم يعد زوجي طبيعيًا، كل
شيء ممزوج برائحة الخوف، كل همسة له مرتعشة، كل تعبير له تندس
فيه السياسة، كل كلمة حب يتبعها اسم حزب، كل شغف بي، يلحقه
اتصال هاتفي يطلبونه في مظاهرة، أو تأييد ..

هل رأيتَ إلَامَ انتهى الأمر؟ سرقوا منا كل شيء، وأظنُّ أنني ذات
مرة سمعتُ صوتي يقول لهيثم: ماذا فعلت بنا الحرية؟ وهل كنا سجناء
رأي حقًا؟ أظنُّ أننا بالغنا كثيرًا في مطالبنا، وخرجنا عن طور التفكير
السلمي، والمدني المنظم، لقد مارسنا شطحات شبقية في خروجنا،
وبدأت أتساءل، من سيطوي المئات من المجرمين في السجن، بعيدًا عنا
كشعب متمدن ..

ردَّ هيثم على كلامي قائلاً: "أشتمُّ رائحة الندم في كلامك، وأنا لا
ألوم طائرًا يزقزق بحزن على خراب عُشِّه، وسقوط شجرة وطنه!
تنهَّد عمر في حسرة، ثم دلف إلى المطبخ لإعداد كوب شاي،
يساعده على التفكير بصفاء فكر، جلس للنافذة المطلّة على الشارع
الهادئ ..

أليس هذا ما يحصل في ليبيا تمامًا؟ لا فرق ..

بلى، إنَّ هذا ما يحصل في ليبيا تمامًا، والآن في بنغازي تحديدًا،
الاغتيالات، والتصفيات، والاعتصاب للمرأة من مدينة وأخرى، فلم
تكن أواخر عام ٢٠١٤ جيدة بالقدر الذي يمكنك فيه أن تتعايش
طبيعياً في بنغازي.... ولا حتى في مدن ليبية أخرى ..

حاول بعدها أن ينام، ويجذب الغطاء إلى رأسه، ربما يحلم أن يعود
لبيته الذي تركه منذ مدة ٩ .

عليه أن يستيقظ صباحًا، ليقرأ الفصل الروائي الذي تسرّبت فيه
إناث كالسراب الجميل، واندست بين أغطية السرير، كالفراشة التي
أجازت لنفسها الاقتراب من شدة الضوء، لكنه هذه المرة يدرك أنه أمام
أنثى مختلفة، أنثى من زمن ليس على مقاسها، ومن عالم تسمو عليه
بفكرها وعقلها، أنثى لا يتصور أنها سوف تحترق من مجرد الاقتراب
منه، فثمة فراشات يتمنى الضوء أن يُخلّقن في فضاء نوره، ليرتقي إلى
معارج القمر في نوره ..

أغمض عينيه

كانت أصوات القصف تأتي من بعيد، تنذر بصباح مليء بسحب
الدخان في بنغازي، وكانت الرسائل النصية التي ترسلها الأطراف
السوداء، إلى أحياء المدينة على هيئة قذائف عشوائية، تقول الكثير، فيما
ظلَّ الليل يستمع، ويرهف أذنيه، لحديث بيوت بنغازي، وهي تزجر من
الغضب، وشدة الاحتقان ..

السُّقُوطُ فِي حَقْبَةِ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ

أنا امرأة جميلة، في العصر المنسي، المُنْدَس بين أروقة المكر والخديعة، أخرجُ من علبي الخصة بالتلوين، أمارسُ الرسم الفاره فوق صدر الورق الأبيض، أشتقُّ من البياض رحلاتي الملونة، عبر مكوك فضائي، أعددته لرحلات عمري المزورة، أبدؤها كلما أحاطتني هالة الشغف، والجنون، والهوس، أتناول قهوتي المُرَّة، مُتَخِيلَةً نفسي أنا أحماتوفاً^(١) المختبئة من الجنود، الذين يطاردونها؛ بسبب كلماتها وكتاباتهما، ثم حين ينشر الليل رداءه فوق بيتي، ويدعوني لأن ألتحف بظلامه، وأتدثر به، أسقط مغشياً عليّ... لا يصلني بالواقع شيء، سوى اسم ينادونني به؛ لألتفتَ فقط، وأتبيّن ملامح مُكَلَّمِي.

هكذا كنت أرى نفسي حين أتسلل للقاءات، بحثها في لغة جرحها عن الوطن، ومرادها الأمن، وغايتها الحياة الكريمة.

(١) اسم مستعار لآنا أندرييفنا غورنكو، شاعرة روسية، أحد أهم أعمدة حركة الأوجية الشعرية.

توالت لقاءاتي بعمر، كنا نلتقي في مدارس للنازحين، وفي الملتقيات التي أخطر أحيانا بالذهاب إليها رغم سوء الوضع الأمني، وكنت أستمع إليه، وأتوغل أكثر فيه، أستشعر معاناته الإنسانية العميقة، وقدره أنه ليبي عانى ما عانى، من حقبة الاستعمار، ابتداء بحرب الطليان، ثم الحرب العالمية الثانية.

في تلك الحقبة تقلص تعداد سكان ليبيا، خاصة مناطق الشرق الليبي، فأصبحت الموارد البشرية بهذا الجزء تبدو شحيحة، وظلّ الإقليم قيد النشأة دائماً، وقيد الإعمار باستمرار، وقيد النمو السكاني البطيء، بسبب توالي الحروب، واستنزافها للمجاهدين، وعدم إيلاء السلطات أي اهتمام إعماري، أو سياحي، أو استثماري، رغم وجود الآثار، والطبيعة السياحية، وعدد من الموانئ البحرية، والمطارات.

- فقدنا أرواحاً كثيرة في حقبة الطليان، ولكن في حقبة سبتمبر لا نعلم العدد تماماً.

- يا إناث يا عزيزتي، اعلمي أننا في سبتمبر فقدنا ما يزيد عن عشرة آلاف جندي ...

- هذه الحرب لم نخترها نحن، بل اختارها نظامنا ...

- ولهذا ظلت مخفية.... طي النسيان لم يسمحوا لنا بالحديث عنها .

- وهل اخترنا حربنا في الربيع؟

- كانت واقعاً لا بد منه، فقدنا رجالاً بأعداد كبيرة، من أجل أمنٍ
ينعم به الوطن كله ..

فقدنا أسوة بدول الربيع يا صديقتي

سرحتُ، وأنا أفكرُ في مآلات حالنا كوننا شعوباً تُوحّدها اللغة،
والشعور، والإحساس، والارتباط... كيف لمواطنة وإنسانة أن تكون
سعيدة، في وطن تنائر حلمه عبر السنين؟ وتراتبت عليه حقب
الاستعمار، والجهل، والتأخر، والتعذيب؟ ثم كيف لعربية كانت تعيش
برتبة اعتزاز، أن تعيد ترتيب روحها المشوشة، وقلبها المفكك، وعالمها
الفوضوي، دون أن يمسه، أو يطاها شعور بأنها مواطنة لا تستحق
الحياة، أو أنها من شعوب ليس قدرها أن تبني، وتُعمّر، بقدر ما كان
قدرها أن تعاني ويلات الحرب والتهجير والنزوح!

أنا أعيش إنساناً مظلوماً ومحروماً من حقوقه، وحقب هذا الزمن
المهترئ تُبدّد إنساننا أشلاء في مواقيت حروبه، بعريها الأخلاقي،
وتجردها من سمة الإنسانية، وتعاليتها على قيم السموم، أقطن وأسكن
هنا في الدرجة الدنيا من الدنيا، وفي أقل درجات المواطنة ..

يجب أن أستمّر وأتعايش مع مشاعري كونية عربية، تشعر
بالاضطهاد لها، اضطهاد نابع من أطماع سياسية بمكانها، وأرضها،
وحضارتها، وآثارها، وفي زمن عولمة كل شيء لم يصل المستعمر لثقافة
التبادل الاقتصادي، وثقافة التبادل العقلي للخبرات، وثقافة النظر
للآخرين بروح الاستحقاق للحياة، لم يصل لمرحلة الاعتراف، أننا

نملك حقوق الحياة أسوة به، وأنه يجب النظر إلينا بعين الاعتبار، لأننا جميعنا بشر نؤدي رسالتنا فوق الأرض، وتحت السماء، فكيف مجردونا من حقوقنا؟

وكيف ينظرون إلينا كأسماء صغيرة، تستحق أسنان القرش، القرش الذي يصنعونه لنا في كل مرة، ليكون بُعْبَعًا^(١) يهدد أمننا السلمي، وحياتنا، وأطفالنا، ببيع يأكلنا بلا هوادة، يذبحنا كالخراف، ويسرق العقول الساذجة منا، ويضر بنا بالضعفاء فينا، يتاجر بدمنا، ويكتبنا فوق الورق أُلْمًا وراء أُلْم...

لا يأتي الاستعمار والاحتلال، ليرصف لنا طريقًا، أو يبنى لنا جسرًا، أو ليقول لنا زيدوا حرية، وأبدعوا، وتعلموا، إنه يأتي لك ليقول لنا: أنا لم أضربكم على أياديكم لتثوروا وتطالبوا بالحرية، ولن أسمح لكم بالحياة، ما لم أتناقص معكم، بيوتكم، وأرضكم، وأحلامكم، وأوطانكم.

إن مجرد التفكير في ذلك يُصيّبي بالقشعريرة في جلدي.. يجعلني أُعيدُ حساباتي تجاه هذا التفكير المناهض لجوهر الحياة..

كفراشةٍ تحترقُ في هذا الليل، ذلك الموال الطويل الغارق في سراديب العتمة، ومتاهات الأسئلة، ودهاليز التعقيد الواقعي، لحياتنا

(١) صورة خيالية لحيوان مرعب، وطيف مخيف يخوف الأطفال لتحسين سلوكهم.

كعربٍ... أفقدُ رغبتني في التعامل مع أني سأضع رأسي كجثة هامدة،
وأستسلم ببساطة لسلطان السبات، بينما قلبي يغلي، وروحي تبحث عن
ملاذ لها، وعيش يليق بها.

أفصلُ العالم على مقاس تنورتي القصيرة، التي أرتديها حين يبلغ بي
البؤس مبلغه، أهيئُ ساعات الأذن، وأبحث عن لحن موسيقي، يتسع
للجعة التي سترقص الفلامنجو، أو السلو، وتستدير - فيها دموعها
تلمع كنجوم تتلأأ من سماء عينيها.
أشقُ العالم إلى نصفين ...

نصف أطرده إليه عشاق الحروب، ومحبي الظلام، صنّاع النكد،
وفرسان الخشب، ولغة الظلام، ونصف أعيش فيه، ومعني كل من يحمل
الإنسانية في قلبه، أعيشُ فيه كمواطنة من درجة عادية، ديانتني
الياسمين، والزهور، آياتي المحبة، والسلام، سُوري هي: محمد، ومريم،
وطه، أدون الألم، فأحيله لمعزوفة شوبانية^(١) طويلة وحاملة، أكتبه فوق
ردهات الورق الأبيض الناعم، تاركة للخيال فرص استباحة الأسطر،
الملاى بالحكايات المعطرة بالحنين، أقتنصُ الشوق من جبين الانتظار،
الانتظار الذي يعني أن تحمل عبئاً على كاهلك، وتتعايش معه من أجل
لقاء يليق بنهار أبيض ..

(١) نسبةً إلى فريدريك فرانسوا شوبان، مؤلف ومُلحن موسيقي في الفترة
الرومانسية، بولندي الأصل.

وهأنت أيها الفارس (نبيل)، تترنح قربي؛ لتشاركني رقصة الألم،
التي صممها لنا صانعو الألعاب الحمراء، والمعدن المليء بالصراخ،
دعني أقدمك لهذا الجمهور الجالس قرب مسرح رقصتي، ثم سأهبك
من قلبي نجمة أخرى.. نجمةٌ تليق بحلم وسيم، وجميل.... أيُّها القادم
من زمن الحفريات القديمة، والحروب.

كانت هنالك سيدة تتلوى من آلام المخاض ذات فجر، تقاوم هذا
الاحتلال الشائك، باستمرارها في التنامي، تحيل نفسها لشجرة تُثمر،
تتميل مع العاصفة العنيفة، لكن جذرها بقي ثابتاً وقوياً، وإذا بالصراخ
يعلو وينذر الرحالة، وأهل النجع، بأن ثمة جماعات طليانية قادمة
لسلب السكان ونهبهم ..

وقتها وضعت السيدة طفلها، الذكر الذي علا صراخه المكان،
فبدأ أهله يجمعون أمتعتهم بسرعة، قبل وصول الفيلق الطلياني المحتل،
ساد الهرج والمرج، وبدأ سهيل الأحصنة في الخارج يُثير القلق، دخل
فيلق الطليان النجع كالهملج، سلبوا، ونهبوا، وخطفوا، ركضت النساء
هنا وهناك، قاوم الرجال بضراوة، حملته أمه وهي في أولى ساعات
النَّفاس، ركضت طويلاً، تعثرت، سقطت على الأرض، مغشياً عليها،
فيما علت المكان رائحة الفقد، وتناثر الدم هنا وهناك، واجتاحت
الصيحات فضاءات الجبل في قساوة وفرع، معلنة عن بشاعة أفعال
الطليان الرعاع ..

بعد أيام قلائل، كانت طيبة العرب تعين الطفل، وتشير إلى أمه وأهله، فجرى البحث عنهما، حتى وصلت الأخبار إليهم، وقطعوا مسافة عشرين يوماً، من مكانهم قرب وادي سَمّالوس^(١)، إلى الخروبة، حمّله أبواه في فرح، ورائحة الفَقْد تفوح من نظرات عينيها، فالعمة والعم قُتلا، وفُقدت الصغيرة هنية، مع بعض الأطفال الآخرين في النجع، ذكرت عمتي فاطمة بنت خير الله المطاوع، أنها تعثرت بأمه على الأرض، وظنتها ميتة، فتلقفته وتقدمت به سيراً على القدمين، ثم توقفت عند أول نجع ساقتها قدماها إليه.

كان نجع العبيدات^(٢) قد حطَّ بالقرب من الخروبة، قادماً بأهله و أمتعته من مراوة، بعد سماعهم أنباء عن مطاردة الطليان لعدد من مقاتليه، هنالك وقع الطفل في قلوبهم، وأسماه كبير القبيلة، الشيخ عمران حدوث العبيدي، باسم نبيل، تيمناً بضابط ليبي من السنوسيين، كان ينزل النجع خلصة، ويتلقى الدعم المادي لحركة الجهاد ..

وفي بيئة جبلية قوية يشبُّ نبيل القاسم حسن فتى، يقضي يومه بين المدرسة الريفية صباحاً، والزاوية الصوفية مساءً، يحفظ القرآن، ويستقبل ضربات معلمه بعصا الخيزران إذا غابَهُ النعاس، ثم يخرج منها راكضاً لا يلوي على شيء، سوى أن يصل بسرعة للبيت البسيط

(١) سَمّالوس: وادٍ يقع شرق ليبيا، مَراوة، والخروبة، مناطق تبعد حوالي ثلاثين كيلومتراً أو أكثر، من وادي سَمّالوس.

(٢) العبيدات: قبيلة ليبية كبيرة لها امتداد بشرق ليبيا.

الذي يقيم فيه، يشرب كوبه المُخصَّص من حليب الماعز، ويسرج فرسه إلى حيث يتجمع أشاوس المقاومة والمجاهدين، هكذا كبر، وروحه الفتية تنبت الجرأة، وتزأر الشجاعة، تدندن خواطره بأغنيات العلم^(١)، وأشعار أحمد رفيق المهدي التي واكبت الاحتلال الفاشي، وتناقلتها الألسن، ومن جملة ما يردد للمهدي:

كنا نقاسي تحت مر الصبر

أنواع العذاب...

النفى إذ لم يبق في سجن

ممرًا للذباب...

والسيف في الهامات يفري

والمشانق في الرقاب

يعرف نبيل أنه مكسور عشرات المرات أكثر من المهدي، يعلم أنه لن يتجاوز شعوره بأنه مُحْتَلٌّ، وأنَّ الحياة التي يعيشها في هذا الجزء من العالم، الذي اسمه ليبيا حياة تعب مرهقة، زاد الفاشيون الطليان طينها بلة، فشدوا أهلها، وقتلوا الكثيرين منهم، هذا الشعور نابع من تراكمات تاريخية تكمن في ثرى روحه، تكاد تلمس ران قلبه، وتمسك

(١) أغنيات العَلَم: بفتح العين واللام وتسكين الميم في اللهجة الليبية، هي أغاني من الشعر الشعبي، تجري مجرى قصيدة البيت الشعبي الواحد.

بالشغاف حين تلازمه اللوعة والحسرة، هو المدوّن في اللوح المحفوظ، المحمول فوق تواتر الحكايات، في الكتب، والمجلات، والدوريات، فوق جدران الكهوف والجبال، لا ينسى، ولا يذهب طي الغياب، بل إنه يتجدد، ويتأزم داخله كلما اشتعل فتيل حرب، يحاول إعادة شعبه للوراء.

الانكسار يجعله يسرح بعيداً، يمضي لا يلوي على شيء وعمره عشر سنوات، وقتها استقل السنوسيون بإقليم برقة، وبدأ الناس يُنزلون أمتعتهم من فوق ظهور دوابهم للاستقرار، كان يترك الطريق لفرسه سمالوس، تلوك بحوافرها أوجاع المسافة، فلا يجد نفسه إلا وقد وصل نقاطاً بعيدة يستكشفها ويتعرف أهلها، ثم يرجع قرابة العشاء ليغتسل، ويتشرد في أحاديث أبويه القديمة، التي عادة ما تبدأ بين الأقارب والجيران، حين يجتمعون للتبادل التاريخي والتوطيد، يشاهد وجوهاً أكلها الحزن في هذا المحفل، يتابع نظره إليها، فوراء كل وجه قصة وحكاية، وتلك البندقية المعلقة على صدر الحائط، ما زال يمكنها أن تتكلم، وتبدأ في خطابات التخريف والهديان، فتزهرق أرواحاً، ما كانت تعلم أنها ستموت من رصاصة مخنطة، على حائط يخيم عليه سكون الفعل.

حاولت ليبيّا أن تستعيد أنفاسها بعد الاستقلال، وتعيد ترتيب حياتها، وتتشكل من جديد في رحلة شبق إنساني تعويضاً عن الأرواح المفقودة، والمشنوقة - التي وصلت لعشرات الألوف في معتقل العقيلة الطلياني، ومعتقل الأبيار، معتقل بنينا..

أذكر أنّ هذا توافق مع مجازر الهولوكست الألمانية ضد اليهود، فقد كانت إيطاليا داعمة لألمانيا، ولم تتوقف عن مطاردة اليهود في ليبيا؛ لتقدمهم إلى ألمانيا كحليف وفيّ لها... كما لم يردعها ذلك عن الاستمرار في وحشية أفعالها ضد السكان الليبيين.

وظلّ للفاشية الإيطالية هولوكستها الخاص في ليبيا، ل يتم في صمت خائن بعيداً عن الأنظار، خاصة بشرق ليبيا، وينفذ في بشاعة مريعة، وتحت مرأى الليبيين، عشرات من الجثث تتكدس تباعاً، مئات النساء يتم اغتصابهن، واستعمالهن لغايات الطبخ، وأعمال التسخير، ثم يذهبن إلى مشانق يتدلين منها، في مغادرة لمشهد حياة ذات ملامح باهتة ..

ما زالت ذاكرته تئنّ حين يقرأ - كشابّ فضولي - عشرات الإحصاءات، والأسماء المنطوق حكمها غيباً، والمنفية كرها، والمعلقة فوق مقاصل الشنق الجماعي للرجال، بعضهم يهرب، ويتسلل حين يعرف أن ثمة أعمال شنق قريبة ستجري، في تلك المعسكرات المتناثرة، يهربون بصعوبة، وتبقى الشروخ على أجسادهم ندوباً، تترجم مُلخّصاً كاملاً عن فظاعة التعذيب، وبشاعته بلا موارد، ولمّا تأتي أحاديث السّم من حين إلى آخر، مع سَمّ الليل، يستمع نبيل إليها في صمت مغرق، ويربط بين سردها، وبين الجزء المتبقي في ذاكرته.

سألته ذات حديث:

- كيف استطعت اختزال كل هذه الأحداث في روايتك التاريخية رغم أنك كنت طفلاً إبان الاحتلال الإيطالي؟

ابتسم، وهو يتنهد ويقول: هل نسيت المروي من قصص آبائنا،
وأمهاتنا؟ تعلمين أن السرد المحكي يربط الذاكرة المبتورة بأطراف
التاريخ المقطوع عنها، عبر سطوة الأزمنة التي تأتي فيما بعد.

ليس ثمة مرحلة، مرَّ بها السيد نبيل أكثر جمالاً من مرحلة
السنوسية، التي ازدهرت بها ليبيا بشكل عام، وكانت تنعم بالهدوء
النسبي، والاستقرار، اتسمت بتبادل التجارة بين المدن، وتوفر العلاج
بالمشافي الليبية الكبيرة، واستبدال البضائع من خلال الميناء التجاري
قُرب قصر المنار، ومُتابعة التغيرات التي بدأت تتشكّل فيها ملامح
الدولة الليبية الهادئة ..

كانت فيها بنغازي غارقةً في النقاش، يأخذها تيار الصادق النيهوم،
وهو يُثير الجدل عن تعريف الجهل، ويدعو شعبه للتحري، والقراءة،
يباشر بنقدهم، فيشعل نهار المدينة بالحركة، ويبعث النشاط في مكاتب
المدينة وشوارعها، يترك لأُسئلة الليل مهمة الجدل لليوم التالي، بنغازي
التي عشقها الصادق، وتربعت في خياله، كملكةٍ ليله الطويل، هي في
ذات الليل تأخذ نبيل بعيداً إلى سرايل المتاهة، ونحو عصور مضت،
برائحة الاستعمار والجهل والتخلف.

أذكرُ ذات لقاء أنني قلت له: هل الصدمة التاريخية التي يتعرض
لها شعب ما، تغير من ملامحه نهائياً؟

فكان أن قال لي: الصدمة التاريخية، قد تعني القطيعة مع الزمان،
والمكان تمامًا ..

هأنا وهو، سواء نمارس اقترافنا الجميل للغة، نتلاعب بمعاني
الكلمات؛ لنعيد تسمية الأشياء بما يليق بها، نتفرج سواء على التغييرات
التي نجريها في تاريخنا، لتظهر على حقيقتها الفعلية، نحن اللذان
استغرقنا وقتًا طويلاً في محادثات أطول، نحاول أن ننفض الغبار على
تسميات كاذبة، وتعريفات وهمية، لمراحل وحقب عاشها شعبنا، نريد
للنور أن يصل إليها، وللعالم أن يقرأها، وللوجود أن يعلم أن كل
الاحتمالات، يمكنها أن تصنع ثقوبها، في جدار الممكن.

عمر

سأرتكبُ فعل الكتابة معك، وجريمة الكتابة إليك؛ لأنني حين
سأفعلُ ذلك، سوف أستخدمُ كل كلماتي الجميلة، وكل الجمل التي لم
تُفَض بكارتها بعد، سأكتب بلغة من حرير تهَيَّئ شرائق الكلام، فوق
أشجار الجمال، فاليوم لا شيء يستحق الكتابة سواك، بعد قراءة هذه
السطور بخطك، سأترجمها لمخاض أنثى جميلة، تتخبط في ولادتها،
لكنني أدعو الله أن يبارك لها ولادة دولتها.

هذه المدن لم تختَر تاريخها، ولم يتسن لها الوقت لتكتبه بحروف من
ذهب، بصعوبةِ التقطنا أنفاسنا من احتلال الطليان، وشرعنا في إنشاء
مجتمع ليبيا الدولة بواسطة بنغازي – التي تغيرت ملامحها في الحرب
العالمية الثانية، وبدأت تتجرد من ثوبها القديم، المشرع لهتافات الريح،

فاهتمَّ بها السنوسيون، وكان وجودهم فيها دائماً باعثاً لها، وسبباً كي
تقوم وتنهض ..

وأذكرُ حوارنا الجميل عن بنغازي ..

بنغازي المطرزة بالنقوش، المدينة التي تعوم فوق سبخات الملح،
وتغتسل بياضها كل صباح، المدينة التي تتنفس البحر من رئتيها،
ويتصاعد دخان الحروب من شفتيها، المدينة التي تختصر الدولة في
ابتسامتها، وتوجز السياسة بكلمة منها ...

كان كعب حذائي عالياً، فمددتُ طولي، وأنا أناوشك قائلة:

- كل خطوة تبدأ من بنغازي ... حتى أنت حين عرفتني، بدأت
من بنغازي!

وابتسمت من كلامي، فأنا أعرف أنه يشدُّك حديثُ استفزازي
كهذا، يوقظ الحواس النائمة فيك، ويستفزُّ إحساسك نحو المخيلة،
المخيلة الغارقة في شبق السُّبات تستدعي صورها؛ لتخلخل هذا الزمن
البائد، لقد شعرت رغم الفواصل الزمنية بيننا - ورغم المسافات الكهلة
التي تقف بيننا - أننا ثنائي يليق به أن يستمر، إذا كان يستطيع أن يمارس
الجنون، ولا يفقد عقله، وصلته بالواقع ..

- أعترف أنه لم تشدني أنثى في طريقها ..

(كنتُ أفاعلُ بأكثر من ذلك، مثلاً أن يشدك شكلي! لون عيني! مظهري! شيء أكثر إلهاماً من ذلك! أما طريقي، فأنا نفسي بدأتُ أتصلّ مني، من سمر الفتاة المكبلّة بقيود القبيلة، والمجتمع، بنظرة الذكورية لها، ربما لهذا تختار لي اسم إناث).

صحيح أن ردي على اعترافك فيه من القسوة عليك، لكنه ما يدور بداخلي، قبلت به أم لا، يجب أن نقول الحقائق التي نراها، بشعورها الحقيقي، فأنا لا أحبُّ تحليل الكلام، بالاسترضاء والتقرب، أحبُّ أن أصرح بأقوالي هكذا، كما يفتح الفوشار بكل منطقية....

- إن كان ما نمُرُّ به سواء، تراه مجرد طريقة، فاحفظ بمناسكك عندك؛ لأنني لا أبحث عن مردي.

نظرتُ إليّ بسخرية، وكأنك تتحداني، بأني لست منجذبة إليك.....

"هل هذا تأويلك السيئ للمريد؟ عزيزتي ليس كل مريد عاشقاً لشيخه، فقد تُعشق الطريقة لا الشيخ.

ها قد غلبتني في هذا السّجال اللّغوي بيننا، وكأنك تقول لي لستُ مهتمةً بك إطلاقاً، ولكن يعجبني أسلوبك، وهذا معناه ليس ثمة شعور تختزله نحوي.

- كأنك تعاملني معاملة مدينة..

- هذه أنت التي تفهمين الأشياء بطريقة مختلفة، نعم أراك كمدينة، كوطن... كأمي.. كهذه التربة المعجونة من طين هذه الأرض.

- كل رجل بأمة يفتخر، ويراهها في امرأة يحبها، أو مدينة يعشقها ..
- بنغازي تختلف، كل البدايات منها، وخواتيم النهايات إليها ..
تذكرتُ شيئاً مهماً، فاستدركتُ قائلة:

- سبتمبر بدأ في بنغازي.
- صحيح، كان السنوسيون خارج البلاد، فسيطر انقلاب
سبتمبر بين ليلة وضحاها على بنغازي
- نعم .. وأعلن بيانه الأول فيما بعد من هنا ...

الفتاح من سبتمبر انقلاب بسيط^(١)، استسلمت له الأسرة
السنوسية، قبيل مباشرتها بإعلان مجموعة من المشاريع التنموية المهمة،
وبناء السكك الحديدية، ورغم اهتمام السنوسيين بإنشاء الزوايا
الصوفية لتحفيظ القرآن، لم تخلُ بنغازي تماماً في عهدهم، من البارات،
والخمر، التي خلفتها ثقافة الاستعمار القريبة العهد من السنوسية ..

أعاد سبتمبر تسمية كل شيء من جديد، التواريخ، والشوارع،
التقويم، والميادين، المدارس، والملاعب.

وقتها أنهى نبيل تدريبه في الكلية الملكية، فتخرج برتبة ملازم، ثم
أكمل دراسته الجامعية في قسم الفلسفة، ولمَّا بقي سنواتٍ ولم يحصل على
فرصة عمل، قرَّر أن يفتح مقهى قرب بيت خاله الجارح، وهو أحد

(١) انقلابٌ عسكريٌّ جرى في ١ سبتمبر عام ١٩٦٩ م ليقوّض حكم المملكة
الليبية، ويُعلن نشوء الجمهورية العربية الليبية.

الكراجات الملحقة بالبيت، استأذن منه فلم يعترض، وذكر له خاله أنه يمكنه أن يتزوج، ويفتح بيتاً من إيراد الدخل، وفعل نبيل ذلك، فتزوج بالسيدة سُدينة بن علي، وانتقل إلى بيت قريب من سوق الحوت، يطل على شارع فرعي صغير، ويقود إلى دهايز سوق الجريد ..

وكان يستغل ذلك الموقع الفريد، ففي الصباح الباكر يخرج سيراً على قدميه، ليتوه بين دهايز سوق الجريد، وحين يصل للجهة المعتمدة - غير المكشوفة للهواء - التي يُسميها السكان سوق الظلام، يحلو له أن يلتقي برفقاء خاله، وأصدقاء أبناء أحواله الذين نشأ بينهم بعد الاستقلال، يتهامسون عن النظام الجديد، ويعارضون حصار الصحافة الحرة، ثم يعود للمقهى، تكون الساعة وقتها التاسعة صباحاً، يفتح المقهى ويدير الراديو، ويبدأ في سماع الأخبار، والبيانات التي ترطن على رؤوس الليبيين طوال عهد سبتمبر ..

تبلغ الساعة العاشرة والنصف صباحاً، ويعجُّ مقهى برنيق بالرواد، يتناقشون فيما بينهم، ويتداولون أسئلة النيهوم الشائعة، التي تُثير تفكيرهم، وتشغل بالهم، وقتها أصدر الصادق النيهوم الكثير من كتاباته منها: روايته "من مكة إلى هنا"، و"فرسان بلا معركة"، وكتابه الجدلي "تحية طيبة وبعد"، وكلما تعمّق نبيل في كتابات الصادق، ازداد يقيناً أن شعب ليبيا ما زال يحاول التخلص من براثن الجهل، والتبعية، والرجعية الفكرية، الرجعية التي تقول لك: "إنَّ الزمن لا يسير بعكس عقارب الساعة، الزمن عندما يتعلق بالحضارة فإنه يُنافس سرعة الضوء، وليس عقارب الساعة فحسب".

كان نبيل يرى القذافي سيدًا لحكومة من ورق، استهلكت أكبر قدرٍ من الورق، في البيانات والخطب، والخيال الخصب ..

وفي ذات مساء خميس، وقف وسط المقهى يتأمل زبائن المقهى المتأخرين عن موعد النوم، وقد ثملَ من شُرب الخمر، فرفع يده اليمنى وهو يتهادى، ويترنح قائلاً بصوت جهوري:

والآن بما أنَّ الوقت عملة صدئة، والريح في الخارج تعوي، ها نحن أولاء أيها الشعب، نعود خُطانا للخلف، إلى صرير العتمة، ووقع أحذية الطليان ما زال يرطن فوق رؤوسنا فإنني أعاهدكم أننا لن نتقدم شبرًا واحدًا، ولن نكمل مشروع الدولة المدنية الحديثة، ولن نبني أكثر من هذه الفنادق البسيطة، ولن ننظر أبعد من أنف النظام، وأنف النظام معربد دكتاتوري ..

ثم نظر إلى وجه أحد الزبائن، الذي يقطر مرارة، ويتأمل به بصمت قائلاً له: "وأنت أيها الشعب، تنتقل بصبرك الكبير، من تُرّهات موسوليني الفاشي ومحنة العقلية الفاشية، إلى محنة العقلية الدكتاتورية، وهرطقات الخطب، والبيانات التي تنجز إمبراطورية عائمة، بواسطة حكومات من ورق.

وهوى عند أول كرسي تالفًا، متعبًا، ثم أردف وهو يتجرع جرعة أخرى من الخمر: وقد قابلتُ عجوزًا طليانية، قبل أيام في شارع سوق الحوت، فقالت لي: تعال أيها الفتى يبللو. واقتربتُ منها بشعري المنكوش هذا، وهي تقول بصوت غاضب: أنتم ليش مش تقرا منهج الإنجليز، والفرنسيين؟

فقلت لها: نحن يا سيدتي شعب لا يتحمل أقدام الطغاة فوق تربته،
حتى أن طليانكم احتلنا عقوداً، ولم نتعلم لغته، وكلما أردنا أن نقرأ،
ونتعلم، ونتطور، ابتلانا الله بدكتاتور قادنا إلى الجهل، أو احترف مهنة
الجزارة على أجسادنا، فإما للعصور الحجرية، أو للقبور الترابية ..

وانحنيتُ احتراماً، أمام شهقتها البريئة وقلت لها:

ها نحن نعيش في جهنم الأمية والتخلف، مثلما عشناها مع
صاحبك موسوليني أيام الفاشية، أما صاحبنا هذا فقد أحكم إقفال
الأبواب علينا جيداً.

وتوفقت الطليانية عن السَّير فقالت لي: أنتم شعب تصبر واجد،
أنتم تصبر ليش على موسوليني وصاحبكم؟ أنتم اضرب موسوليني،
اضرب الدكتاتور، يطلع برا!

ونظرتُ إلى عمق عينيها الصادقتين مباشرة، فعرفتُ أنها تقول لي
ذلك، ليست بوصفها مواطنة طليانية، بل بوصفها إنساناً طليانياً.

أنتم أيها المساكين لن تتغيروا، ولن يتغير حالكم، إذا كنتم تنتظرون
أن يأتي كل شيء إليكم على طبق من ذهب، يجب أن ترفضوا من البداية،
وأن تخرجوا قبل أن يتراكم عليكم غبارُ السنين!

خيَّم صمت مهيب على المقهى، وعلق خطابه فوق ملامح الوجوه
المصدومة من الجملة الأخيرة، كان يراها وجوهاً مبهمة التفسير،
غامضة المستقبل، حزينة وبسيطة، أعينها تقول الكثير، لكن الكبت

يمنع التصريح، خاصة بعدما حدّ القذافي من بعض الحريات، وأخضعها للرقابة، وأقفل بعض المؤسسات الملكية التي تدعم الصحافة الحرة في ليبيا، وصادرَ صحيفة الحقيقة التي يكتب فيها النيهوم، فمُنعت من التداول في الشارع البنغازي، وفي ليبيا بشكل عام.

قطع السكون الثقيل نهوض أحد رواد المقهى، وهو يتنحّج دافعاً كرسيه للوراء، وكان صديقه المقرب المنفور المقرحي، الذي درس العلوم السياسية يحلم بالسفر والدراسة بالخارج، ويتقرّب من سلطة النظام القذافي عن طريق العمل الثوري.

قدّم له سيجارة، وأشعلها له وهو يقول له: الوقت تأخّرا يبللو، وتعلم أنّ المقهى فيه جموع تُثير الجدل لأحاديثك هذه، عليك أن تحشى على نفسك من وصول خبرك للنظام ..

نهض نبيل وسيجارته عالقة بين شفّتيه، متجاهلاً الرد، وقال: هيا نقفل المقهى، قبل أن يأتي الصباح.

وغاب جسده مع الليل، كما غاب نجم ليبيا سنواتٍ طويلة.

أشرق صباح الجمعة ثقيلًا، شعر برأسه يدور به في عوالم شديدة التطرف نحو الخراب، والقتل، والنهب، والرهاب الفكري، والخوف، تاه في رحلة الحلم مسافات طويلة، ورأى نفسه يسير حافيًا، ويستحضر أنثروبولوجيا رحلته، يبدو كل شيء موغلاً في تحديث لغة الآلة، فعلى مرّ

السنين والعصور، ظل استحداث آلة الحرب والدمار، هو الحدث الأول للتجارب التي تجريها الدول مع بعضها البعض، فإن لم تجد متسعاً من الوقت، لإجرائها على الصحراء، والطبيعة بشكل خاص، تُمرر التجارب على البشر في الحرب، وسواء أكان هذا أم ذاك، فإن الإنسان يموت يومياً، بعدة أشكال للموت .

تاه بيللو في مسارب الحلم، وهنالك طرح أسئلته على إله السؤال، متعجباً من تراجع قوى الخير، وهو النبيل، وهو الإنسان، ويرى أن ثمة أناساً لا تغادرهم الطيبة، ولا الفعال الحسنة، ويرى فرساناً يذودون عن الخير، ويحرصون على تقدم قيمه ونزاهته، بالاستمرار والتقدم، فأصل الحياة أنها خلقت من أجل الخير، والإعمار، كان سؤاله: لماذا تتزايد قوى الإنسان الخطأ، وتكاثر بكتيريا الشر، وتُعزّز من قواها وجينياتها الوراثية؟

إنَّ الطريق لإجابة قطعية، تفكك برامج منظومة الشرِّ، وتعلي القيم السامية، والنبيلة، ليس من تخصص الساسة، ولا من أولويات الحرب، ليس هذا بالتأكيد واجباً كونياً على غرف إدارة الحروب، إنه عمل النبلاء، وسيظل عملهم، وغايتهم النبيلة؛ لأنهم يعرفون أنَّ الشر مخلوق قديم، قديم هذا الوجود، وما من سبيل لقطع هذه النبتة البرية، إلَّا بالحد من تناميها، فكلما خيمت عتمة الروح الشريرة على الكون، أشعل النبلاء شمعة تجتاح روحها السوداء ..

وطَفَقَ يتقلب على جانبيه، تارة على جانبه الأيمن، وتارة يستشعر يده تمتد لابنه النائم معه في السرير، وما إن تلامس أصابعه جلده البريء، حتى يشعر بالانقباض لرحيل سُدينة، سُدينة ضحية أخرى للتخلف، ضحية نقص الخبرة الطبية بل غيابها، لم يحتمل قلبها الولادة، فذهبت سُدينة وذهب معها خيط الطائفة الذي كان يمسك به، لا يمكنه أن يرسل طائرته للسماء بعد الآن، إلا إذا أزهرت بذرة حلم جديد، تجعله يتعافى، تجعله يتفاءل.

لم يكن نبيل مجرد شخص عادي، درس للفلسفة واكتفى بها فقط، كان إنساناً حقيقياً، إنساناً يملأ فراغات روحه بالمعرفة والتأمل، وعمق النظر لأي شيء حوله، كان يتعاش بكل ما يحيط به، يتعامل برقة قلب مع الماهيات التي حوله، من البشر إلى الأشياء، يمسك فنجان القهوة بلطف؛ لأنه يقدم له قهوته محتوياً إياها في قلبه الدائري، يمتن للطاولة التي يكتب عليها؛ لأنها تشرع قلبها له، وتظل تتحمل أنات قلمه وثقل كتبه، وأوراقه فوق سفوح صدرها، يستشعرها تقول له: أنا أعيش من أجل سعادتك، كان يتدفأ ببطانيته، وهو يشدها لجسده المنهك؛ ليقول لها شكراً؛ لأنك تعوضيني عن دفء سدينة الغائب، في برودة مرقدها المقبور، بمقبرة سيدي عبيد.

وكما هو جثة خامدة الآن بفعل زمنية السبات للنوم، يستغرق في الأحلام، وإثارة التساؤلات، ويحاول أن يولج لنفسه مخرجاً من باب الحيرة، فإن الثورات على الأنظمة تُشبه حصول الصدمة، التي قد تجعله

في قطيعة طويلة مع العالم الخارجي، قطيعة زمنية تحملها إلى سُبات وغياب، وقطيعة مكانية، ليعود للوراء كما كان، إذ ليس ثمة ما يضيفه لتجربته الحالية، سوى النهج الذي يتصوره الآن في عهد الفاتح، وهو البقاء كما هو، معزولاً عن العالم، وحيداً، مُبعداً، مَقصياً، مُنقطعاً عن الوعي العالمي... في حين أنَّ العالم الخارجي يشهد ثورة الاتصالات، والمعلومات، وهو هنا في ليبيا يقتات على ثقافة التلفزيون بمحطته المحلية، والمحطة الأجنبية، التي يسميها البنغازيون برنامجاً ثانياً ..



عزيزتي إناث:

حاولي ملاقاتي في العاشرة صباحاً، قُرب الهلال الأحمر الليبي،
سنتحدث قرب صديق لي، فالمكان أكثر أماناً لك
بانتظارك ..

قرأتُ رسالة عمر على هاتفي الغارق في حالة السكون، إثر انقطاع مستمر للتيار الكهربائي، غابت الأخبار عنا بسببه، وقضينا ليلة صعبة، تصاعدت فيها حدة المواقف بين الجماعات الإرهابية التي تحتل جزءاً من بنغازي، وبين الجيش الليبي الذي بدأ يحاربها بإمكانات محدودة جداً، صوت الرصاص والمدفعية كافيين، للقضاء على الرغبة في الحياة، وليس النوم فقط.

بهذا الوقت هُجرت أحياء شمال بنغازي المُطلّة على بحر الصابري،
والشابي، وجليانة، والسبخات المناوئة لمنطقة الكويفية، وأحياء الليثي

الكبيرة، وأحياء بوعطني، وسيدي فرج، وكان تعداد سكانها جميعاً ما يُقارب مئتي ألف إنسان، تركوا بيوتهم هرباً من التهديد بالتصفية، ومن القصف المتواصل العشوائي والمباشر، ومع اقتراب الجيش الليبي من تحرير مناطقهم، بدأت حرب حامية الوطيس ..

كنا في هرج، ومرج.

كنا في فوضى خلّاقة، ذكرتني بتسريحة شعر كوندليزا رايس تماماً ..

كنا في شتات كبير، ومخاض عسير، تغير مفهوم الافتاء، وتغيّر تفكير إمام المسجد، المستغرق في الانغماس، والعمل لصالح أحزابه التي انتخبها، ولم يكن الحال بعيداً عن صديقنا هيثم النحاس، فهو ذاته تقريباً، وهو ذاته في العراق التي مرت بالتجربة قبلنا، وذات الأمرين، جراء تطاول داعش وتمدها في بعض مدن العراق فأصبح يليق بنا، أن نكون الشعب العربي الواقع بين الحاءين، حاء الحرية، وحاء الحرب.

أصبح من الممكن أن نجد شخصاً يحمل سلاحاً، ويقود حزباً في ذات الوقت، يعمل مُحللاً سياسياً، وناشطاً حقوقياً، ثم نكتشف مصادفة أنه رئيس مجلة، أو صاحب سوبر ماركت، أو قائد غرفة عمليات الثائرين .. فصاميات غفل عنها المحللون والنشطاء، اتخذت شكل التشطي في الآراء، والتوجهات على مستوى الدول.

كان الاستغراق خفيفاً في سائر ربيعنا العربي، تركنا مواقعنا الأصلية في بيوتنا، فدخلتها الغربان وصادرها الإرهاب، وخطف منا أولادنا

وبناتنا بموجب منشورات تتلى على مسامعنا ثم سيقَت نساؤنا إلى أسواق النخاسة، ووُضِعَت لهن تسعيرة تناسب أجسادهنَّ، يزوجونهن دون أن يهتمهم تحديد الزوج، وبموجب قانون المغول والتتار، الجسد أهم من قيمه العقلية والروحية، والقيمة هي تسعيرة تغدو نقودًا، والنقود تشتري كل شيء، كل شيء.. حتى أمراء الحروب!

صباح اليوم، أتهياً لأن ألقاك يا عمر، يا مَنْ تهنيي الرغبة في الاستمرار والصبر، لا أعرف كيف أخبرك أنني أرتوي من حضورك، ويزهر وجهي ياسمينات لقاء، يتعاضم شعوري بأنني شجرة تستمرُّ بوجودك معها، مهما تفعل بها الريح، وتهزها العواصف، فهي في حماك، في حمى عقلك، وحمى انفتاحك، أيها الجميل الروح، لا أريدُ حمى رجعتك وجهلك؛ بحجة الخوف عليّ، لأنك عندها لن تجدني قربك، كما فعلتُ مع زوجي السابق الحسين، سأتحلى عنك ببساطة إذا شعرت فقط، أنك تحولني لشيء يتبعك، ويُخصص بلام الملكية، الملكية التي تعني أن تفعل بي ما تشاء، دون إسباغ القيمة على ذاتي، وشخصي، هذا لا أقبله؛ لأنني أحد أقطاب الحياة على هذا الكوكب، القطب الموجب بلا منازع، القطب الذي في يده أن يُوقف نمو جنسك، وفي يده أن يحد من تعاضم أعدادنا البشرية.

أنت لا تعرف أنني تركتُ بيتنا، وأنه لم يعد بالإمكان أن أخرج كثيراً، فالوضع الأمني حساس ولا يحتمل المزيد من الحجج الواهية

لأخي، فهو لم يكتشف بعد أنني أسرق نفسي إليك، وأتعلل بالذهاب
لشقيقتي؛ لأقابلك.

أفكك نفسي من لغة حضورك، حين تهب الكلام معنى آخر،
وتترك الزمن عطراً، يختمر برائحة الحنين إليك، أشعر حينها أنني امرأة،
شبيهة بالعصفور الذي يرقص على بندول الساعة، كلما أطرق اسمك
بالمجيء ..

أعلم أنني إنسانة معطوبة، عاطلة عن الرغبة في الثروة مع الناس،
فإذا امتلأت نفسي بالألم، وتجرعت منه مقادير مضاعفة، أخذني
الاغتراب في بلادنا، بعيداً عنهم، فقلبي صغير على أحزانهم الآخذة في
التمدد والاتساع، ودموعي تترك للبكاء مجالاً، وتحيله لمجاز تعبيري،
وتعبير مزاجي عني .
آه ..

إنَّ رحلة الألم طويلة في بلادنا، وثمة شعوب جارة وصديقة
تشاركنا الألم، ونشاركها ذات المعاناة، انظر لهذه الحشود الكبيرة التي
غادرت بيوتها وأوطانها كأسراب النمل، وسكنت بالمدارس والفصول،
سكنت في المخيمات والعراء، فتحوّلت حياتها في غمضة عين، إلى هامش
في غرفةٍ مدرسية، يشرح تفاصيلنا الكبيرة في مختصر مفيد.

ألا تلاحظ أننا لم نعد نتحدث عن الوحدة العربية؟ وعن الضرورة
الاحتمية؟

الوحدة هي المشاعر العربية الآن، والضرورة الحتمية هي الإنسان العربي، الذي يُذبح بطرق غريبة، ويستبدلونه بالخراف.

فكيف أبوحُ لك بالذي يختزل في قلبي كل هذا العذاب؟ وكيف تتوقع أن أكون امرأة سعيدة بك، وكلانا يأتي إلى الآخر، وهو غارق إلى قاع المأساة، يحاول أن ينفذ عن جسد السنين، الأزمنة العالقة به، وتأبى الأزمنة أن تصفو لنا.

أنا وأنت جناحان مكسوران، لا يملكان أن يحملا جسد هذا الوطن؛ حتى يطير ويخلق عاليًا، لكن هذه الكتل البشرية المليئة بالإحساس والإنسانية في يدها أن تعيد تعميره، وتزرع بذور المحبة هنا وهناك، ريثما يرانا العالم، ويشعر أنه لزامًا عليه أن يصحح مسار تفكيره، في النظر إلينا كعالم ثالثٍ مُتخَلِّف، فاقد حقه في الحياة، عالم يبددون فيه أطماعهم، ويفرغون به شحناتهم السياسية، وحروبهم، وطاقاتهم العاطفية، عالم جعلوه من الأسف عاطلاً على العمل، ومن المؤسف الآن عاطلاً عن الأمل!

حين أوقفت السائق، احتاج الأمر وقتًا طويلاً، كي يلتف على أكثر من شارع؛ ليصل إلى الطريق العام، كان يناهز الخمسينيات من عمره، ولم تكن سيارته (تاكسي)، فالحاجة وضعف الموارد المالية، بالبلاد، دفعت الناس لتحويل سياراتهم، إلى سيارات أجرة خاصة لا تتبع الدولة.

نظري عبر المرأة قائلاً:

وين تبي يا أختي؟

- الهلال الأحمر الليبي ...

- خير إن شاء الله؟ هل هناك ميت، أو مصاب، أو انتشار تحت

القصف؟

- لا... لديّ عمل معهم.

- عمل؟ (وكان الأمر غريب عنه) باهي، ردي بالك علي

روحك، وليس مش معاك حد يونسك؟

- قاعد ايراجي فيا في الهلال الأحمر.

- أيه فهمت باهي أنتي في من تدعمي، بعد ما خربت علي

روسنا؟

وهنا توقف لساني عن الرد، خوفاً من التصريح أنني أؤيد القوى
الليبية الشريفة التي تريد ليبيا الوطن، ولا تقبل أن تساوم عليها، فأكلني
الصمت من التخوف، وخشية أن يكون الرجل يعمل ضد قيام الدولة،
بقيت أحرق إلى الطريق العام الذي نسلكه، وانتبه السائق لصمتي،
فقررت أن أبادر بتغيير الموضوع، فقلت له:

- مش كل الطرق سالكة، طريق الليثي توا مقفل تماماً ...

- كان الله في عوننا، هناك مَنْ في أول المخاض الآن ...

- أي ولادة صعبة في هذا التوقيت (كنتُ أظنُّ أنه ربما يتحدث

عن ولادة زوجته لأن المشفى بطريق الليثي).

- كثر الأطباء والقابلات، يا أختاه

- صح، مرات هذا يؤثر على الأم، وجنينها.
- الجنين ولد مشوهاً، مسخاً، يا أُوخيتي.

(آه فهمت، إنه يتحدث عن الربيع العربي، وعن ثورة ليبيا)

- لازم نقاوموا، عشان ليبيا تكون دولة تستحق الحياة
- يا أُوخيتي، ليبيا شابة فتحت بابها للغرباء، فتصوري ماذا سيفعلون بفتاة شابة؟

تركني السائق عالقة في تفسيره لبلاطنا، ووصفه إياها بالشابة والفتاة التي تتعرض لاغتصاب!

وصلنا للهِلال الأحمر، وقد لاح لي عمر قرب البوابة الكبيرة وهو يُدخن سيجاراً، بدا لي عمر أصغر من عمره، فهو رجل قد اجتاز السبعين من عمره، لكنه ورغم سنوات التعب والشقاء والحرب، استطاع أن يحافظ على لياقته الصحية، وقوامه الرياضي؛ حتى يبدو لمن يراه أنه في الخمسين من عمره ..

انتبه لي عمر، فوقف من مكانه، وهو مُقبل للسلام، سلّم عليّ قائلاً: اشتقتُ إليك، طال الغياب!

- وأنا كذلك، تعلم أنّ البلاد تترنّح مثل سَكَّير فقدّ وعيه.
- أعلمُ، أعلمُ يا إناث، تعالي لداخل البوابة، لئلا نكون مكشوفين على الطريق ..

دخلنا لداخل البوابة الكبيرة، واستقبلنا رجل طويل القامة، يرتدي ملابس مدنية، ويحمل جهاز إرسال، جزمتم أنه يعمل مع الجيش الليبي، أدخلنا لساحة صغيرة، تكفي لأن تكون ملعب كرة قدم، كالذي ينتشر في ساحات بنغازي، ولا أعرف إلام آله ..

جلسنا على رصيف طويل، قرب سارية العلم الذي انتصب على الساحة، وبدأ عمر يتحدث لي كأنه آت من زمن بعيد:

- إنا أنا مضطر للسفر إلى تونس بالسيارة، لديّ تكليف هناك لمقابلة بعض القوى الوطنية، وربما ستكون فرصة لأنجز بعض الأعمال، لذلك قلت ربما تحتاجين شيئاً؟ أو لديك أسئلة بخصوص الرواية.

نظرت إليه متفاجئة، وكان عمر يقرأ ملامح وجهي، ثم بادرت بالقول: وفقك الله، أنا لا أستغني عنك عمر، وتعرف أنني لا أتحديث كثيراً، ولا أخرجُ إلا إليك، في هذه الظروف التي حبستني أكثر.

- إنا، هل غيرتم مكانكم؟

- نعم، غيرناه إلى بيت قريب من حي الزيتون، ويطل على جهة مستشفى، من الباحة الخليفة له.

تنهدت بصعوبة، ثم أكملت: يقول أخي أنه مقر مؤقت، الإيجار يصل لثمانمائة.

- المصرف لا يمنح راتباً كاملاً، ابحثوا عن بيت غير مكلف.

- نعم، نحن نستعدُّ للانتقال لبيت ثالث، وهو أفضل بكثير.

- إناث، اليوم أكتشف شيئاً مهماً، ربما أهم اكتشاف في حياتي.
- وما هو؟

كنتُ أنظر إليك في تأملٍ عميق، وأحاولُ إلا تغرورق عينايا بالدموع، فأنا متعبة، منهكة، ومرهقة من هذا الحمل الثقيل على كاهلي، امرأة منسية تماماً ممن حولها؛ لشعورها دائماً بأنه ليس ثمة من يقدر على محاكاة عقلها سواك، يا مَنْ تَقْرؤني مِنْ نظرة لي، ومن جملة مفيدة أكتبها عني، ومن هتّة خطأ زلتُ بها، ومن قصيدة تقترُفها أنا ملي رغماً عني.

ما هذا التخريب الجميل لقلبي؟ ما هذه الفظاعات التي تربكني بها؟ وما ذلك الذي بالك؟ وتروم قوله لي في هذا التوقيت المأزوم؟

- إناث، أنا لا أستطيع الاستغناء عنك، كيف أتصرف حين أريد أن ألقاك؟ وأحدثك عن هذا العالم الظالم، المليء بالهراء؟

كان عمر يدرك أن تغيير مكاننا، قد يعني الانتقال لمدن شرق ليبيا، وهذا فعلة بعض السكان في بنغازي للابتعاد عن الإرهاب الممنهج ضدهم، وحفاظاً على سلامتهم من الاغتيالات، ومن القصف العشوائي، وليضمنوا الانتقال شرقاً المدارس لأولادهم، علاوة على توفر الموارد الغذائية.

- عمر أنت هنا منذ أربع سنوات، وتعلم أن الوضع مقلق، وآيل للتغيير.

- عدتُ على أمل أن تنهياً لنا فرص لقاء طيبة، ودولة تقوم، وإعمار يبدأ، عدتُ والأمل يملؤني، كما يملأ قلبك الرقيق.

كنتُ أراقب وجهك وأنت تتحدث، وملاحك الدقيقة، كأنها
مرسلة من سنوات الإغريق الذين عمروا قورينا^(١)، وأنشؤوا فيها
المدن، والمتاحف، والآثار، لا أحد يشبهك في قلبي، ولا أحد يساويك،
ولكني امرأة مقاسها صعب جدًّا، لا تهتم بالفساتين الجاهزة، بل تعشق
أن تُفصِّلها، كما تراها من زاوية، الهوس، والشغف بما يناسبها، لا بما
يريدها غيرها.

- طيب يا عمر، ما الذي جدَّ الآن وتغيَّر؟ ها نحن نلتقي!
- إناث أنا أريدك معي، بمعيتي دائمًا، ليس لديّ سوى ابني
ربيع، وهو مع عمه تيسير، كما تعرفين لا أبناء لتيسير، قضيتُ أيامًا في
محاور القتال، وأتذكَّر أحداثًا تعود بذاكرتي لحرب تشاد، حين أريدُ أن
أحكى لك، أشعر أنني أبحثُ عنك، لتسمعيني، لأجد نفسي من جديد،
أنا لا أصل إليك يا إناث!

نظرتُ إليك، وأنت تحدِّق إليّ، بعمق كبير، ثم قلت: إذا، كيف
ستبحث عني؟

وجاء ردُّك سريعًا، ومقتضبًا، ومختصرًا جدًّا "أبحثُ عنك كرفيقة،
رفيقة لي، دائمة، وأبدية!"

- هل هذا ما استعجلتني به يا عمر؛ لأحضر للضرورة؟ قل لي
بصراحة!

(١) مدينة تاريخية أسسها الإغريق في الجبل الأخضر في أقصى شمال شرق ليبيا
وتبعد عن مدينة البيضاء بحوالي ١٠ كم.

- لمَ لا؟ ضرورة، نعم، البلاد تذهب لمنعطفات شديدة، والأمور تتغير بين ليلة وضحاها، والأحياء تُقصف، والناس تُغير أماكن نزوحها، الاتصالات معدومة، والكهرباء مقطوعة، إناث وكأنك لست ابنة هذه البلاد؟

- عمر لم أقصد، فقط أنت تصرح بأشياء، لم أفهمها كما أريد.

نهض عمر ودار قليلاً في المكان، ثم عاد للجلوس، وأخذ يدي بين كفيه: إناث أنت لن تكوني بخير سوى معي، هذا هاجس يطاردني، أنا متعلق بك وأنت كذلك، حسناً أنا وأنت لهذه البلاد التي تترنح على حد تعبيرك منذ قليل ..

آه... وكأنني لست من هذه البلاد الثكلى!

بقيت صامته، يُكللني الصمت بالجمل الثقيلة ..

حتى الأحاديث التي من المفترض أن تفرحنا، تأتي مكلفة بالكلمات التي تؤزمننا في داخلنا، وتعيد فتح نوافذ قلوبنا، على مصراعي الألم، والقهر، أما الحرمان من الشعور بالفرح، فهو يلوح بين كلمات السطور، كأنه واجب قهري، على سكان هذه البقعة المتوسطة ...

لا أفهم لماذا هذا الاختصار الشديد لحلم جميل؟ لماذا لا يسعنا أن نتحدث عن الأحلام الجميلة بإسهاب كبير؟ لماذا يستولي الحزن على مساحة كبيرة منا، عندما نتحدث عنه، ولماذا تأخذ الأحاديث المؤلمة، والكلمات الحزينة، واللوامة من وقتنا، أكثر مما تفعل الأحداث السعيدة؟ لماذا تُخصص شعوبنا المناسبات والتواريخ للذكريات الحزينة،

ولحفلات التأيين بالكلمات، وتترك الأحياء يعانون الإقصاء، وقلة الحب والاهتمام؟ لماذا نتذكر فقط مناسبات الفقد، ونعشق الحزن عليها، ونتجاهل أن نشارك أحدًا في عيد زواجه، وعيد ميلاده، وعيد فرحه، وعيد نجاحه، لماذا نستهلك الوقت الطويل في الكتابة عن الأمساء؟ عن سيرة الألم، فنخصص لها أحاسيسنا؟ تاركين السعادة دون احتفاء بها، نهبها القليل وقتنا، الذي يشبه فقاعات الصابون، ثم تنطفئ ويذهب كل شيء ببرود تام؟ لماذا لا يعيدون الاحتفال بالمناسبات السعيدة، ولا يسمون شوارعهم بأسماء سعيدة، ولا مدارسهم بأسماء أحياء، وشعراء، وروائيين، ليكونوا باعثًا للاقتداء بهم؟

كل شيء باسم راحل، وباسم شهيد، وباسم مجاهد، وباسم قائد، وباسم رئيس، وباسم غريب عن البلاد ...

هل نحن شعوب لا وجودية؟ تكرر للاوجود في أثناء وجودها في حياتها؟ لهذا السبب يقدم شبابنا أرواحهم، كمشروع شهداء للوطن؟

نهضت فجأة، بعد هذا السرحان الطفيف، الذي تراجعت فيه الأفكار برأسي، وقلت لك: عمر، يجب أن نتحدث هاتفيًا، إذا فكرت في موضوع كهذا ...

(هأنت تشدُّ على يدي، كفارسٍ نبيل وكريم، لا يتعدى حدوده معي، ولا يسابق رغباته الشرقية، بل يؤطرها بفروسيته، وشهامته، ورجولته).

تهمس لي: لا توجد طريقة أتصل بها، إناث، أنا لا أبحث عن دور
بطولي في حياتك، صدقيني!

نظرتُ إليك، ونحن نمشي معًا: أعرف أنك لا تريد ذلك، كما أنني
لا أريدُ بطلًا، بل أريد رفيقًا.

اتسعت ابتسامتك، وكأنك شعرت في داخلك أنني أرنو إليك،
وأتظر هذه اللحظة خصوصًا، لكن الأحمال فوق ظهري كثيرة، وفوق
كاهلك مؤلمة، وكلانا يشكل للآخر نقطة مُكمّلة... نحن لسنا
متساويين، ولسنا متشابهين، ولسنا روحًا واحدة، نحن مختلفان، أحدنا
يكمل نقص الآخر.

ثم قلت: عمر، أبسط الاحتمالات إذا أنا وافقت، أن تساعدني
لتحررني من هذه القيود، ومن هذا الكيان المستعبد، أريد أن أشارك،
وأقاوم، أريد أن تتجرد نساء مدينتي، وبلادي من الجهل، والتأخر،
وأسهم في مساعدة الناس، والنساء، والأطفال و..

ووجدتك تضع يدك على فمي، وتقول لي: أيتها القديسة القلقة،
كفاكِ!

تناثرت بعض الدموع، من عيني المتعبتين، فكم كنتُ حقًا أحتاج
لميناء سلام، لبرٍّ أمان، لا يشعرني وجوده بالدونية، أو بالاحتقار
لكينونتي كوني إنسانًا يشارك في صناعة هذا الوجود الكبير!

: حسنا يا عمر، أشكرك جزيلًا، ولعلك تتساءل عن ردة فعلي
السريعة تجاهك، وهي بنفس السرعة التي اختصرت أنت فيها طلبك،

في الحقيقة لا يهمني الزمن العالق، كغصّة المسافة بيننا، وذلك الفارق الذي أعلم أن أخي سيتحدث عنه ..

- ماذا يهملك إذا؟

قلتُ لك في ثقة زائدة:

- العمر الروحي، الأشياء التي تجمعنا، الأفكار الخلاقة، الاهتمام، الثروة الجميلة، التفاصيل الصغيرة، الجراح، والندوب ...

توقفت عن السير، ونظرت إليّ قائلاً: هذا ما يسرني منك سيدي، يجب أن نتحدث مرة أخرى، ولكن في هذا الوقت، دعينا نذهب لمكتب طارق الككلي، ونتحدث قليلاً، ونرى الصحف التي أتى بها هذا الصباح ..

ومن الساحة إلى ممر طويل، كنا نسير مفترقين، كلانا يُحاذي الآخر، ولكن لا كفّ تمسك بكفّ، ولا عين تنظر لعين، ولا كتف بجانب كتف .. كنا نسير بين الممرات، والردهات الطويلة، هذه مدرسة حوّلها الهلال الأحمر لمقرّ له، بعدما فقد مقره الأساسي .

كانت المدارس في ليبيا منذ عهد النظام السابق مقرّاً لكل مناسبة تحصل في الدولة، فمرة مقرّاً للمؤتمر الشعبي الأساسي، ومرة مقرّاً للمصالحات الاجتماعية، ومرة مقرّاً للندوات والخطب الثورية، والآن استحالَت هذه المدارس لوظائف أسوأ من ذلك، تارة يحيل شبان الحي ساحة المدرسة، لغسيل سيارات، وتارة تجد خيمة مأتم منصوبة فيها،

وتارة تجد عائلات نازحة قد استقرت بها، فتحولت الفصول لغرف نوم في الليل، وغرف طعام ودرشة في النهار ...

دخلنا لأحد المكاتب التي تعجُّ بالشباب والشابات، ألقينا التحية على الوجوه التي ظلت تنظر إلينا بدون حديث، كانوا يُغلّفون بعض الأغذية، بدت لي علامات الإرهاق جليةً على الوجوه، حين كان الصمت والهدوء هو لغة الترحيب ..

اقترب عمر من أحد حواجز الألومنيوم المؤدي إلى قاطع آخر، حيث تقع سلسلة مكاتب، وجلسنا على كرسيين متقابلين، قرب المكتب الذي صُفّت فوقه الصحف، والمجلات، وأخذ منها ثلة، ثم نظرتي قائلًا: إلى أين وصلت في الرواية؟ لم تُجيبني عن سؤالٍ منذ قليل!

وضحكت فجأة: أنت يا عمر تنتقل بين الأحاديث بسرعة، كنا نتحدث عنا، عن الدولة، والخراب المرتب.

ولاحقتني ابتسامتك النصفية التي بدأت أعودها غير مكتملة، وكأنها فرحة مبتورة الأطراف فقلت لي بصوت أقرب للهمس: لا أريد أن أفسد وقتك، لديك روايتك؟ ولديك قضايا أخرى تهتمين بها؟ .. هيا قولي لي؟!

لا أعرف أنا وعمر أين التقينا سابقًا؟ في أي دقائق من الرف الزمني؟ في أي برج؟ من أي ساعة؟ أهى ساعة سعد أم نحس؟ أم أنها ساعة توافقية نصيبتها هذا المقطع الواقع بين زمنين، نعم بين زمنين، وبادرت بقولي لعمر:

أنا الآن أدسك بين أحداث روايتي، أناديك كما أحبُّ، أتركك
تنساب بهدوء؛ لتحدث عن معاناتك، وتكشف المزيد مما لم يظهر
للضوء ..

(هذا أنت تفرح وتنظر لي بسرور) ثم تعلق: نعم أنا سعيد لو
قرأتها، ولو كانت مسودة يا إناث. أومأت برأسي إيجاباً: حسناً، سأفعلُ
ذلك، وهذا ليس وعداً ... إنه حقُّ أصونه لك.

بداية ٢٠١٦ بشهر يناير سأكون حرم السيد عمر قاسم، عن عمر
يناهز الخامسة والأربعين، تلكأتُ طويلاً أمام أخي لثلاً أُبرِّز له اهتمامي
بالموضوع، فهذا يعني إشعال فتيل الشكِّ في قلبه، وهذا يعني أنني على
معرفة بعمر، ما يؤدي إلى احتمال قيام علاقة مسبقة، وقيام علاقة تعارف
بين رجل وامرأة مطلقة، لا تخلو من تهمة مبرمة في حقِّها، ومن ظن سيئٍ
في أخلاقه هو، لذا قلتُ لأخي لا أريد أن أتزوج، بل إنني أفضل أن
أعيش معه، على أن أتزوج برجل قد يشبه الحسين زوجي السابق،
وبمجرد أن قلت ذلك، بدأ يسألني إلى متى ستبقين هكذا، ألا تريدن
أطفالاً؟ وضع البلاد يجعلني قلقاً عليك، وهكذا في كل مرة نلتقي فيها.

كنتُ أنقل لعمر إجاباتي جادة، وكان عمر يتذمر، سافر لتونس،
أنجز أعماله، وعاد هو يتذمر، ويقول لي إنه يشكك في جديتي، كان ذلك
شعوراً جميلاً، أن تظنَّ مجرد ظنٍّ أنك تصيب من يهتم بك بالإحباط، إنه
شعور أجهل من الحب، فأنا من أنصار الاهتمام، ذلك الشعور الأبقى،

والأجل، والأكثر اتساعاً من مفهوم الحب، فالحب قد يكتنفه إهمالنا
للآخر، وتلك المفارقة دقيقة جداً، حد الهذيان، وربما الجنون.

بقيت أسبوعاً، ووجدتني أجهز نفسي لحفل زفافنا ظهيرة أحد
الأيام، لأزف إلى السيد عمر قاسم في بضع ساعات وحلم سأكون معه
للأبد ..

منع أهلي أي مظاهر للفرح، احتراماً للموتى الذين يتساقطون هنا
وهناك، وكُرمي للعيون الحزينة التي أتت من بيوت الجيران والأقارب،
لتشهد هذا الفرح المتكحل بالحزن، لم أستطع أن أهَيِّئَ لنفسي جهاز
عروس، فالمحال مقفلة، وبصعوبة استأجرت فستان الزفاف من قرية
- طارت من الفرح، لأنها حصلت على إيجار بيتها من تسويق الفستان،
ابتلعت فرحتي، وهضم الصمت ما تبقى منها، حين أحسست أن
طقوس الحناء غير لائقة، في هذا المصاب الجلل، فالبلاد تبكي، وأكثر
اللاتي يتزوجن الآن، إما لتخليص أهلهن من حمل التنقل بهن خوفاً
عليهن، أو أن يقدمن أنفسهن فداء من أجل الوطن، فيتزوجن بأحد
مبتوري الأطراف، تعبيراً عن تقديسهن للواجب الوطني.

في زفاف كهذا تسمع أصوات الرصاص، أكثر من سماعك
للزغاريد، ولا يُسمع الغناء، بل تسمع مباركة القبيلة، لئلا تُجرح مشاعر
القتلى، والموتى في القبور ... إنها بلاد تنُّ من الحزن، ومدينة ثلث من
سكانها فاقدو أطراف، وفاقدو أحباء، وفاقدو بيوت، وفاقدو وطن،
 وفاقدو مزاجهم الجميل ..

من أين لي بفرح يجتاح أيامي؟ من أين لي بلغة تفكك منظومة
الحزن بداخلي، وتُعيد برجة قلبي على الأحداث السعيدة! من أين لي
ببائع يبيع لي إكسير السعادة؟ لأشتره وأنثره نثارًا يتبعثر كحبوب لقاح،
تتناقلها الرياح لكل هذه المدن الخزينة ..

لولا أن الله وهبني عمر، لكنت الآن في انقطاع عن تعايش الحياة ..
جاء موكب العريس في بضع سيارات قليلة، شاحبة، ومرهقة،
غسلها أصحابها للتو، ففي هذه الأيام من الصعب أن تجد سيارة حالتها
جيدة، بسبب كثرة التنقل، وانتشار السرقة، والترحال .. من الصعب
أيضًا أن تحصل على ابتسامة، تسير بقدميها إليك ..

كانت هنالك سيارة مميزة، تُقلُّ عمر يزجاج مُعتمٍ، صعدها
وامتدت لي كفه بسرعة لأجلس بجانبه، عبرنا للشارع الرئيسي في طابور
متصل، فاصطفت السيارات التي تسير بالشارع جانبًا، لإفساح الطريق
لنا، ظانين أنه موكب لشهيد، وكان حطًا جيدًا على أي حال أن نصل
بسرعة.

شعرتُ بيد عمر المرتعشة، وكفي غارقة في كفه، حاولت أن أتكلم،
فوضع يده الأخرى على فمي، هامسًا لي: حبيبتي ستتحدث كثيرًا،
الطريق إلى البيت طويل، أريد أن أحلم وأنا مغمض العينين ..

نظرتُ إليه، وعرفتُ أنه ينتصر لحلم راوده - لأكثر من ثلاثين سنة
- غاب فيها عن ليبيا، في رحلة عذاب أكلت عمره في صحراء تشاد،
أسرَّ على إثرها، وسُجن، وتعذَّب .. إنها فصول طويلة، في رواية
مبتورة، تحتاج لوصل بعض فصولها ببعض ..

تساءلتُ وأنا أَسْتندُ إلى الكرسي، ويدي ما تزال دافئة في كفِّ الحالم بقربي، هل صار الفرح لهذه الدرجة صعباً في بلادنا؟ وهل صار موضوعاً غير مثير للاهتمام؟ كنا نُجهِّز له، ونعد له، ونفرح به، ونُسابقُ الزمن من أجله، والآن كم يبدو هذا الحدث غريباً وشاذاً! وكم تبدو شعوبنا مُتعبَةً، متعبة حَذَّ الإرهاق والنزف ..

ليس ثمة فرح، يخرج من أعماقنا صادقاً، أو نقياً، أو مُغرِداً، كزقزقة عصفور جذلان، كل فرح فرحناه بعد الربيع جاء ممزوجاً بالألم، وبغصَّات الفقد، وبأنين الذين فقدناهم، وبحزن العيون المشتاقة لرؤيتهم، وبالحنين لأحاديثهم، وبالاشتياق لأحضانهم لا شيء يخرج من عمق القلب مفعماً بالفرح تماماً ..

إنني في هذه اللحظة التاريخية، التي أقبض فيها على حلم جميل أحققه، أبارك لكل من يحتفي بالكلمة الجميلة، الكلمة الإنسانية، الكلمة التي تعني العمران والبناء، الكلمة التي تجعلك تتخيل الطائر وهو ينطلق من عُشِّه، وتشاهد البطَّة كيف تدرب صغارها على المشي، الكلمة التي تسلب منك ابتسامة، غصباً عن حزن عينيك، الكلمة التي تُفكِّكُ جميع أوجاعك، وتُعيد ترتيب فوضاك من جديد، تقول لك لا تيأس، لا تحزن، لا تبك، لا بد من ضوء في آخر النفق، مهما يطل، ولا بد من خيط النور، مهما تلبَّدت السماء بالسُّحب ...

في هذه اللحظة، لا يهمني الفارق العمري بيني وبين عمر، ولا يهمني كائناً مَنْ يكون، عندما تتساوى الأرواح في سُمُوها، وحبها لرسالة الإنسان، تُهدر المسافات، وتبدد سنين الظلم، والقهر،

والحرمان، يصبح التعامل، هو غذاء الروح للروح، يصغر العالم في نظر قلوبنا، ويتحول إلى قرية صغيرة يمكنك أن تحبها

أعلم أن ثمة حزنًا يندى له جبين هذا العالم، وثمة حروبًا تسرق الابتسامات، وأناشيد الفرح، أعلم أننا نُشبهُ في أحلامنا فقاعات الهواء التي تتعبًا بألوان قوس قزح، ثم يفرقها الامتلاء فجأة لتعود فارغة من روح اللون، لكنني أيضًا أعلم أن خيط الطائرة ما زال بيدنا الأخرى، وأن تلك الطائرة الورقية ما تزال تريد أن تسرح في السماء، وتُحاكي عيون غيمة مسافرة بحلم، وتتدثر بالشمس السابحة في الأفق.

أعلم أشياء كثيرة ...

مثل أن الحزن حين يعيش داخلنا، ويكبر، يمكن لفرحة صغيرة أن تسحقه، وتعيده صغيرًا للوراء، مثل أن الشعوب لا تموت، والحياة تستمر بمن حضر، مثل أن المدن كالسيدات، قدر بعضهنَّ يختلف بعض، وإحداهن قدرها أن تعيش مناضلة، وإحداهن قدرها أن تعيش مضحية، وإحداهن قدرها أن تعيش عزيزة النفس، وإحداهن قدرها أن تكون منسية، أو سقطت سهوًا من اهتمام السُّلطة ..

أعلم أن هذا الفرح الذي يجمعني بعمر، هو فرح إنسان مجروح، عاش سنوات عمره كالواو الواقعة بين الحروب المتتالية، من حرب اجتَرَّت وراءها الألم، والغياب، والحسرة التي جرَّعته آلام الفقد لوالديه، وأذاقته مرارة الندوب في ليبيا، إلى الحرب العالمية الثانية، إلى حرب تشاد التي جرَّته بعيدًا، بعيدًا، في هوةٍ سحيقة ..

أَعْلَمُ أَنَّ معالِمَ هذا الزمن تغيّرتْ، ومفهوم الفرح تغيّر، كزفاني هذا حين عبر موكبه، وأُفسح له ظناً منهم أنه عرس شهيد، ففي بلاد العرب كثرت أعراس الشهداء، وامتدت حتى بقعة الشام الندية، أعراس تحمل أحلامها الصغيرة، في مواكب تمضي بصمتٍ مهيب، نحو مقابر تشرع ذراعها لشعوبها!

زفان لشهداء تبلعهم المقابر بلا هوادة، زفان إلى العالم الآخر، زفان بلا صداق، ولا مهر، ولا حلم، زفان بالمجان، زفان للخلاص من واقع، تبيع جسدك وعمرك، كي يتلاشى من أمامك، مهما علا الثمن ..

أَعْلَمُ أَنِّي امرأة في زمن يختلف فيه مفهوم الحب، فالرجل الجالس قُرْبِي عاش في زمن الكلمة فيه هي ميثاق شرفٍ، وعهدٌ دونه الموت، والمرأة الجلّسة قربه، عاشت في زمن تحولت فيه هذه الكلمة لأرجوحة تلاعب قلوب النساء، فتجعلهن هائمات، في انتظار تحقيق الحلم، واستيفاء الوعود، التي لا تأتي في أزمنة، أحلامها بيوت من رمل ...
أَعْلَمُ الكثير ..

مثل أَنَّ هنالك قلوباً تشنق للنور، وتنتظر يوم الخلاص من هذا التاريخ المليء بالحزن، والقسوة، والإرهاق، تتوق لأن تعود لأسرتها، وغرف نومها، ووسائلها المبللة بدموعها الحاملة، وأدعيتها التي عبأت رجاءها، وتهليلاتها، وتوسلاتها لله بالعودة، هذه النفوس المترقبة لفجر خلاصها، من سجون الانتظار الطويل .. الانتظار الذي تقطع سُرته صافرة القدوم ..

استيقظت مبكرًا في صباح مارس، محاولة أن أقاوم النوم في عيني،
كان انفصال التيار الكهربائي ساعات طويلة، يتسبب في سوء الوضع
النفسي لدى أغلب سكان الحي الذي أُقيم فيه، استمعتُ لرجل فَقَدَ
أعصابه، وظل يتكلم متذمرًا بصوتٍ عالٍ، فحصل على أعلى نسبة
مشاهدة من الشرفات، والأبواب، البعض يستمع إليه مطرقًا بصمت،
والبعض يؤيده، والبعض يتساءل: لماذا لم نتصالح مع النظام؟ عندما
وافق على التغيير - ولو كانت وعوده مؤجلة؟ والبعض يقول: كل شيء
سار على ما يرام لولا الاختراق الذي حصل لنا، وضعيِّع بوصلة
الطريق...

ظلَّ ذلك الرجل، ليلة أمس يقول خطبًا سياسية، ويسبُّ الذين
أفسدوا مسار التغيير، ثم جُنَّ جنونه، فقام بتشغيل سيارته، وشغلَّ
أسطوانة سي دي، فيها خطبة للقذافي مطلعها يقول: من أنتم؟

وكان يخرج بين حين وآخر من سيارته، ويصيح بصوت عالٍ:
الحرية، هذه هي الحرية، اصرخوا على الذين خربوا الدنيا على رؤوسنا،
وقطعوا التيار الكهربائي، ومنعوا عنا الخبز، ورفعوا أسعار البنزين، ثم
تحدثوا عن الحرية .. لماذا لا تطيحون بهم أيضًا؟ لا تخنعوا لهم
.. اخرجوا مرة أخرى.

أليسوا الصوصًا؟

دار حول سيارته، ورفع رأسه لرجل وسيدة يطلان بصمت من
النافذة، في ظلام الشارع وهو يقول:

ستقولون المهم الطاغية مات! وتتجاهلون أنه كان أرحم منهم عليكم.

وبقي كذلك حتى جنّ الصباح، وتسلك مسترسلاً للنوافذ .
في زمن آخر . . .

دورات زوبعة ريح ماثلة، فأثارت الغبار، وظلت تدور من بعيد حول نفسها متأججة، وانتقلت بذاكرتها، فتسربت من مذكرات عمر بهذه الساعة، شعرتُ برائحة الزمن تفوح من ذاكرة المكان الجسدية، انتقلتُ معها بسلاسة ونعومة، وبالمواصفات نفسها شاهدتُ رجلاً، كأنه النسخة التي كانت تحطب ليلة أمس متدمرة، أو كأنه هو في زمن آخر، يتراءى من بعيد، وهو واقف في سوق الجريد بينغازي في الثمانينيات، وصوته يعلو مُزججاً وحاقدًا، متسائلًا: أين يذهب عشرات الليبيين المخطوفين من الشوارع العامة، ومن المدارس التي تعجُّ بالطلاب، ومن المعسكرات برتب عقداً، وعمدًا، ونقباء؟ وأردف يقول بذات اللهجة: معقول يا ناس! طلاب المدارس لم ينجوا، من الحرس الثوري، الذي حجزهم بمدرسة خالد وحملهم شاحنات، شاحنات، لمعسكرات النظام، بحجة تقديس نضال ليبيا، أي نضال هذا يزجون أولادنا فيه؟ أولاد في سن المراهقة، يغيبون في بلاد تقع تحت بلادنا، تفصلنا عنها صحراء شرسة.

عَرِقَ المشرق وقتها في المناوشات السياسية بين دوله، وكان نظام ليبيا يتدخل في شؤون جيرانه ويساندُ حركاتٍ تسمى بحركات التحرر

في العالم، فيدعم بعض الأنظمة العربية، ويدعم المعارضة المضادة لها، وكانت فرنسا وإيطاليا قد وجدتتا موطناً قدم لهما بأفريقيا - التي تدور فيها قلاقل شديدة في السودان، وتشاد خاصة، فيما لاحت بوادر حرب بين العراق وإيران، بدأت باشتباكات متقطعة بين الدولتين عام ١٩٨٢..

انساق النظام وراء تصوره لنظام جديد في تشاد، فبدأ بإرسال قواته بين الحين والآخر إلى تشاد؛ لمساندة حركات التمرد، ضد حكم تومبلباي^(١)، فقاد دوراً أساسياً للسيطرة على تشاد؛ حتى استمر الأمر به، ووجد نفسه سنة وراء سنة يحرج ليبيا إلى حرب شرسة، وفي المقابل كان نظام تشاد يستقوي بفرنسا، التي شكلت مع تشاد تحالفاً لحمايتها من نفوذ القذافي، مقابل الحفاظ على مصالحها الاستعمارية، بشريط أوزو^(٢) المكتظ باليورانيوم.

كان الصمت يتواطأ بنا، ويتآمر معنا، والعشرات يختفون، في رحلة اللا عودة ..

(١) أول رئيس لتشاد بعد الاستقلال عن فرنسا، اتسمت فترة حكمه في الستينيات وبداية السبعينيات بالاضطرابات السياسية.

(٢) شريط من الأرض في شمال تشاد على طول الحدود مع ليبيا، يبلغ طول هذا الشريط حوالي ستمائة ميل، وقد نشب نزاع بين الدولتين أدى لاندلاع الحرب بينهما.

ببداية شارع العقيب

قال السيد المنفور المقرحي، وقد انتفخت أوداجه:

- أوزو تتبع ليبيا، بحسب اتفاقية موسيليني — لافال في ١٩٣٥ بين إيطاليا، وفرنسا، إذ بعد تقسيم الحدود اعتبرت إيطاليا أوزو تتبع ليبيا.

سمعه نبيل، وهو منحني يصلح سيارته العاطلة أمام البيت، ثم رد عليه:

- بأى حجة أوزو ليلية يا المنفور؟

ردّ المنفور متشدقاً: لأن سكانها تشكلوا بحسب التشكيلة السكانية الليبية، وأخذوا الأعراف والعادات، والتقاليد الليبية، وقد أثرت فيهم الحركة السنوسية تأثيراً بالغاً؛ حتى أنهم امتدوا، وتنقلوا إلى كفرة، وسبها^(١) وما جاورهما، على اعتبار أنسابهم لليبية.

أطلّ نبيل برأسه من تحت السيارة، وهو يقول له: هذا كلام ديموغرافي يا صديقي المنفور، أما في جغرافيا الخرائط فالأمر يختلف، لأن البرلمان الطلياني لم يوافق، ولم يوقع، ولقد أبلغ الفرنسيين بذلك، وعليه - أوزو بحسب رؤية فرنسا تشادية، وبحسب الاتفاقية غير الموقعة من إيطاليا تشادية أيضاً.

علّق المنفور بثقة: أنا مع الثورة أينما ذهبْتُ، أنا معها، ونحن وراءها يا نبيل.

(١) مدينتان لبيتان.

خرج نبيل من تحت السيارة: نحن غصبًا نسير وراء فوضى
الطلليان، والفرنسيين، لو فكرت فإن حروب الإخوة مردها سبب
استعماري قديم، والاتفاقية أكلَ عليها الزمنُ وشرب ..
أصرَّ المنفور مكرراً قوله:

- أنا قلتُ إنني مع قائدي فقط ...
- احترم خيارك، ولا تقل نحن، فنصف الشعب - وعلى الأقل
الجانب الذي نحن فيه - يتذمر من حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل،
وقانوناً يمكن أن تفصل محاكم الأمم المتحدة في ذلك، عدا ذلك لماذا لا
تلتفتون إلى معالجة التخلف، وإلى الإنسان الليبي والتطوير، بدلاً من
هذه الحرب؟

كان المنفور يعرف أنَّ موقف نبيل من سبتمبر، له ما له في بعض
المواقف، وعليه ما عليه في أكثرها، وهو موقف نابع عن نقد لسياساتها
الاندفاعية، وأفكار القذافي تُعجِبُ الكثيرين من أبناء شعبه، قوة
شخصيته، ونفوذه أمام أوروبا، والقوى العظمى، ما يجعل صبر
الكثيرين عليه أمراً لا بد منه، ومن جهة أخرى لا يعفيه ذلك من تذمُّر
الناس، في عدم تحسُّن مرتباتهم، وطريقة حياتهم، وقلة فرص العمل،
وإنفاق مقدرات الدولة في دعم حركات التمرد في العالم، ودول الجوار،
وهذا لا ينفي أن للقذافي بعض الخطوات الجيدة تجاه شعبه، وخاصة فيما
يتعلق بأسعار البنزين، وغيره من السلع الغذائية.

وربما لم تستوعب سبتمبر كونها سلطة حكم، مطالب شعب خرج للتوّ من حرب استعمار واحتلال، تفتّت فيها إيطاليا في إلحاق أقصى درجات الضرر النفسي، والقهري، والجسدي، والمادي بالليبيين، لذا ضيق أفق النظام لم يستوعب أنّه شعب يطمح للتعويض من الداخل، وإعادة البناء للإنسان، ولم ينتبه إلى أنّ حقبة المملكة - لو استمرت - لكانت قد نقلت ليبيا إلى مصافّ الدول المتقدمة، فقد كانت حقبة بناء وتعمير، وهدوء نفسي، واستقرار نسبي للدولة الليبية.

يظنُّ صاحبنا نبيل أنه كلما قرأ وتعلم أكثر، وازداد ثقافة، زادت معرفته بهذا العالم المليء بالشّرّ، وتغول الآلة فيه، وسيطرة الحرب على مساراته، وكان يشعر أنه كلما حقق الخير النماء والعُمران، وعاد ليتجمّع ويتكوّن، تغولت وتجبرت أدوات الحكام، فخربت مسارات الضوء، وأسدلت ستار العتمة على الوجود، واعتلى المسرح شخصيات بوهمية خيالية، تظنُّ أنها لو تجتاح المزيد من الأراضي، والمساحات، فسوف تسيطر على مقدرات باقي الأطراف، وتصبح القوة مركزاً لها، وكان يتساءل عادة: هل لا بد من حتمية الصراع الذي يبدأ بالإنسان، وينتهي به ضحية أخيرة؟

وكروح درست الفلسفة، وعاشت أمام عيون كانت تدمع من القسوة، والظلم، والفضاضة، والأسر، اكتسب حسّاً مرهفاً صبغته ثقافته برباطة الجأش، وزادت من ثقته بنفسه تدربته أعواماً في معسكرات المملكة، وإذ هو يتزوج ويظنُّ أنه حصل على سعادته،

فتنجب له حبيبته فتى جميلاً، وسيّاً دقيق الملامح مثله، ثم تتركه وترحل إلى بارئها، يزداد معرفة أن السعادة ليست في غاية يصل إليها، كالحب أو الأبوة، أو الاستقرار، بل تكمن في طبيعة اتجاهه الذهني، وتعامله مع متغيرات العالم حولنا، وأين سيجد نفسه، وهل ثمة ما يستحق العناء؟

وهو العناء الذي يعني أن يقاوم، ويكافح ويصمد، ويوطن قلبه، ونفسه للتأقلم مع ما يحصل حوله، ثم ينفض عنه الغبار، عندما يؤمن أن ساعة النور قد حانت، وأن الفرح يرتع، وينشأ في معاقل الحزن، وحدها تفهمه، وحدها تُربيّه، وحدها تجعله يكبر، ثم يثمر، وينشق عن ضوء، ونور، وشعاع.

ذلك الضوء والنور والشعاع، سخرّ له مخيلة قادرة على تحيّل الفهم يتجسّد أمامه، ويوجز معرفته ببواطن الأمور، في شخصيات تستجمع أفكار العوام من الناس، كانت في كل مرة تتراءى له روحٌ تجربّه بما كان، ويكون، وكانت هنالك المحببة منها إليه، تلك التي تتداول معه رؤيته في فلسفة عميقة، تعلو فوق طبقات الفكر لتمارس شطحات خياله في شبيّ مُثير.

ربما قرأ دون كيخوت ذات زمن، ربما لامست روحه طبيعة زوربا في كُره الحزن، وطبيعة زورو في كُره الفقر والظلم... كان يتعاطى الخيال بشكل فضفاض، وبلا هوادة!

كالرمل الغائب في سحنات الريح، تحمله برائحة الصحراء إلى أهواء الشمال، تذروه في خبايا البيوت المحملة بأنات أهلها، كلما وصل خبر هزيمة في تشاد، كان الجنود يغيبون عن الوجود، كما يغيب حلم من رمل، على شاطئ البحر، وفي كل مرة يتم دعم الجبهات المفتوحة على النار، بإنجamina^(١) بالمزيد من العتاد والزراد.

جنود، وقادة، طائرات، وصواريخ، وأرواح عمياء تقود جهات الريح، إلى نقطة احتدام النار، تلك هي الحرب، أحد أطرافها ظالم، والآخر مظلوم، طرف غاصب، وطرف مغصوب، أليست هذه حقيقة صراعاتنا الوجودية؟ ابتداء من المستوى العادي، إلى الحدث العالمي؟!

لم يحدث أن اتحدت البشرية في حرب ضد كائن مُحَرَّب، خَرَّب الأرض، وهدد أمنها، واستقرارها، إن كل ما تفعله الحكومات العظمى، هو صناعة أعداء من ورق وكرتون، ثم تنظيم رُقعة الشطرنج، وقوانين الاصطفاف فوقها، ريثما يتقدم حصان، أو شاه، أو يحدث فعل كش ملك؛ لتبدأ الثورات والحروب، ويبدأ الحلم بأن يتحول الإنسان إلى دمية صامتة، وجثة هامدة ..

طواير لا متناهية تذهب في سرايل ممتدة؛ لتغني أغنية الحزن تلك، وتصفق لأداء الشرِّ والقتل، وتغول السياسة، حتى يستمر الإيهار، وحسن أداء المؤدين لهذا الفيلم، الذي توالى أجزاءه العظيمة،

(١) عاصمة تشاد.

فالسّياسة أفسدت العالم، وخربت مناحي الحياة الثقافيّة، وعطّلت
الولادات الرّحميّة للخير، والمعادلات القيمية للنُّبل والشّهامة في هذا
الوجود.

حقاً، إنّ الأعشاش التي تُدمّر في غياهب الحرب، يقابلها ضوء
ينطفئ في سماء الوجود

حمّل نبيل زجاجة الويسكي، عازماً على كتابة بعض المذكرات، في
مُدوّنته التي يتركها عادة بالجزء المفصول في المقهى عن الرواد، هنالك
يَدّخر ما في جعبته، من خواطر، وكلمات، وتعايير عن فترات اختزلتها
ذاكرته، لتبقى مرجعاً مهماً دارت به السنون، يسكب مشاعره تباعاً فوق
بياض الورق، ثم يجعل الكلمات المُحرّرة بالخبر الأزرق، تتكلم عن
نفسها، وتتصدر واجهة السطر؛ لتقول للزمن في تاريخه المُذيل أسفل
الورقة: إنّ شخصاً كان هنا، يُحرّرنِي بدمعة، ويكتبني بدم روحه،
وشغاف قلبه.

كان مقهى برنيق يعجُّ بالرواد، الذين يدخلون السجائر الرخيصة
والفارحة، معبرين بذلك عن الطبقات الاجتماعية بينهم، سار بتؤدة نحو
الداخل، وجذب كرسيه، جلس منهكاً، تدور في باله أفكار كثيرة، عن
الحياة والموت، عن الحرب والسلام، عن الأمن والفرع والروع ...

تهيأ لي وهو يرتدي قميصه الأبيض، وبنطلونه الكاكي الكتاني،
وشعره الأجعد مسترسل إلى حدّ ما، يتأمل الطاولة بعمق، فيما تهادت
مدونته العريضة فوق صدرها، متربعة على عرش المنضدة الفسيح،

أحياناً يشعر بمشاعر هذه الأشياء، بتفاصيلها الصغيرة، وتعبيراتها الساكنة، تحمّلها لنوبات غضبنا، لحزننا، لهروبنا المشروع، واللا مشروع من عالمنا، أشياء قد تبدو بلا قيمة، لكنها مُكمّلة في مناطق مأهولة بنا، لا تخلو منا، ولا نخلو منها.

وطَفَقَ يُسَرِّحُ بفكره في تأمل المنضدة؛ حتى خَيَّلَ إليه أنها سيدة تفتح له قلبها، وتُشرع فسحتها لجراحه وآلامه.

كم تحملت هذه المنضدة! وكم شهدت من مواعيق تاريخية! وكم مُهرت بتوقيعات، ومصالحات بين شعوبٍ وأخرى، تظلُّ حاضرة لنا، وحاضرة بنا، تمضي في رحلة سكونها معطاءة، كإنسان يُشبه هذا الذي يتكئ عليها، يأكل الزمن ملامحها، وتذوب، وتبقى الندوب التي نخطُّها على لحاء جلدها، شاهداً على أظفار الإنسان الوحشية التي شقَّت مسامات جلدها.

ألا تشبهنا نحن؟ وبعضنا يشبهها كثيراً، يقضي رحلته في عطاء دؤوب، وفي صبر لا يطاق أحياناً، يهبُّ، ويمنح، يُعطي بلا تذمُّر، يُفرح غيره، ويتحوّل إلى كائن ينصت لهموم الأحباء، والغرباء، ويتقبل جرعات الحزن، والفرح بلا اعتراض، ثم يركله الزمن في زاوية، بانتهاء مدة الحاجة إليه.

كان نبيل قاسم يتذكر سوء أحوال بلاده، ويتوق حياة تليق بالإنسان، لم يعد يهتم بالمطالب الكبيرة، لكن مطالبه الصغيرة تظلُّ كبيرة، في نظر الذين يظنون أنهم وحدهم من يملكون حقَّ اختيار حياتنا.

ظل يكتب، ويكتب، لم يتوقف وهو يتسربل وراء قلمه، وعقله،
يتذوق عناء كلماته، لعلها تصفُ شعورًا صادقًا يحسُّه ويشعرُه.

هذه البلاد بلادٌ فوق العادة، وفوق طاقة الحياة كما يبدو ...

يريد بلادًا طبيعية، شوارعها ترابية، وأرصفتها قديمة، يريد بلادًا
كل شيء فيها بدائي، أهلها، ملابسهم، وعاداتهم، أكلهم، وشربهم،
يذهب أطفالها في الصباح للمدرسة، وفي المساء يلعبون أمام الباب، يريد
بلادًا خالية من الألم، ومتجردة من الحزن، وبلا ذاكرة حرب، بلادًا
ذاكرتها كلها مُحترَلة في يومها، تأتي مع الشروق، وتندثر مع الغروب،
لكنها تعيش كقرية في سلام.

يريدُ نسيانًا كبيرًا.

نعم يريد نسيانًا كبيرًا، نسيانًا يليق بمساحة وجعه، نسيانًا يغسله
منه، يشنق ذاكرته فوق مقصلة الزمن - نسيانًا يعدم أحزانه، وينفي
آلامه، ويُبدد الحرب كالدخان الذاهب في سرايله، إلى عراء الريح ..

يريدُ عالمًا بسيطًا، ليس مثاليًا، لكنه يكفي لحلم جميل، يكفي لصباح
يشرع فيه نافذته على ضحكات الصغار وهم يذهبون للمدرسة، صباح
توقظه فيه ثرثرة النساء الذاهبات بين الأزقة، صباح تفوح فيه رائحة
القهوة، لتجذبه من فراشه، وتقول له: ابدأ يومك، فهذا اليوم جميل،
وهذا الصباح يليق بإنسان مثلك ..

يريد عالمًا على الأقل ليس ورديًا أدكن، وليس أبيض جدًّا، لكنه
عالم خالٍ من أصوات الرصاص، ومن المعادن المليئة بالصراخ، عالم

يكون فيه الإنسان ذا قيمة تذكر، فلا يُقتل، ولا يذهب ضحية السياسة، ولا يدفع ثمن وجوده، وبقائهم هم .. عالم يختصر أبعاد المسافة في السلام والود ...

يريد عالمًا يشعر فيه أن جمعيات الرفق بالإنسان تتكاثر، توازيًا مع جمعيات الرفق بالحيوان، لأنه حينها لن يكون في موقف حرج، حين تموء قطته، فيقسم لها من طعامه، بينما هنالك أسرة في البيت المجاور تتدلى أمعاؤها من الجوع ..

توقّف نبيل عن الكتابة، أحسّ بالاحتقان داخله، بدموعه تتسرب من عينيه، كثقوب لامعة من فوهة كهف بني، بدأت تنساب كنهر يسير بتؤدة، نحو محيط خديه، وقارب شفثيه، ربما سيمتلئ القارب، ويضطرُّ أن يتذوق ملحوحة دموعه؛ ليدرك حجم مأساة هذا التاريخ الذي لم يتوقف عن دمويته وعوائه.

كم يصبح من الصعب أن يظل يعيش - وهو داخل كهوف تعبج بالحفريات القديمة، التي تنقب عنه في كل مرة؛ لتخرجه من طور الزمن الذي هو فيه، فتذهب به أشلاء إلى رائحتها المتشربة بالرطوبة؛ فتبدو مثل صندوق قديم مليء بالصور المحشوة بالأشخاص ..

نظرَ إلى صورة والده التي تتصدّر الحائط، بعبقها الجميل، ونظراتها العميقة تلك .. راودته أفكاره، فمضى وراء قلمه بنعومة حبر، وسلاسته ... كان الحبر وفيرًا كريبًا في جوده، وكان الورق يتململ في غنجد تحت وطأة قبلات يبثها القلم في سخاء ..

من المؤلم أن يستحضر الماضي، في برهة زمن وجيز، ويدرك أنَّ
الأشدُّ ألماً هو تجاوز لحظات الاستحضار تلك بمخاضها العسير، ربما
لأنها تحضر برائحة مَنْ يحبُّهم، وتأتي بأشخاصهم... تُحاصرُه بأصواتهم،
ومواقفهم معه، تُبلِّغُه بذكراهم النَّديَّة قوارير عطرهم، ويغدق عليه
الزمن الآني، كثافة وجودهم الملائكي، كل ذلك في مربع صغير، اسمه
صورة ..

هنالك صور حين يشاهدها، تأتي رائحةُ تاريخها في ذكرى ترتبط
بذاكرته مع مرحلة ما، وهنالك صور حين تقع عيناه عليها، تُعيد ترتيب
أفكاره، وتطلب من الآخرين أن يجودوا بإحاديثاتها له، هي تلك الصور
التي لم يعاصرها، لكنَّها تظل دائماً تحتفظ بخيطٍ يصلها بمن يتعرَّفون
ملاحظها الزمنية. فالزمن - وإن غابت معالم المكان عن ذاكرته، يُعيده شذا
الرائحة، العالقة في الأذهان.



كانت زجاجة الويسكي هي الدواء الذي يجعله يفقد حسه ووعيه
بما يدور حوله من أحداث قهرية، تعود الهروب إليها من مثاليته، التي
بدأ يكرهها كثيراً، شرب منها جرعات متواصلة، سرح وراء أفق الصور
المعلقة على الجدار، كانت ثمة صورة أخرى لجرة قديمة، تنحني في
تواضع، وتسمح للماء أن ينسكب منها في دعةٍ وسلاسةٍ، وثمة عصفور،
ويامة قريان منها، ينهلان من خيط الماء المسترسل كبركةٍ صغيرة ..

وتساءل: هل الفعل باعتباره عاملاً مسبباً في حياة الحياة، هو مَنْ يجعلنا نخوض كل هذه الحروب؟ فتنوعت صيغه الزمنية، بين ماضٍ، ومضارع، وأمر، ولأن صيغة الأمر علت، وتجبرت، وطغت فقد تعددت وجهات النظر، بين من يَأتمر بها حباً للإنسان، لأنه جوهر الحياة؟ وبين مَنْ يَأتمر بها إذعائاً لقوى الشرِّ.

لماذا لا يطغى الخير، كما يطغى الشر؟ لماذا لا تكون هنالك حربٌ للحب، تتنافس فيها الدول على إغداق الحب فيما بينها، ويثمر عن ذلك سعادة الإنسان؟ لماذا لا يبتكرون مشاريع إنسانية تصل لكل البشر، وتملأ رائحة الوجود بالورد بدلاً من الدخان المتصاعد؟ لماذا لا يصرفون المليارات على بناء بيوت تكون أعشاشاً لأسر تبحث عن مأوى لها، بدلاً من صرفها على المعدن الثقيل، المليء بالضجيج، والبكاء؟ لماذا لا يساعدون دولة فقيرة، وشعباً يحتاج للموارد المائية؟ فهناك شعوب تموت من العطش ..

لم يُقرأ في التاريخ الإنساني أن دولةً عظمى رفعت فيتو ضد قيام الحرب، وقامت قيامتها ضد قتل الإنسان المغلوب على أمره، وضد نقل صراعاتها للدول الفقيرة، أو الحاملة، لطالما كان يرى الدول النامية والفقيرة ملاعب كبيرة لتلك الدول، وكان الإنسان العربي وقوداً للحرب، نزفاً و شرياناً لا يتوقف عن إهدار الدم، نبغاً مستفيضاً من البكاء، نهراً مالحاً من دموع لم تنته مسارها ولا مواويل ليلها، لطالما كان العرب أعشاشاً مهاجرة، وطيور مسافرة، وبيوتاً مهدمة، وأراضي

منهوبة، أو مساحاتٍ مسلووبة، أنتجت وجوهاً يعتصرها الألم والحزن،
بقيت تحكي قصصها، وتفتقد مستمعاً حقيقياً لها ..

تنهّد بزفرة عميقة، ثم تجرّع المزيد، وقرر أن يخرج للرواد في
المقهى؛ ليتكلم ويقول ما يدورُ في خَلْدِه؛ ليخرجَ عن سُلْطة العقل،
ونهي الروح والقلب، لعله يبصر ضوءاً يشعُّ في ظُلْمة النفق ..

خرج يترنّح، فترأى له صديقه جمهور السائس الذي ما إن شاهده
يترنّح، حتى أخذ بيده، أجلسه على كرسي قريب من رواد المقهى، لكن
بيللو نهض في قلقٍ مستنداً إلى الحائط ...

لا يستطيع أن يهدأ حين تلوح له روح جمهور، متجسدة في تماهيات
الواقع، ومتصورة له بهيئات يرومها بخياله البعيد.
نظر إلى جمهور، وقال بصوتٍ ساخر وعالٍ:

- وكيف ترانا يا جمهور؟ بعدما منعونا من دراسة الإنجليزية،
والفرنسية .. هل نحن نتقدّم؟

ابتسم جمهور بلغة المكر، وبغموض كان يدور المكان، ويفكر
مُطرقاً ..

كان جمهور يعرف أنه اللاوعي المستغرق، المختبئ داخل صديقه
في رواسب تتجلى على السطح، وكان بيللو بالمقابل، يشعر أن جمهور هو
الحقائق الماثلة أمامه التي تجادله وتستجلب القراءة الواقعية لحاضره
وماضيه ومستقبله ..

فجاءه صوتُ جمهورٍ مناسبًا وعميقًا ..

- أَرانا سنعود بدون حصاننا يا سيدي، سنترجل.
- وهل كنا فوق ظهره يا صديقي؟
- نعم، بدأنا في ترويضه، ولكن السائس تغيّر يا سيدي.
- هأنت تفهم حكاية تغيير السائس يا جمهور، إنها تَوَرّقنا في ليبيا كالعادة.

فكّر جمهور، ثم قال بهدوء:

- هي حكاية تُشبه تغيير دواليب السيارة، طال عمرها، أم قصر.
- هَلّا قلت لي شيئًا عن تغيير الدواليب يا جمهور؟
- دواليب سيارتنا الفاتئة كانت ممتازة نحن لا نملك إلا أن نتذمر الآن!
- ألم أقل إنك ذكي يا جمهور؟ أتذمر عندما تكون الدواليب مناسبة للسيارة، وتتغير فجأة!
- إنها مشيئة السياسة ..
- مشيئة اللعبة يا جمهور، أو لعله سوء حظنا!
- صحيح، ولكن يا سيدي نحن قد نغير دواليب سيارات غيرنا بحجة ماذا؟
- هأنت تتكلم في المحظور يا جمهور، ألا تخشى على نفسك منهم؟

- هم في كل مكان زمنهم واحد، أما الموت فهو في كل الأزمنة،
يتجاوز سلطة المكان ..

لهذا الأمر سيّان لديّ ..

ولكنك لم تجب عن سؤالِي يا سيدي؟

وكان جمهور منسجماً جدّاً في أسئلة يبللو، ويرتشف بين حين وآخر
من القهوة الموضوعة فوق طاولته، ثم يعود للحوار، ويدها في جيبي
بنطلونه الأزرق... كان كمن يتلذذ باللغة والفلسفة والأعيب الكلام .

- نحن لا حجة لنا، حين نفكر في تغيير دواليب سيارة أخرى،
وما دخلنا بسائقين لسيارات أخرى؟

- لا دخل لنا ألبتة، لا مردود لدينا وراء ذلك يا سيدي.

- أنا قصدتُ وما علاقتنا؟

- وأنا قصدتُ أننا لا نجني فائدةً سوى كُره العالم لنا.

- نعم، بدأنا نحتل، ونغزو .. نحشر أنوفنا، ونُبدّد أموالنا،

ومقدرات البلاد.

- الغزو يا سيدي مفهوم فضفاض، فعن أي الأزمنة نتحدث؟

- عن زمن الحداثة، وعهود الغبار.

- وهل يجتمعان؟

- نعم يجتمعان يا جمهور.

نَظَرَ جمهور للجمهور الذي يُراقب مجرى الحوار المسرحي، فكم
يبدو مثيراً أن يكون نبيل شديد الالتصاق بمأساة شعبه، مُطَّلِع تماماً على
دوران الأرض، وخسوف الدولة، وكسوف الحظ مع شعبها!

تابعَ جمهور حوارهِ، وقد امتدَّت يده، فجلب هذه المرة كوب قهوته على الطاولة، فيما كان يبللو، يستند إلى الحائط، وقد فتح ياقة قميصه، وترك بعض خصلات شعره المُجعد تتدلى عفويًّا على إحدى عينيه ..

- كيف يجتمعان؟

نظر إليه بيللو ساخرًا وقال: انظر إليك، يا جمهور، أنت هنا، في الداخل، ما زلت تحاول أن تنفض عنك الغبار منذ عهد التخلّف، والجهل، وآثار الاستعمار، وحكاية العودة للوراء، لعصر الحجر والكهف، بينما العالم يسير نحو الحداثة..

ردَّ جمهور: ما الجديد في الحداثة بخصوص الحروب؟

جاءه صوت بيللو بهدوء وعمق:

- الغزو، والاحتلال يختلفان تمامًا في وقتنا.

- حسنًا، حدثني كي أقنع بك جنرالًا للكلمات؟

نطق بيللو بصوته العميق ببطء شديد، قائلاً:

- لا أوسمة، لا نياشين، لا صفات لسيد من عدم، أنا اللا شيء،

اللا جسد، أنا فقط أنا، حيثما يرميني الفراغ.

- أنت بيللو... بيللو الإنسان الذي تظلُّ روحه تتخبط من الألم

والمعاناة، كلما ذاق مرارة واقعنا، وسُلبت منا مقدرات شعبنا، وتكبَّدنا

ويلاتِ ثوراتنا ومآسيها، فاصطدم بعضنا ببعضٍ وتناحرنا، دون أن

تكون لنا رغبة سفك الدماء!

- هذا هو مفهوم الحرب يا جمهور!
- أشعل جمهور سيجارة أخرى، وتأمل بعُمقٍ مستغرق وجهه بيللو،
ثم أردف يقول:
- أفحمتني يا سيدي، وأما الاحتلال؟
- تنهّد بيللو بزفرة عميقة، قائلاً بهدوء:
- ابحثوا عن الاحتلال في عقولكم ...
- أنت تؤولنا لإجابات مفتوحة على العالم في الخارج.
- وأين أنتم يا جمهور؟
- ما زلنا لم نخرج من صندوق الكرتون بعد، فكيف أعرفهم يا
سيدي.
- ستعرفهم وحدك، حين يتكاثر الانتحاريون، سيملؤون
بزحامهم المكان ..
- ثم؟
- سيعلمون أسماء غزواتهم فوق جثثكم ..
- أعرف أن الغزوة يا سيدي هي أن تقاتل بجيشك عدوّاً، أو
(تهاجم بلاداً).
- ألم أقل لك تغير المفهوم يا جمهور؟!

وهنا نظّر بيللو بعُمقٍ إلى جمهور، الذي بدأ يتبدّد أمامه ويتلاشى
كعمود دخان من غليون رجل حفيف. وجاب نظرات هذه العيون
المطرقة في صمتٍ مُطَبّق، الحقيقة أن الليبيين شعب ذكي، لكنهم في

الاتجاه الخاطئ من الزمن، وفي عكس اتجاه الريح .. فمتى يتصالحون مع اتجاه الريح الصحيح؟

مضى باقي اليوم في همس تارة، وجدال تارة أخرى، ونقاش مرة أخرى، وكان المقهى كالبحر، في كل مرة يلفظ موجة بشرية للشاطئ، وبعد قليل تأتي موجة بشرية جديدة، تُشعلُ المواضيع من جديد، خاصة عن المخفي من حرب تشاد، التي حُجبت أخبارها عن الليبيين، وليس ثمة جهة تجيب عن أي سؤال قد يطرحه الأهالي، كما سراب يتهادى في أزقة شوارع بنغازي، ينشر صيحات الأسى، ونداءات الحياة. ربما هذه البيوت الغارقة في مؤامرة السكوت، سيتحرك لها ساكنٌ ذات يوم.

غادر بيللو في الزحام.

غاب - وغابت أشياء كثيرة، بغيابه عن بنغازي.

ما يرويه المنسي

في رواية المنسي - في الصحراء كتب بيللو

لا أستطيع أن أمحو يوم السبت ١٨٨٤ من ذاكرتي، الذي ذهبْتُ فيه لأحد المعسكرات استجابة لطلب جمعنا هذا اليوم، في الحقيقة كان موعد التمام الشهري، وكنتُ أتهربُ منه منذ مدة؛ بسبب إرهابات تعتمل في صدري، ولما سمعتُ أن أي مُتغيّبٍ سيتم إحضاره وفق القانون، قلتُ في نفسي ما دام الأمر كذلك، سأذهبُ طوعاً قبل إحضاري قسراً.

ذهبْتُ، ووجدتُ المعسكر يغصُّ بالكثيرين، من أعمار مختلفة، درتُ بنظري هنا وهناك، فعلمتُ من خلال سؤالي للذين حضروا أن أحداً لم يأتِ لأخذ التمام بعد، طال الانتظارُ، وبعد ساعةٍ دخل فوج من شباب يرتدون ملابس مدرسية، ويحملون حقائبهم، في الواقع أدركتُ أنه فات الأوان عن التراجع، إذ إن هنالك حرساً على الباب الذي دخلنا منه، وأظنُّ أن مَنْ يدخل لن يخرج أبداً، جلستُ أحقق إلى الحاضرين،

وبدأ الهمس يدور، والطلاب يصرخون، ثم دخلت سيدة من الحرس الثوري، قائلة في فضاضة ولهجة حازمة:

سنذهب بعد قليل في الشاحنات إلى المطار.

خرجتُ، وضجَّ المكان بالهرج والمرج، وصيحات الاستنكار، تعالت الضجة، ولم يستمع أحد.

في طريقنا نحو المطار، كنتُ أنظر إلى الرجال المنقولين بالعشرات، عقداً، ونقباء، وجنود وطلاب، خليط من رجال قَدِموا من شتى مناطق ليبيا، شرقاً، وغرباً، وجنوباً، تحملهم الشاحنات نحو المطار العسكري، وكأننا نُساق نحو الموت، ونغادر أوطاننا كأبي حقيبة مسافرة، دون أن يَحِقَّ لنا الاعتراض عن الوجهة والمسير.

واصلت التفرُّس في هذه العيون، المكتظة بساعات الانتظار، التي لا مهرب لها سوى أن تُدْعن لسياسة الأمر الواقع، فكرت في ابني، فكرت في المنفور المؤيد والمناصر لأفكار الثورة؟ وهل هو أيضاً قد سيق بين هذه الجموع؟ فكرت في هذه البلاد المتواطئة مع الاتجاه المعاكس للريح، فظلت تمارس معها الشبق، وهي تدرك أنها في الجزء الخطأ من الجهات الأربع.

لسنا الشحنة الأولى، إذ إننا مجرد أرقام تتساقط في معادلات الحرب، حرب طائشة، لا مبرر لها سوى أنَّ ليبيا تريدُ ضمَّ أوزو لها، فتشاد ليست بلداً آمناً أو مستقراً، تشاد دولة بسيطة ومسكينة، تروح

تحت التدخلات الخارجية، وتحكمها الطبيعة الجهوية والقبلية، علاوة على أنَّ التشاديين أنفسهم يعيشون نوعاً من الفوضى بالداخل.

و قبل حكم الرئيس واداي^(١)، حكم الرئيس تمبلباي، والرئيس معلوم^(٢)، مع استمرار المعارضة التشادية المسماة بالفرولينات، التي ظلت تنقسم داخل نفسها، وتنتج بعد أي انقسام أشخاصاً يتداولون الحكم مرة، بعد مرة، أما النظام الليبي فقد كان سريع التبدُّل مع تلك الحكومات المتعاقبة ..

وصلنا للمطار، ومن هنالك تمَّ شحنا إلى الصحراء في طائرات عسكرية، توالت على نقلنا إلى حيث يتمركز الجيش الليبي، وقوات الفيلق الإسلامي، وما تبقى منها، حيث منطقة ما يسمى بشمال الخط ١٦، وفيها تسيطر القوات الليبية، إلى جانب قوات واداي على خمس مناطق تشادية، بينما تسيطر تشاد على مناطق يديرها حسين هبري^(٣) بمساندة قوات فرنسية، تقع جنوب الخط ١٦ ولديه منها ما يكفي لاستمرار القتال ...

(١) كوكني واداي، تمَّ تنصيبه رئيساً لتشاد عام ١٩٧٩.

(٢) فليكس معلوم، تولى رئاسة تشاد عام ١٩٧٥.

(٣) قام هبري بانقلاب عسكري على الرئيس كوكني عويدي، وأصبح الرئيس وزعيم القوات المسلحة في الشمال. كما قام بإلغاء منصب رئيس الوزراء وأعقب ذلك فترة من الاضطراب. خاض سلسلة من المعارك في مواجهة ليبيا بسبب النزاع على شريط أوزو بين البلدين.

كانت الهدنة تستدعي إلا تتقدم القوات الليبية جنوب خط ١٦،
فإن حصل ذلك، فإن القوات الفرنسية سوف تستعمل القوة ضد قوات
واداي والقذافي

وبعد حروب متعاقبة، سيطرت فيها القوات الليبية على أوزو -
دون مقاومة تذكر ..

قال الجندي هاشم: هل رأيتم كيف فرح بنا السكان؟
رد عليه جندي آخر: أهل أوزو ليسيون؛ لأنهم تربوا على يد العائلة
السنوسية حباً فيها.

كنتُ أعلم باتفاقية موسوليني - لافال، ولذلك تذكرت حديثي مع
المنفور، فقلتُ معلقاً على الحوار الدائر بجانبي:

- شريط أوزو شريط طولي، له نتوءات تدخل في الأراضي
الليبية، وله أراضٍ تحسب أكثر داخل الأراضي التشادية ..
ردّ هاشم ساخراً:

- نحن جئنا لنأخذ التتوءات ...
سخر الجندي الذي ينظف بندقيته قائلاً: نحن جئنا لنأخذ نتوءاً،
وتركنا بلادنا الكبيرة جداً.

سقط أحدهم من الضحك.

ثم أردف يقول، وهو يرفع بندقيته:

- مدينة تشادية، وعاداتها ليبية، هذا يجعلني أفكر!

قال هاشم:

- وفي أي شيء تفكر أيها المفكر؟

ردّ سالم قائلاً:

- إذا كنا نريد الأرض فهي تشادية بالاتفاقية الدولية، وإذا كنا نريد شعبها فهو تشادي تأثر بالعادات الليبية، وهذا لا يُبرّر موقفنا.

كنتُ أشعر أن كلمات الجندي الأخيرة كانت صادقة ومُعبّرة جداً..

إنسانياً أرى أن الشعوب ضحية الحكام، فشعب أوزو وشعب مُسلم، هم أناس يتنقلون بين البلدين، ويستثمرون أموالهم في جلب البضائع، والأمتعة بين الطرفين، وظروف تشاد الإنسانية تستحق أن يتعاطف الإنسان معها، فقد عانت ولايات الانقلابات جراء التدخل الفرنسي في أراضيها، الذي اكتسب القدرة على دعم حركات مذهبية، وعقائدية مختلفة أثارت فوضى خلاقة، تماشت مع توجهات الفرنسيين والأمريكيين.

كنا في المعارك الدائرة بشكل متصل، نخسر أعداداً هائلة من جنودنا الليبيين، وتقوم القيادة بجلب أعداد أخرى تعويضاً عنهم، وتعزيزاً لقواتها في تشاد.

وقتها كان الشارع الليبي يهمس متذمرًا، ويختزل الحقد على النظام، الذي حجب قوائم الموتى في تشاد، كره الناس هذه الممارسات من النظام، كرهوا تناقص أعداد الليبيين، كرهوا الحرب، والقتل، والموت، ورائحة الفَقْد في ليبيا.

لا أذكر متى كانت آخر مرة استحمت فيها في بنغازي ..

قال نبيل لرفيقه هاشم ..

- ربما يا صديقي منذ ستين، كأننا هنا عالقون بموجب أننا مقاتلون، وهذه الحرب لم تتوقف بعد ..
- أشعر بالقيظ الشديد، وبالتعرق، والحرارة تشتد.
- نعم، حرارة الصحراء الكبرى تصل لدرجات خيالية .. ثمة جنود جرحى في القاعدة التي سنكون فيها بعد قليل، كان الله في عونهم ..

نزلنا من الطائرة العسكرية، وبدأنا نتجهز للغذاء، غيرنا ملابسنا في انتظار الأوامر القادمة، كما أشار أحد العقداء الذين يقودون الحرب، تنقلنا بين عدة أماكن، وقمنا بعمليات استطلاع تابعة لقواتنا بالخطوط الأمامية، والخلفية، بعد أن خسرنا عددًا كبيرًا من الجنود في معركة أم شالوبة، التي ينطقها بعضهم بشعلوبة، ثم أُسر كثيرون، فطلبنا من غرفة القيادة المزيد من الدعم والعتاد ..

هنا ستقرأ على مهلك ..

المزيد من الوجوه المتعبة، والمزيد من الملامح المخطوفة من ليبيا، جاءت لتساند انشقاق واداي، وتحارب حسين هبري، أسماء أخرى تمثل توجهات تشادية لها أطماع في حكم تشاد، المزيد من الوقود البشري؛ لضخ الولاءات وكسب الدعم السياسي، المزيد من العصير البشري الأحمر، والنيبذ في أروقة السياسة، الرشاوى، وبيع الدّم؛ لتشتري بقاءك وتشتري قوة نظامك.

قال العقيد عبد الله في صرامة:

- مقدم نبيل، غرفة الاتصالات في فايا لارجوا عملها دقيق جداً، وأي تأخر في الإبلاغ لا يخدمنا هنا، يجب أن تكونوا معنا، أول بأول... من فايا لفاذا، من فايا، للسارة، ومن فايا، للدوم.. لا نستطيع أن نخذل قائدنا في وقت عصيب كهذا ..

كان النظام يُعاني ضغوطاً دولية لسحب قواته من تشاد، وقد حاول جيران تشاد وليبيا مراراً عقد عدة اجتماعات سلمية، لحل الخلاف على شريط أوزو، رغم أن محاكم الأمم المتحدة لديها قرار بمناقشة القضية، كما دعاه الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران لسحب قواته، مقابل انسحاب الفرنسيين، فوافق شكلياً، وبعد انسحاب القوات الفرنسية، لم ينفذ النظام الاتفاق، مما تسبب في طول الحرب الليبية في تشاد، وعليه عاد الفرنسيون لمساندة القوات التشادية... فأصبح جوهر الصراع في تشاد حول تغيير الأنظمة.

وهنا تصوّرت لي الأنظمة كالعقيدة، عندما يتحول الولاء لله وحده إلى شخصٍ أو جهة، لدرجة الاعتقاد به، وبأفكاره، يكبر ذلك الولاء، و يتحول إلى الإيمان بما يفكر به، فيوضع كل من يعاكس ذلك الإيمان، أو ينكره في منزلة الخائن له، أو الكافر به... ويتحول الجلاله الجدير بالعبادة ومثل العقيدة والإيمان، إلى وسيط لبث الفتاوى - التي تقول إنَّ من يعصي قائده، أو يخون النظام، فهو كافر بالله، ويحبُّ قتله .. ربما هذا ما يجعل دور الإفتاء في دولنا تحول خطبها وفتاويها إلى طابع سياسي، يكفر الناس، ويدينهم باسم الشريعة والدين... وهو ذات السبب الذي من أجله كان المئات يحاربون هنا.

ها نحن بغرفة العمليات في برجنا بمدينة فايا لارجو^(١)، القرية من وادي الدوم^(٢)، مهمتنا المراقبة، وتحويل التقارير عن سيرنا، وتحركاتنا، وكنا نوجه نداءنا لباقي غرف العمليات إذا احتاج الأمر إلى تدخل الطيران الحربي، أو قطع خطوط الإمداد على القوات التشادية،

(١) أكبر مدينة في شمال تشاد، وكانت عاصمة منطقة Bourkou. هي الآن في منطقة بوركو، التي تشكلت في عام ٢٠٠٨ من بوركو السابقة Bourkou-، ضمت ليبيا المدينة إليها في عام ١٩٧٥، ولكن استعادتها قوات حسين هبري في عام ١٩٨٠. وقد استعادتها ليبيا في عام ١٩٨٣، قبل أن تُحكم تشاد عليها سيطرتها الكاملة في عام ١٩٨٧.

(٢) مدينة ليبية تقع على الشريط الحدودي المتنازع عليه مع تشاد شهدت معركة طاحنة بين البلدين في مارس عام ١٩٨٧، وقد قتل قرابة ١٢٦٩ جندياً ليبيا، وأُسر ٤٣٨ من بينهم العقيد الركن خليفة حفر.

اختير معي هاشم العبيدي، وسالم المدني، نشأت صداقة قوية مع هاشم، وسالم، تناوبنا الحراسة والمراقبة، كل منا بحسب قدرته وتعبه، دون أن يحاسب أحدهما الآخر، وفي الواقع كان عملاً أفضل على أي حال من القتل، والتهجم على أهل الأرض.

كان هاشم متخصصاً في الاتصالات، ومرتبة مقدم، طويلاً، وممتلئ الجسم، صاحب عينين كبيرتين، سريع البديهة، هادئ الطباع، وأما سالم فهو شاب مرح، معتدل الطول، والبنية، حنطي البشرة، أسود العينين، يتحدث اللهجة الجنوبية المليحة، يعمل على إصلاح الأجهزة التي تتعطل بين حين وآخر في البرج، وأحياناً يحملونه لقاعدة السارة داخل أراضي ليبيا الجنوبية، فيقوم هناك بعمليات الصيانة، ويعود بعد الانتهاء، أحببتُ عملي كوني صاحب مقهى حرّاً، يقرأ الصحف والجرائد، ثم يقول ما يقرأ للرواد هنالك أما هنا فلم أحبّ توجهات السياسيين الذين أفسدوا حياتنا المدنية ..

بعد كل معركة كنتُ أرى جنودنا على غير قناعة بحربهم، فهي تبدو كاحتلال تشاد، وكنت أعرف أن الليبيين ليسوا قومًا عدائين، ويشهد لهم جيرانهم بذلك، فمن يزُر ليبيا يعشقها، ويعشق طيبة شعبها، وتراحمه فيما بينه، وعطفه على الغرباء القادمين للزيارة بشكل عام ...

في مارس ١٩٨٧ أيقظني صوت هاشم الخافت: نبيل، نبيل، انهض!

نهضتُ فزعاً: ماذا هناك؟

- إنهم التشاديون يتقدمون نحو مراكزنا الأمامية.
- طرت من مكاني، قافزًا إلى اللاسلكي.
- كيف يا هاشم؟ قواتنا استعادت بئر كوران قبل يومين ..
- صمت هاشم، ثم قال بحزن شديد ومؤثر:
- أيُّ استعادة يا نبيل؟ قواتنا تعرضت لمجزرة في كوران، وتم نصب كمين كبير لهم، والآن قوات واداي انضمت لقوات هبيري، ردًّا على أسر القذا في لواداي عنده، نحن الآن نقاتل وحدنا ضد التشاديين.
- كانت وتيرة الأحداث تتسارع، وكنتُ أحاول الاستيعاب، فقلت له:
- هل بلغت الغرفة؟
- بلغت فورًا، وطلبت المدد، والتقيرير عما يحصل، أظنُّ أن هنالك خلطًا في الأمور.
- خلط؟ يا رجل؟ ماذا قالوا لك؟
- قال لي أحدهم إن خطوطنا تم اجتيازها في فاذا، وأنَّ هنالك مذبحه كبيرة للجنود الليبيين ..
- يا الله! ألم تطلب الطيران؟
- طلبت ولم يردوا .. أنا قَلِقٌ على سالم أيضًا؟

- ألم يرجع في طائرة الأتئينوف؟

- ما إن حطت، حتى استدعوه للسارة من جديد في مهمة مخبرانية.

- جرب الاتصال، ريثما أحضر السلاح، سأستطلع بنفسي.

- حسناً، يا نبيل، تعال وجربها أنت ...

كنتُ أتحرك بفطرتي، والقلق يستبدُّ بي؛ لأن قوات الجيش التشادي - بزعامة هبري، وقيادة حسن الجاموس^(١) إذا بدأت في اختراقنا، فسوف تقتلنا بلا تردد...

اتصلت بقاعدة السارة كما فعل هاشم، وكررت، فكانوا يردون أن الطيران قادم، وظل الأمر على حاله ساعات طويلة من تلك الليلة اليتيمة، حتى رأينا خيط الفجر، ومع بلوغ ضوء الصباح، سمعنا أن القوات التشادية تتقدم بالعين المجردة، فإن استعادوا فاذا فعلاً، فهم في اتجاه فايا لارجو بلا شك.

وبعد أيام عصيبة جمعنا مع جنودنا أجهزة الاتصالات الخاصة بنا، وبعض الأمتعة في حقائبنا العسكرية، كي نغادر بسرعة إلى نقاط تركز أخرى لنا إن وُجدت، قال لي هاشم:

(١) قائد القوات التشادية التي ألحقت الهزيمة بقوات معمر القذافي وأسرت العقيد خليفة حفر.

- جرب الاتصال يا نبيل، لعل الطيران وصل، لعلهم في السارة يقولون شيئاً.

وبسرعة تحركت لبحث التغطية: ألو حول، نقطة فايلا لارجو تتصل، إلى السارة.. إلى السارة؟

- لا أحد يرد يا هاشم، لا يوجد رد، هل اجتاحتوا قاعدة اتصالاتنا في الدوم؟ إنها محصنة، ويستحيل ذلك. هل سنسير باتجاه نقاطنا نحو وادي الدوم؟

ولم يرد هاشم على أسئلتني المتساقطة تباعاً، كان يدور بمنظاره في الصحراء التي أمامه مترامية الأطراف، ثم قال لي:

- جرب، جرب يا نبيل.. ربما سنحصل على طيران حربي، جرب نقطة اتصالات وادي الدوم.

استجبتُ له بسرعة على أمل حصول المراد: ألو ألو، نقطة دوم، نقطة دوم، من لارجو... تكلم.

لا فائدة..

ثم جربتُ من جديد قاعدة السارة: ألو السارة. السارة..

فجاءني الصوت من الطرف الآخر: معك السارة، فايلا لارجو.. عليكم بالانسحاب.. انسحاب فوري. العدو يتقدم نحوكم...

وسقطتُ في مكاني، التقط هاشم اللاسلكي، وسمع هاشم الأوامر وفهم الصورة منهم، فأوقفني بسرعة على ساقبي، وقال بسرعة: أسرع يا

نبيل إنهم قرييون جدًّا، مسافة قصيرة، ويصلون هنا، ونهضتُ من مكاني واللاسلكي بيدي، ونحن نفكر في الانطلاق إلى حيث تتمركز قواتنا افتراضياً في الدوم، طانين أننا سنجدهم، وسوف يعينوننا على التصدي للفرق الشادية القريبة منا.

أبلغنا قواتنا بالانسحاب، وسرعان ما جمعوا أسلحتهم، وبدأ الانسحاب الفجائي الذي دفعنا ثمنه، فبحسب ما علمتُ فيما بعد، أنهم تعرضوا لأبشع أنواع القتل، لتكون مذبحة ثالثة لا رحمة فيها.

أما نحن فرقة الاتصالات، فقد ركضنا باتجاه سيارة جيب صغيرة، وانطلقنا إلى وادي الدوم، وبعد يوم ونصف وصلنا للوادي، هناك سرعان ما غمرنا التراب برائحة الموت، والجثث الملقاة هنا وهناك، رأينا الجنود الشاديين يتقدمون فرقاً وراء فرق، فرق تقاتل، وفرق تؤكد على اجتياح المساحة، وفرق تقوم بالتمشيط، مدفوعين بعربات رباعية، وأسلحة محمولة خفيفة، وصواريخ حديثة، وأغراض وأمتعة حربية متقدمة.

كانت قاعدة الدوم قد تعرّضت لاختراق في شهر مارس، من قبل جنود واداي الذين كانوا يقاتلون مع القذافي، فلما أُسر واداي سربوا أسرار القاعدة لحسين هبري، وقاموا باختراق تحصيناتها القوية، بقيادة حسن الجاموس فدمروها بالكامل، عدة، وعتادًا، وجنودًا..

انقلبت بنا السيارة إثر اصطدامنا بصخرة كبيرة، فخرجنا من السيارة، وسار كل منا باتجاه معاكس للآخر لتشتيت الانتباه، لاحقونا

وحاصروني حين كنتُ أحاولُ جذب بندقيتي، صوبوا نحوي بنادقهم،
وبدأ الرصاص يتناثر من حولي، فمضيتُ أركضُ، وأعدو أمامًا.

بعد حوالي عشرين دقيقة من الركض بين الصخور، أحاطني
الجنود التشاديين بسياراتهم، وكان هاشم في إحداها مربوطًا مع أسرى
آخرين، الدم يسيل من إحدى عينيه، ولا يقدر على مسحها، كان يحاول
تمييزي عندما دُفع بي إلى جانبه.

بدأت السيارات تشقُ طريقها نحو النقاط التشادية في فايا لارجوا،
وما إن توقفنا في أول قرية حتى تقدم نحونا جنود تشاديين، أنزلونا من
السيارة، وأقبل آخرون يتفرجون علينا في نظرات انتصار، تقدم جندي
منهم تظهر على وجهه خطوط موشومة من النار، فيما بدا بياض أسنانه
من شفثيه الغليظتين، ضربني ببندقيته، فجرح يدي، وأصاب كتفي، ثم
ركلني على وجهي بقدميه، حتى سال دمي، وانحنى وغرف غرفةً من
التراب الصحراوي الغامق، الذي انساب بين يديه في كثافةٍ عجيبة
مختلطًا ببعض الدم ..

ثم صاح بصوت عالٍ:

- يا ساقط أنت، يابن الساقطة، ما تفكر تدوس أرضنا!

كان الجندي محتقنًا، فتدخل باقي الجنود ومنعوه عني، ووقفوا بيني
وبينه، ثم قيّدوني من جديد، ودفعوا بي داخل السيارة التي بدأت تمتلئ
بأعداد أخرى أُضيفت لها .

في الطريق ، كنتُ أتذكر هذا المشهد والدموع تملأ عيني ... هذا هو
مصير الذي يحتل، اسألوا التاريخ، فأنا جربت شعوري حين كنتُ
مُحتلاً، جربتُ أبي وأمي وهما يحلمان بوطن حُرٍّ، جربت ألم الحرب،
ومأساة الفقد، جربت الندوب، ورأيتها فوق جسد أبي تقول لي: هنا
نبت الحزن فوق جسمي. كما رأيتها فوق رأس أمي، تقول: هنا شجرة
العذاب هل رأيتها تنبت فوق تلة رأسي؟

كان الدمع حريراً، وكنتُ أسيراً ... والفقد مريعاً.

الفقد، لا تبرّره الحرب، ولا تنصتُ إليه.

لا أعلم كيف تنسانا الحروب، وكيف ينسانا وجه المقاتل؟ تلك
الحروب تندثر تحت لغة الرمال، أو تطمسها روح الطين، ويبقى الزمن
شاهدًا على رائحة الأماكن التي داستها أقدام الجنود، هل قدّر هذه
الأرض أن يتقاتل الإخوة، بسبب مكائد الأعداء؟

تماهينا مع الوقت إذ سرقنا بعد معركة وادي الدوم، كانت القوات
التشادية تستعجل العودة من مواقعها هناك، وسرعان ما قامت بإحصاء
الجنود الذين قضت عليهم، وحصرت الجثث في مكان واحد، ثم
دفنتهم جماعياً بدون صلاة على أرواحهم، مجردة إياهم مما يتقلدون،
ومن الأمتعة، وأسلحة الجيب، والأوراق الشخصية.

طوى التراب العشرات من جنودنا في تربة تشاد، وردم الجندي التشادي الطرف الذي اعتبره محتلاً لبلاده، أو مغتصباً لأرضه، في مقابر جماعية كثيرة، ومتعددة الأماكن، وتقع في نقاط مبعثرة المسافة.

ربما ما فعله الجندي التشادي، هو ما كان سيفعله أي جندي آخر نحن على أرضه.

كانت معركة وادي الدوم هي الأخيرة بالنسبة لي، وكنتُ أرهفُ سمعي لجندي يقول لسيدته أمر الفصيل:

- قتلنا جيشهم يا سيدنا، واستعدنا فايلا لارجوا، فات عدد قتلاهم الألف، هذي تربة طاهرة ما نديها ليهم بسهولة...
ردّ عليه قائده:

- هذي تربة تشاد الجريحة، ما ترحمهم أبداً..

وكنتُ أتذكر بحسرة، كيف هالني المشهد المروّع لجنودنا القتلى..
ذلك الجندي الشاب الذي خرج حياً من سيارة، والنار تأكل جسده الندي، كان يصرخ من شدة حرارة الحريق ويجري، سكب بعضهم الماء عليه، كما يُسكب على مجمرة، فطشطش جلده من هول الحريق، شاهدنا البخار يتصاعد من جلده المسلوخ تماماً، وهو يصرخ: اقتلوني، اقتلوني لا أريد الحياة! فانطلقت رصاصة من إحدى البنادق، رحمة به وقد يكون الموت كذلك أحياناً.

رأيتُ جندياً آخر، وكان شيخاً عجوزاً، خرج رافعاً يديه في استسلام، فأطلقوا رصاصة على قدميه حتى سقط أرضاً، ثم أسروه مُكبّل اليدين، ودمه ينزف من سرواله ..

لا أعرف ما الذي أتى بهذا العجوز لهذه الحرب؟!

أما أحد العقداء حين كبّلوه، قاموا بتصويره أسيراً، بواسطة كاميرا صحفي يرافقهم، وطلبوا منه أن يقول: القذافي طلب منا أن نحتل تشاد، فرفض الإذعان بشدة، وسرعان ما تكلمت لغة الرصاص، فاستقرت مكتوبة فوق جسده، بلا انتظار لترجمة اللغات الأخرى.

كنتُ أتوقع أن يتم إرسال هذه الصور للقذافي.

لكل منا رصاصة رحمة في حياته

قلتها لنفسي عندما جنّ الليل، وبدأ الجنود يعدون الطعام، بلغ بي الإعياء مبلغه، سمعتُ هاشم يئنُّ من الألم، فطلبت بصوت ضعيف شفقة أحد الجنود بأن يحمله، لأقرب نقطة مستشفى، فقال لي بجفاء:

- ما عندي طريقة، سنصل قريباً للقيادة إذا غادرنا الليلة ..

ثم نظر لهاشم، وقام بجلب بعض الشاش، من سيارة قريبة، وضمدها له، حتى اختفت بقعة الدم الحمراء التي كانت تظهر، كلما لفَّ الشاش حول عينه.

راقبتُ ذلك التشادي، وهو يُضمّد صديقي هاشم، وعرفت
بيقين قلبي أنّ الإنسان الليبي والإنسان التشادي أخوان، وأهل تشاد لا
يكرهون إخوتهم الليبيين الذين عاشوا بينهم، ومعهم في جنوب ليبيا،
وإن كان ثمة مَنْ ندين له بالشكر، على تقديم شعبنا كبشرٍ يليق بهم قيم
السمو والخير، فهم أولئك السنوسيون الذين لم يتدخلوا في شأن تشاد،
وظلوا على مسافة احترام حرمة أراضيهم، وخصوصية مرحلتهم.

غفوت في مكاني، وقلبي يذهب عبر مسافات الفيا في الصحراوية
إلى بنغازي، بنغازي الساكنة سكون الموت في روعي، الغافية فوق كفّ
من جمر، سيكرها النظام لأنها لن تسكت، ولأنها مُلحّة باستمرار،
ستسأل وتبحث عن إجابة، ولن يقنعها الصمت والتجاهل، سوف
يتناقل العالم ما حصل لنا، ولن يتركونا هنا.

قطع منامي القصير، صوت الجندي التشادي يهزني، ويقول لي:

- أنت، أنت يا أخينا؟ قوم من عندك.

فتحتُ عيني، ونظرت إليه، فقال لي:

- أفك قيدك؟ تيجي تتعشى معنا؟ تيجي؟

صدمني كرمه، فهزرتُ رأسي موافقًا، وشرع الجندي في فكّ
قيدي، وقيود الذين معي، ونظرت لهاشم فوجدته تعبًا، ثم نقلت
بصري للجندي التشادي، وقلت له:

- تسمح لي أساعد زميلي؟

فردًا قائلًا:

- ياللا ياللا قم أنت معاه ..

تناولنا معهم العشاء، وقدموا لنا الطبخ التشادي المخفف، والماء،
والخبز، والشاي الأحمر، والبيض المسلوق البارد، والجبن.

قمنا نرفع معهم فضلات الأكل، نظر بعضهم لبعض، ثم تركونا
على سحبتنا، وبعد الانتهاء طلبتُ من الجندي الذي فكَّ قيدي، أن
يسمح لي بالنوم دون قيود، فذهب وعاد بعد قليل، ليقول لي:

- أصحابك تفكر تهرب، علشان ما تندم، راح تنام هيناك!

وأشار إليّ لما يُشبه الخلاء، المحاط بالأروقة التي أعدها الجنود،
جلست في المتصف، ولحق بي الذين معي، وبعد قليل كنتُ أسمع
ضجيج سيارات قادمة، فنظرت من الرواق ورأيتُ الكثير من
السيارات تقودُ أعدادًا كبيرة من أسرى ليبين، نحو المعسكر الذي
شيّدوه قبل ساعات في الخلاء.

في الصباح أعادوا ربطنا بعد الفطور، وصعدنا سيارات التويوتا،
غادرنا إلى أقرب قرية شاهدنا فيها التشاديين وهم يصطفون لملاقاة
قواتهم، بعضهم رحّب بنا بإشارة من يده، وبعضهم شتمنا، وكان
شعورهم مُتفاوتًا وطبيعيًا في نظري حتى لو وصل لإعدامنا؟

بعد حوالي نصف ساعة من المسير البطيء كنا أمام بوابة كبيرة،
ومنها إلى ساحة كبيرة، أدخلونا إليها، كان الحراس شديدين معنا،

فضربوا أجسادنا بكعوب بنادقهم، ورشاشاتهم، ودفعوا بنا في قسوة ضارية، ثم غابوا فترة طويلة، أظنُّ أنها بلغت يوماً ونصفاً، ونحن بدون قطرة ماء واحدة.

السجن أكبر نقطة دالة في الحروب، يصلها الجندي ويستحيل عليه أن ينساها، هي الأسر، والعذاب، القيد، والجدران، والألم، الاغتراب الحقيقي بين أربعة جدران، الفقد والحرمان، الإقصاء والبقاء في مدن الظل، برائحة رطوبة الزمن التي يحفظها السجن دون أن تنتهي مدتها، حتى كأني شممتُ ذكريات الأسرى الذين قبعوا فيه، حين دخلنا للسجن، فتحوا قيودنا، وأوصدوا علينا الباب الكبير، بقيت ساعات أُحدِّقُ إلى الظلام مرهقاً، غريباً، مُتعباً، تنهياً لي صور وشخص آتية من بعيد.

- أهلاً بك في السجن يا سيدي.

نظرتُ إليه، وهو يتناول علبة سجائره، ويتأملني بعمق، وأسف، ثم عاد يقول لي:

- ها قد جربت مفهوم الاحتلال الآن!

أرهفتُ سمعي إليه، والتعب يأكلني، ثم قلت له ببطء:

- كنت تعرف أنني غير راضٍ عن سلب ما ليس لي .

نظرَ بعيداً ثم قال:

- وهل يملك الجندي القرار؟ هأنت تُسلب منه، بأمر قائدك، إلهك.

- ليس إلهي، ليس خياري الأمثل.

- في الحرب، يفقد الجندي خيار حياته، بموجب قسمٍ على البندقية.

: أنا الآن أسير.

نهضتُ، وجلستُ بقلقي، فقال لي:

- إما الطرد، وإما السجن، وإما الموت، تلك هي رهانات صاحب الأرض على المُحتل.

نظرتُ إليه متسائلاً، وقلت في تعبي:

- وفي رأيك علامَ يُراهن المُحتل يا جمهور؟

نفث دخانه في وجهي، ثم ردَّ بنبرة هادئة، لم أنسها، وهي ترسل كلماتها في أذني:

- المحتل ستظلُّ رهاناته خاسرة، حتى الوقت سيظل ينفد منه، ما دام كذلك ..

وفي شغفٍ لمعرفة الحكمة من ذلك، سألته:

- هل تعرف السبب يا جمهور؟

ردّ ببساطة قائلاً:

- الأماكن لها سطوة نبذ الغرباء يا بيللو ...

ثم غاب في رائحة السجن الرطبة ..

كان ردّه حقيقياً ومفعماً، جعلني أتوه في جدليته وخصوصيته،
وأدركُ فعلاً، أنّ لكل شيء سطوته، وهذا التراب الذي ليس تراب ليبيا،
سيلفظنا ما دمنا غرباء ومحتلين.

عندما سمعتُ صوت صرير الباب الشديد، شعرته كأنها يغلق
فتحة زمنية دخلتُ للتو فيها، أو كوة ذات هاوية سحيقة، رموني
داخلها، فبقيتُ في ذلك الجب سنوات أعاشر لغة الصمت، دون أن
أقدر على إزالة تراكم الأتربة، من جسد السنين الباقية من عمري.

ضوءُ العنُ به ظلامُ أيامي

هذه أنا ...

أنظر إليك كجسدٍ يتحرك بتاريخ، تاريخ يحمل أوزار الحقب
الزمنية، يختزل ثلاث منظومات حرب في صدره، حرب الطليان،
وحرب تشاد، وحرب هذا الربيع، التي آلت لأحوال خريفية، لم نعد
نفهم أنفسنا فيها ..

أفكّكُ اللغات لأعيدَ ترتيب منظومة كلماتي، حين تكبر في
حضرتك المعاني، ويزهر الياسمين والجوري، والتوليب من جوف
قلبي، أنضوي تحت راية البياض يمامة، تهدل بأغنيات الحب، ترفرف
فرحًا؛ لأنها تسمع أخيرًا حفيف جناحيها، أنظم عقودًا من القصائد،
أطوق بها جيد أيامي، فأراها تتلألأ في وميضها بك.

يا أنت ...

يا مَنْ تُشبه لهجَةً مَنَسِيَّة، في لغةٍ مُندثرة بأزمنة الغياب، ها قد امتدت روحي الباسقة إليك، فتعلقت بأغصانها، وسموت للسماء، ترنو زمنًا للفرسان، زمنًا يعيد ترتيب حياتنا، ويصالحنا معنا، يسكب أمنيات البذور المغمورة تحت الطين؛ لتخرج مزهرة ذات مطر رحيم، ها قد عدتُ إلى نفسي، روحي، وقلبي، أرتبني وفق إحداثيات وجودك، فأنت من الماء تغمرني بالماء، وأنت مَنْ يكفُّ عني الحريق.

يُشبه دخولك في حياتي فتح الأندلس؛ لأنني في داخلي أشبه أنثى رسومها موغلة في العمق، تبدو لغزًا، غامضًا، ومُحيرًا، وها هي تُسلم روحها، ومفاتيحها لمن تنبعث روح السلام من قلبه.

كان مجيئك لي، وعودتك من أزمنة ردمها الغبار، وتناساها التقويم الميلادي، بداية لاسترداد روحي الضائعة مني، وعودة سنوات من غيابي عني، ومن رؤية وجهي في المرأة، سنوات تفككتُ فيها، وتشردمتُ، حتى اخترتُ مُدن الظل والسكون، سنوات طمس فيها واقعنا المتخلف شخصي، واندثر حلمي وراء النظرات التي ترفضه، وتُحدِّجُه، كلما حاولت المشي نحو واقع أجمل، تعثرت بعادات هذا المجتمع الرجعي، وصُدمت بالغول الاجتماعي، الذي يأكل سنة عن سنة إنسان المرأة، بلا هوادة ..

وفي سنوات عزلي ووحدي، كنتُ أظن أن الودَّ للأُنثى، هو نهاية دورها وتفاعلها في مجتمعنا الغارق في التشخيص والتنظير لنظريات التراث، ومع مرور الوقت اكتشفت أن دفن الأُنثى هو مرحلة زمنية

تنتهي بموتها، وبدخول اسمها لسجل الأموات، اكتشفت مراحل أشد ضراوة عليها، وأكثر قسوة، وأصعب تعريفاً، مرحلة أن تُقيد وهي تتنفس، تُطوى كورقة وتُدس في جيب الرجل، ذلك الذي يتشدق دائماً بالخوف عليها.

لم يتغير الأمر في ربيع فبراير عنه في عهد سبتمبر، ما زالت نظرة المجتمع دونية، وما زالت الحكومات تتعاقب وتُجدد لنفسها، وتظاهُر أمام العالم بأنها تُناصِرُ برامج تمكين المرأة، بينما هي غير قادرة على حمايتها، وكم من يمامة أُغتيلت! وكم من نخلة رُميت بالحجارة! وكم من أنثى تمّ الاعتداء عليها واغتصابها! وكم من عصفورة تزقرق قطعوا لسانها!

كنتُ أكتبُ القصائد والخواطر والقصص والأفكار على فيس بوك، وأهتمُّ بمعاناة الناس، وأواسي النساء اللاتي فَقَدْنَ أزواجهن، وأولادهن في هذه الحرب التي طال أمدها، لكنني في داخلي ما زلت أشعر أنه دور ثانوي، وأحتاج لأن أفعل أكثر من ذلك، من أجل حياة كريمة تليق بالمرأة في بلادنا، فبعد أن كان أيام سبتمبر بين قوسين، أصبح في ربيع فبراير بين علامتي تنصيص.

قل لي أيها الحبيب

ما الذي يختلف في هذه المواقيت الصعبة؟

لا شيء يختلف، إلا بك أنت
نعم أنت.

كم يبدو من الإنصاف أن تهبني السماء مَنْ يستحق هذا القلب
المرهف! وكم يبدو من الإنصاف أن يرسل الله ملاكًا مثلك! يعرف
كيف تكون لغة الخطاب مع الأنثى، ويدرك أنها نصف مكمل له، وكم
يبدو من الإنصاف استعادة روعي الضائعة، في هذا الزحام، لأبدأ على
يديك في التحليق عاليًا، في سماء الحلم، صحيح قد تبدو مليئة بالغيوم،
والوضع في ليبيا لا يسر، أمضي وبقيني بأن يدك لن تترك يدي، هو
مفتاح أفتح به آمالي في الحياة ..

كم يلهمني وجودك! يبعثني رسالة أو نبية للشعر، يجمع الأشلاء
الممزقة داخلي، يُعيد ترتيبني من تاريخ الميلاد الأول، ساعة الصرخة
الأولى، إلى تاريخ الانعتاق والتحرر، من القيود والتخلف، وإرث
الأنثى، كم أريد أن أكون أنا بك، وأن أكون هي فيك، وأن أكون نفسي
معك، ومع كل من حولي! سأغير وأعود أنا التي يجب أن أكون عليها،
والتي تأخرت جدًا على أن تكون كما كان يمكن أن تكون ..

ترى كم نحتاج من الوقت، ليكتشفنا أحدٌ يليق بنا؟ ويرتكننا
باقتراف جميل، وبتعاطٍ مدهش للحياة.

كان الباب قد طرق، حين كنتُ أُعدُّ السَّلطة المفضلة لديك، والتي تتكون من تشكيل نباتي، اخترعتها من بنات أفكاري، وهي عبارة عن زبادي حامض، ومسحوق النعناع، وليمون، وملح، وخيار مبشور.

لا أعرف هل نسيتَ مفتاحك؟ أم أنك تحمل شيئاً بين يديك؟

هُرعتُ لفتح الباب لك، وكنتَ أنت، كنتَ بيسمتك المتوسطة التي تقف عند خط المنتصف، لا تكمل طريقها نحو نواجذك، وكنتَ بذات الملامح الدقيقة، كرسم لدافنشي، أو كلوحة - تحاول فرشاة بصري - أن تقرأ ملامح التيه فيها، كنتَ ترتدي قميصاً فضفاضاً، وبنطلوناً رمادياً، وكأنه كان لديك عمل يستحق الجلوس على الأرض، فأنا أعرف كيف تختار ألوانك حين تخرج. تالقت أعيننا، وتلففتُ منك كيس الخبز ..

- الزحام شديد، الطابور انتهى تَوًّا.

- منذ متى خرجت من الهلال الأحمر؟

- منذ الحادية عشرة، انتقلت مجموعة الهلال لمنطقة قريبة من بوعطني؛ لانتشال جثث تم الإبلاغ عنها.

- حسناً عمر، سيكون الغذاء جاهزاً بعد أن تغتسل وتصلي.

- تمام، أحبك، سنتحدث.

وقدفتني بابتسامة، فكدتُ أقع من طولي ..

بالوصول لفرابر ٢٠١٦ تم تحرير عدة مناطق من بنغازي، ومنها مناطق كبيرة أهلة بتعداد كبير من السكان، وقتها زاد ضغط الجيش

الليبي على الجماعات التي ترفض قيام الدولة، والتي تتنوع في توجهاتها، وأيدو لوجياتها، فحُشِرَتْ غرب بنغازي وشمالها، وصار مكانها محدودًا.

بالمثل كانت طرابلس ترزح تحت حُكم مجموعات متعددة التوجهات، وحكومتين، وكان الخناق ضيقًا عليها، فلا حرية تعبير، ولا موارد غذائية ثابتة، ولا كهرباء مستمرة، حتى تصورت لي طرابلس كعروس اغتصبت اغتصابًا جماعيًا، من تلك الجماعات التي عاثت فسادًا فيها، وسلبت مقدرات ليبيا من بطنها ..

سَمْنَا كوننا شعبًا رحلة العذاب، وتَعَبْنَا من عدم استقرارنا، منذ عشرات السنين، كلما نهضنا وتمسكنا بضوء شمس، هاجمتنا الغربان من كل مكان، فكنا رثًا للحزن، وكنا رثًا للألم، وكنا مسيرة نضال، نضال مخرج بالدم، طريقه معبدٌ بالصراعات على بلد يعوم فوق بحيرة من النفط، لا يملك مواطنوه قوت يومهم منها.

أريدُ لهذا الليل أن ينتهي، أريدُ للطيور المهاجرة أن تعود، وللنسوة الحزينات أن يعبرن الشارع وهن آمنات، أريدُ أن أضحك ملء قلبي، وأتشق أمام العالم بأن ليبيا تتعافى، أريدُ أن أرفع صوتي لتسمعي الدنيا، وتراني امرأة سعيدة، تكتبُ بفرح، وتقولُ قصائدها وهي واثقة بأن نوافذ البيوت ستُفتح، وأن هذه الأبواب الخائفة، والمغلقة، ستعود لتظل مُشرعة على مصراعيها.

- لماذا نُصرُّ على المرور بتجارب غيرنا الخاطئة؟

سألتُ عمر هذا السؤال، وأنا أعدُّ الطاولة لتناول الغذاء البسيط.

رفع عمر غطاء الإناء الخاص به، وهو يقول لي بصوته الجميل:

- ما الذي قرأته، حتى تسأليني سؤالاً كهذا؟

- قرأتُ كتاب الثورة الفرنسية، وكنتُ أتساءل: لماذا نحن ننسخها لدينا؟

- لأننا شعوبٌ تقرأ؛ لتتصدق بأسماء من قرأت لهم، لا لتتعلم من تجاربهم.

وضحكتُ قائلة:

- لا تنسَ أننا دولة مبتدئة في كل شيء، مثلاً الانتخابات تجربة جديدة في ليبيا.

نظر عمر إلى بغمزة عين قائلاً:

- ليبيا نشأ فيها أول برلمان عربي يا إناث، أين أنت من تاريخ المملكة؟ كان لدينا أفضل مجلس نواب، وحكومة قوية، وجاء عهد سبتمبر فعدنا للوراء عقوداً من الزمن، عدنا إلى عصر الاحتلال الطلياني، خليفة الاحتلال العثماني.

كان الحديث معه شائفاً، فكم أحبُّ هذه الأحاديث التي أريدها في قنواتنا الإعلامية، القنوات التي تُمثل الوطن فقط لا غير! ثم قال:

- انتبهي، نحن لا نكرر أخطاء الثورة الفرنسية، بل نكرر كذلك أخطاء الجيران.

- مثلاً يا عمر؟ أعطني مثلاً!

- تجربة مصر في الأحزاب، كان علينا اختصارها، وكان علينا ألا نخوضها أصلاً لنوفر الوقت.

- صحيح، أنفقُ معك.

- تجربة العراق الشقيق، كانت واضحةً وجليّةً، وكان يمكننا تلافي أخطاء كبيرة، بمجرد دراسة الحالة العراقية، وتجربتها بعد نظام صدام حسين.

- وهذا كفيلاً بماذا؟

- إناث عزيزتي، هذا كفيلاً بأن يقرأ العرب درساً اسمه: (رسالة المبعوث الأعمى للعرب)
وقلتُ مُناوشةً:

- وتجربة إناث؟

أحسستُ بعمقِ ضحكته، كأنها قادمة من زمن بعيد، تُعيد وتكرر على أسماعي اسمي، وتقول أفيقي، أفيقي يا فتاة، أنت تعيشين مفهوماً جميلاً وخلاقاً، تتحدثين إلى رجل ليبي حقيقي، رجل ليس بدائي التفكير، لا يحمل على كاهليه إرث القبيلة، ولا تعصّب المجتمع، ولا أنانية الذكورية، التي لا يُسعدُها تقدّم المرأة عليها.

- إناث أنتِ لست تجربة، أنتِ حلمٌ وهبني الله إياه حقيقةً، عندما كنتُ أتلو صلواتي ودعواتي، في أثناء عبور غيمةٍ تستعدُّ للهطول، ويبدو أنها أمطرت!

لا أستطيع أن أنفي أن الحديث معه جميل، شائق، يشبه مذاق
النوتيلا .. أو ربما يشبه مذاق خليط أعدّه لنفسي، حين أتناول قهوة
سوداء، مذاقة بها قطعة شكولاته سوداء ..

يُصيّني ذلك بالهوس، ربما حتى الشغف بالهوس.

هنالك أحاديث جميلة تختار مَنْ يقولها، وتختار مَنْ يحضرها،
فالأحاديث تحسّ مثلنا باللغة والجمال، وتختار مَنْ تسمع وتعشق
أصواتهم، ربما لترى نفسها كيف تسري على تلك الألسنة الذواقّة في
التعابير، وربما كي تتجدد روعتها بحضور أرواح تُجيد تعاطيها، وربما
لتقول لبعض الناس: كم أنتم لائقون لحوار بعضكم لبعض!

هنالك أحاديث حزينة، تعرف أنها ستختار قدرها في بعض
القلوب، التي تنبض بالألم، لكنها بصعوبة تجد مَنْ يسمعها، فهذا النوع
من الأحاديث يحتاج إلى أناس قلوبهم تتسع كالبحر، وتمتدّد كالطريق
الطويل، ربما لأن الألم يختار الصبورين، يختار الذين يفقدون خياراتهم،
نتيجة معاكسة الحظ لهم ...

هنالك أحاديث تُشبه مَنْ نحبهم، رقيقة وجميلة، راقية وأنيقة،
تقولنا ببساطة، وتختصرنا في نجمة، كأنها تقول للحبيب: أنت الوحيد
الذي يلوح في أفق سمائي.

ناشدتُ عمر باسمه قائلة:

- هل لي بطلبٍ صغير؟

- تطلّبين؟ بل قولي: هل لي بأمر؟ فلا أحد جدير بالانتصار عليّ
سواك يا إناث.

- ههههه، أنا أريد انتصارًا واحدًا يا عمر، أريد أن تتوقّف عن
مناداتي بهذا الاسم الذي وهبني إياه!

اندهش عمر، ونظر لي بتعجّب، وسارع بشرب كأس من الماء
القريب منه، ثم تناول المنشفة، وبدأ يمسح يديه، شفّتيه، ونظراته لا
تحيد، وكأنه خاف أو توجّس، لا أعرف؟ أنا أحملق فيه، يرتبك، ويقول
بنبرة غامضة:

- لماذا؟ هل هناك شيء أغضبك مني إناث؟

- لا يا عمر، أنا سعيدة بك، ومعك.

- لم أسألك عن السعادة إناث، قلتُ لك: هل صدر مني ما
يغضبُك؟

وشعرتُ بالغضب:

- وهل طلب صغير كهذا يعني أنه ثمة إشكال بيننا؟

- لا طبعًا، ولكن لماذا؟

- عمر أريد أن أعود أنا هي أنا، أقصد...! آه، لا أعرف كيف
أشرح لك!

- هيا قولي، بأي لهجة ولغة تعجبك، الفكرة أنك تريد أن تكوني

نفسك؟

- آه نعم، عندما حباني الله بك، بدأت أستعيدُ ثقتي بنفسي، حرיתי الفكرية، ثقافتي، تعبيري، حراكي، خروجي.

- صحيح، وأعجبك الاسم، وغيّرت صفحتك لإناث، والآن؟

- أعجبني الاسم لأنني كنتُ ضائعة، وشعرتُ أنني أحمل هموم نساء كثيرات، أكتبُ عنهن، عن ألمهن، حزنهن، معاناتهن، عن استلاب المجتمع لحقوقهن، وكنتُ أنا معهن، كان وسيظل الاسم وسيأ. لكن؟

(وكنْتُ أعلم أنه ذكي في حوارِي، حتّى أنه يلتقط شفرة الحوار؛ ليجعله لا يبدو مملاً، بل سريعاً مقنعاً، جميلاً وفاعلاً)

- لكن حاجتي لاسمي سمر، هو شعور نابع من استعادي لأمني الذاتي، وتوقف الاستلاب عني، هي إتاحة عودة روحي المفقودة لي - طوال سنوات معرفتك لي وأنت تنادينني إناث من نافذة الدردشة بفس بوك، لبسني ذلك الاسم، كنتُ أستشعره، وأكتبُ عنه، وأتكلّم، وأتواصلُ مع مؤسسات دولية، ومواقع عربية كي يروا ما نعاينه ويتابعوه....وب...

لم أكمل...

وجدته ينهض من مكانه، وقد احاطتني يداه من وراء الكرسي الذي أجلس عليه، كانت دموعي تهطل، وعَبَرَتِي غصٌّ، وكنتُ أحتاج لأن أعود إلى معاقل روحي، كنتُ أريدُ سمر تلك المولودة على القهر أن

تعود هنا، أن يُطلق سراحها مني، ومن مجتمعتها، وتصنع نفسها من جديد، ما دام الله قد أنصفها بإنسان حقيقي كعمر.

همس لي:

- حاضر، أعدك بذلك يا سمر، إنه اسم جميل لو تعرفين، ولكن إناث يخلب لُبِّي، ويربكني، يجعلني أتوطن فيك أكثر، ثم هل رأيت هذه المصادفة العجيبة؟

همستُ له بصوت خافت - وأنا أرفع رأسي إليه:

- وما هي؟

- أنا وأنت، عمر وسمر، بيللو وإناث.

تنهّدت لكلامه، فهو صحيح، وربما هنالك شعب كامل يُعاني هذا الرّثم، الذي يجعلنا نهرب يومياً من حياتنا الواقعية، بطرق أخرى، وثمة من فقدَ عقله تماماً، في مكان آخر...

- نعم، عمر نحن صنيعة واقعنا، وجسد يتكلمه ببساطة، أصحاء كنا أو مرضى!

وقاطعني عمر:

- سمر، أحبُّ هذا الحوار الفاتن... لكنني ما زلتُ الفتى بيللو، وبينني وبينني لا أراك إلا إناث. اسمعيني. تعالي ننتقل إلى المطبخ، لنته هذه الصّحون، ثم نتحدث أكثر عن الماضي والتاريخ.

وافقتُ وأنا أقول لنفسي لأَكُنْ سلسلة، فهو لا يتذمر بل يمرر الأمور بسهولة.

تعودنا حين نأكل أن نرفعَ الصحونَ برقّةٍ وأناقة، ونغسلها بلطف - وهذه المرة وفي أثناء رفعنا لها كلانا انتبه للصحون - التي كانت تدخل في نطاق الحوار، كجزء أساسي في حياتنا، نتيجة عِشقنا لهوس الأماكن المكتظة بها، ومذاق الحميمية في وجودها القريب منا، نخرجُ ونعودُ فنجد هذه الأشياء، الطاولة، الكرسي، الأباجورة، الأريكة الحمراء، الصحون، فناجين القهوة، الملاعق، المدونات الملقاة هنا وهناك، وحتى الأقلام، كلها بانتظارنا كي تمارس معنا شبق الحياة - تحضر ثرثرتنا الجميلة، تسمعها ونحن نمررها تحت الماء لتغتسل .. أشياء وتفاصيل لا تغادرنا، لأننا نزدادُ روعةً في وجودها.

قضينا أنا وعمر وقتاً طويلاً في الحديث، اتفقنا من خلاله على أن أعود للعمل معه بالهلال الأحمر، حتى يتسنى لي أن أساعد أكثر، كنتُ قد مررتُ بتجربة هلالية قُبيل قيام فبراير، وانقطعت عنها بمجرد سوء الوضع ٢٠١٣، وكثرة الخوف عليّ من أهلي.

تحدثنا عن قصص قديمة، تحدثنا عن بعض السكان الذين قضوا نَحْبَهُم جراء القصف العشوائي على أحياء بنغازي، عن المخطوفين الذين يعثر عليهم الهلال الأحمر، عن بعض الأسماء التي ذهبت لتشاد، ولم تعد، كان السكان كلما سمعوا عن جندي عاد إلى ليبيا بعد سقوط

النظام، وشارك في حرب تشاد يأتون، ويسألونه عن أسماء أقاربهم، فيدُلُّهم على مَنْ يعرف منهم، ويرسلهم إلى عناوينهم؛ لأنهم يعرف بعضهم بعضًا بأي الولايات كانوا يقيمون.

قُرابة الرابعة مساء بدأت أولى نوبات انقطاع الكهرباء، والتي سبَّها بعض الجيران بالقهر جاء تعبيرًا عن سأمهم وتعبهم، وسوء وضعهم النفسي، إذ يستمر ذلك ساعات لليوم التالي.

اقترح عمر في هذا المساء أن نبيء عشاء فاخرًا يتكون من بيتزا وشاي، وثمة دورق ملأته أيضًا بالقهوة، لأن الأبريق لم يظهر لي في هذا الظلام الدامس، حمدتُ الله أن أنبوب الغاز، يكفي لطهو البيتزا بفرن الغاز، هذا عشاء فاخر في ظروف التقشف هذه، وكيف لا يكون فاخرًا، ونحن متحابان، متفاهمان، حتى على اختلافنا.

ارتديتُ بنطلونًا خفيفًا، وقميصًا بدون كُمّين، وكان عمر يرتدي قميصًا أبيض، وبنطلونًا أزرق اللون. حدثتُ إلى عيون العتمة، فوجدتها تستغرقُ في المحيط الذي نحيا فيه.

قلتُ لعمر:

- في هذا الوقت يا عمر، تُصارعُ دولنا العربية العالم لتحصل على أمنها، واستقرار المنطقة، ولكن يؤلني هذا الحرق للأثار والمقدرات، والمراكز الثقافية، وهذه بنغازي يا عمر، لم تسلم من تدمير هويتها الثقافية، ومعالمها الحضارية، خاصة سلسلة المقاهي، وواجهة شمال بنغازي، والمعالم التي تعبر عنها كونها مدينة قديمة.

أجابني عمر الذي جلس مُتَكِنًا للحائط، فقد فضلنا أن نفترش الأرض بعد العشاء.

- بالتأكيد، لأن الاستلاب للآثار، وحرَق الهوية الثقافية في بنغازي، وفي سوريا، وقبلها العراق، وفُعل بذلك في ليبيا الآن، هو دليل واضح على قطع الصّلات بالماضي وبالتاريخ.

- وهل تظن أن ذلك ينجح؟ الاستلاب في وجود التراث؟

- ينجح إذا كان التراث هو أحد الأدوات.

- لماذا؟

- لأن من الأساليب التي يُحارب بها الإسلام، هو التخلص منه كإرث ديني، ونقله للإرث الشعبي عن طريق ابتداع المزيد من البدع، وتحويل تفسيراته لظواهر اجتماعية يتلاعب بها العوام كما يريدون.

- بمعنى؟

- يُصبح متداولًا، ومُتصرفًا فيه دون الحاجة لقدسيتها، أي يمكن حتى لآية قرآنية أن تجري مجرى بيت الشعر، أو مجرى جملة مديح، أو حتى سباب بين اثنين، بحسب الآية، وهذا بدأ يشيع.

- آه أنت تتحدث عن التفكيك اللّساني للقرآن الكريم، يحاول بعضهم تسهيل لغة القرآن، داخل لغة الشعر، والمأثور، وتعاطيه كأحاديث العوام، بغرض تحويله لموروث شعبي .. مع العلم أن هناك تصادمًا بين المفاهيم، في واقعنا الآن.

- كيف يا حبيتي؟

- مثلاً نحن في النص القرآني مقيدون بمجموعة من الأحكام، بحسب الشريعة الدينية، الحداثة غيرت كثير من المفاهيم، وصار هنالك اصطدام بينها، وبين إسلامنا، انظر مثلاً لدلالة ملك اليمين في القرآن، يقابله مفهوم السَّبية و الأمة ، ولأن السبي الآن هو الأسر ، فإن الحداثة تدين عبودية المرأة للرجل، وتطالب بحريتها، وقس على ذلك بعض الآيات التي اشتملت على أوامر مثل: واضربوهن، الضرب ترفضه الحداثة بموجب قانون مدني، يمكن للمرأة بناء عليه أن تشتكي ضد زوجها، وأختم شرحي لك، بأن الأحزاب، وتجارب الديمقراطية تساهم في تشتيت مفهوم الإسلام، فبموجب عقودها التأسيسية تتحول إلى ديانة سياسية، لا أبرئها مما نحن فيه.

- لهذا السبب صمدت الملكيات في الربيع، ولم تتزعزع قط؟

- هذا سبب كبير، فالملكيات تظل أقرب للإسلام من الجمهوريات.

فجأة علت أصوات في الشارع الذي نقيم فيه، وتلاها قصفٌ عالٍ ومدوّ، ثم تلاها صوت رصاص متتابع، قفزنا أنا وعمر من مكاننا، للنوافذ لإغلاقها، وأغلقها عمر وهو يدفعني ويقول لي:

- قد يُصيبك رصاص طائش، سمر ابقِ بعيدة للداخل ..
للداخل حبيتي.

عُدنا لمكاننا جالسين، كان عمر يتمتم ويقول:

- يا لهذه الحياة، يا سمر، أَلن ينتهوا من مَصِّ دمنا؟ أَلن يتوقفوا
عن هدر أعمارنا؟

انتهت له يقول اسمي بتلقائية، سرعان ما استجابت أعماقه النبيلة
الجميلة لطليبي، وكأنه يخلصني من ترسبات الزمن في داخلي، ومن بقايا
ما عُلِقَ في روحي من أصفاد، يُحرِّرنِي من قيودي، من قاعي الغارق في
الاستلاب أيضًا. اقتربتُ منه أواسيه، فيما ظلَّ صوت القصف مستمرًّا،
وعلى ما يبدو أنَّ اشتباكات ستحدث بين الجيش، والجماعات الخارجة
عن نظام الدولة.

قررتُ أن أفكك أضرار حزني، وأغسل ذاكرتي من هذه الصور التي
تطر فوقها، قررتُ أن أنسى سنوات الحرب التي نبتت في داخلي
كشجرة عشعش فيها الألم، وأن أسندَ رأسي إلى الرجل الجالس قربي،
أحاول أن أهبه ابتسامة تُسرِّي عنه، وتُنسيه رحلة الألم القدري المفروضة
علينا جميعًا.. قبَلت جبينه وقلتُ له:

- ما رأيك أن نرقص سواء على ضوء هذه الشمعة؟

- ولم لا يا سمر؟ ما دامت هنالك شمعة تهب قلبها من أجلنا. أي
الرقصات ستختارين في ظل وجود مجلسين، وثلاث حكومات؟
وميليشيات؟ وجيش؟

- هذا فظيع يا عمر، لم يحصل في تاريخنا المعاصر أن تتحول دولة فعلياً إلى رقعة شطرنج!

- يا ه .. كم أنت دقيقة في بعض توصيفاتك!

نظرتُ إليه على الضوء الخفيف الذي ترسله الشمعة بكرم، رأيتُ حزنه العميق، نظرته الشاردة، دمعته الخفيفة، التي بدأت تنساب كقطار اعتاد سكة الحزن اليومية، لمست كفيه، وأسندتُ رأسي إلى كتفيه.

بقيَ عمر يُحدّق إلى الفراغ المعتم قليلاً، يبدو معبأً بالأسئلة أكثر مني كزوجته. ما هذا الحزن والألم الذي تغرق بلادنا فيه، وتسحبها رماله للغوص داخله؟ ما أقسى هذا الوضع الجامد على صورته منذ سنوات، وكأنه صورة مُحَنّطة لم تتغير ملامحها بعد!

نهضتُ فجأة، وذهبتُ للمرأة المقابلة في الصالون البسيط، وعلى ضوء الشمعة حسّنتُ من شكلي، وشربت كوب ماء، ثم اقتربتُ منه وافقة وقلتُ له بطريقة مسرحية:

- فكّر أنت، في هذا الوضع الحرج الذي نحن فيه، الطريق ضائع من مسارب الضوء، البلاد سكرانة تترنح في سيرها، الناس تعاني، الدولار يرتفع، الوضع المادي حرج، الدخلاء عبثوا بالبلاد، الخونة والعملاء كثروا وجلبوا المزيد من المشكلات، إننا فوق طاولة المزداد العلني يا سيدي .. فهل من رجلٍ شريف يمنع المزداد؟

ردّ عمر بطريقة أكثر مسرحية قائلاً:

- الشرفاء كُثُر، لكن الطريق مليء باللصوص والكلاب يا سيدي.

- إذا سيتكاثر الذين يراهنون على بيع لييا. فبأي الرقصات تقترح أن نبدأ يا بيللو؟ هل ستختار رقصة الديك المذبوح؟ هل ستختار الفلامنجو؟ أم تختار السلو بكل خطواته؟ أم تختار التانجو لتختصر كل شيء؟

كان بيللو بمحاذاتي، وقد نهض يمسح عينيه من الدموع.. أحاط خصري قائلاً:

- هذه إناث الشهية التي أعرفها، تسألني أي الرقصات سأرقص؟ تعرف أنها تسألني السؤال السهل الممتنع؟ درتُ معه خطوة أماماً:

- لم هو سهل ممتنع يا بيللو؟
رأيت ابتسامته:

- لأنك وضعت الاحتمالات القاسية، ونسيت الخيار الجميل؟
ابتسمتُ له:

- وما هو؟

- زوربا.. نرقص رقصة زوربا، يا فتاتي، لولا الأمل ما رقص زوربا.

- آه كم أحبُّ كلامك المهدي من عند الله، سبحان مَنْ أودع فيك
سِرَّه!

- الحمد لله، إن هذا العبور نحو الضوء، لم أصل إليه بسهولة.
همستُ:

- تكلم وحدثني عن المزيد، ونحن نرقص زوربا.
- التجربة يا إناث حين تمتلئ بالنضال، وتتحول إلى التحام
يومي بالمعاناة، والتصاق قوي بالألم، وتلازم متوازٍ مع حزنها، من هناك
يُشرق الضوء، ونرى الأمل.

- هل تقصد من قمة الحزن؟

- نعم من قاع الحزن يأتي الضوء، ومن تربة الحزن يزهر الأمل،
ومن تلال الحزن يشرق القلب.

كان زوربا يجتاحني ضوء الشمس لحقول القمح .. اجتياح
المطر للأراضي العطشى للماء.

كنتُ أستاذُ برأسي إلى كتفيه، وكانت خطواتنا بين حين وآخر،
تتباعد ثم تتقارب، أفلتُ نفسي منه، وأدور حول نفسي كبجعةٍ تحاولُ أن
تتحرَّر من قيدها، أرنو لضوء الشموع، أرنو للمرأة، أرنو إليه، أرفع
ذراعيَّ عاليًا... أفتحهما في أملٍ، كطائر ينشر جناحيه، كنتُ أستغرق في
عالم زوربا الذي بدأ يصنع سعادته، مهما يُحيط به من ألم، رأيت كل شيء
يضيء به، يتغير لونه للوردي، والأبيض في وجوده، رأيت الملاعق

ترقص معنا، الصبحون تنظر إلينا، والكراسي تزيح نفسها لتوسع لنا
المسافة، رأيته يتحرك، يفعل مثلي، يتحرك ويدور، ويفتح ذراعيه، كأنه
يتلقى النور وهو مغمض العينين، يحلم، يحب، يرنو، يمدُّ يده، يلتقطني.

غَبنا معًا في زحام المكان، كان الليل كالستائر يتحرك، يترنَّح أمام
قوة خطواتنا.. وكان المكان يكتظُّ بالأشياء الأخرى التي شاركتنا شبق
اللحظات، الحلوة والمرّة، كنا وحيدين لكنها شريكتنا، وكنا حبيين
لكنها صديقتنا، وكنا مواطنين لبيين، وهي رفيقة هذه الرحلة التي لم
تُحطَّ رحالها بعد.

كنا طائرين جريحين مذبوحين، يمتلئ بنا الألم والحزن، ونمتلئ
بهما، كنا نذرف دموعنا في أثناء الرقصة التي تُقاوم بالأمل، وبأفعال
زوربا كما كان يُسرب الفرح لقتل الحزن، ويُقاوم بالحياة ليلعن الموت.

فرحنا وحلّقنا نحو عالم حر وسعيد، عالم نظيف ونقي، نحو دولة
قامت، ويبدو كل شيء فيها مستقرًّا، ويزغرد من الحرية.. هذه المرة
وهبني الله ضوءًا ألعن به ظلام أيامي ..

كان اسمي إناث في ذات يوم.. واسمه بيللو في ذات زمن.

لا يوجد انتصار حقيقي في الحرب

نام كلُّ من عمر وسمر في الصالة بملابسهما، فقد استمر انقطاع التيار الكهربائي طوال ساعات الليل، ظلَّ عمر يتقلب في مكانه، تارة يأخذه النعاس، وتارة يندثر وراء أحلام متعاقبة، تأتي في خطوات متلاحقة، وتتوارد في مرات متتالية.

الوقت مع إناث كالحلم المتسرب من واقع مأزوم، يظلُّ بيللو يتمسك بغصن أملها، ويتعلق بشجرة وجودها، لعله يعودُ رجلاً، ويستعيد ظلَّه المفقود منذ أزمنة بعيدة، كان يشعر أنها تشبه ملاكاً منسياً منذ الولادة الأولى للفرح، بقيت عالقةً في قلبه، في لغة اللاوعي، تُغذيه بقوت الصبر، وتسقيه من ماء الرجاء، وتروي روحه باليقين، وحين التقاها، شعر أنها بدأت تخرج من روحه إلى حيِّز الوجود؛ لتشكل كيأناً حقيقياً، وتتجسّد له في صورة أنثى، كأن الله خلقها للتوُّ من ضلعه الأعوج.

خرجتُ من هناك، ترتدي ثياباً طويلة، وتُدثر شعرها الانسيابي الناعم، بشال من الحرير الأبيض، تجلسُ على كرسي عتيق، وتُكمل قراءة روايته للناس، الذين ظلوا يبحثون عن تفاصيل المنسي من هذه الحقة، ولم يتوصلوا إلى حلقات التاريخ المفقودة، من سيرة بلادهم في أثناء قيام الحرب في تشاد.

كان صوتها يأتي شَجِيًّا، عذبًا، عميقًا، فيشعر بالارتجاف لأنها تُحرك سكون روحه، وتخلخل أزمنة الهواء، تطلب الريح في حضورها، فتدور زوايع الوقت، وراء زمنها الآني، وتتسربل خلف صوتها نصوصه، وحكاياته، وروايته، وحزنه المديد، وسجنه البعيد... ربما هي مسكونة فيه كحلُمٍ أزلي، وقديم، فأرهف لها أذنيه، وسمعها تقول على لسانه:

- في سجن تشاد:

كأن العمر مسروقٌ من صفحات، خذلتنا رغماً عنا، حين سُلِب منا خيار الحرية، لم نملك شيئاً سوى أن نُجاريهم؛ حتى نستعيد زمام المبادرة منهم. تعبنا من التحالفات، وتبدُّل المواقف السياسية في تشاد، وسرعة الانقلابات، ففي كل مرة تقود المعارضة قيادة جديدة، ويضع النظام يده معها، فأصبح جيشنا بين أسرى ومفقودين وسجناء رأي.

بدأت المعارضة التشادية تزداد قوة، بسبب وجود أطراف لها أنساب يمتدّون من طرف بعض وزراء القذافي، للعائلات التشادية التي لها ثقل هنالك، لامتدادها للسنوسيين وعلاقتها بهم سابقاً.

كان هذا لا يُسْرُ بخيرٍ، فتشاد في بيتها الداخلي لا تحكم شعبها، في حضور مُعَقَّد للفرنسيين والأمريكيين، والتحالفات الجديدة في المنطقة.

في سجن بقرية تشادية، ممزوج سكانها بين عشاق لشعب ليبيا، ومستائين من قدومنا لبلادهم، تدخل كل فترة مجموعة من الجنود الأسرى، يجلسون في دوائر تتحدث عن طريقة أسرها، لكل دائرة روايتها التي تخصها، تتكاثف هذه الدوائر، وتتمازج في الشَّبَق، لتحكي ملحمةً طويلة في حكايات عدة، على لسان هؤلاء السجناء.

المكان مكتظ، أجسادٌ تتماوَجُ، وتوارىخ من ذاكرة مبتورة، إلى أن يُطلق الزمن سراحنا، ونسمع صرير ذلك الباب الكبير يفتح كَوَّةَ الزمن في الجهة الأخرى، سيكون بعضنا تحت التراب، ليعود فارسًا من الطين إلى الطين. وسيكون بعضنا فوق تربة هذه الأرض، إما فارسًا من خشب، وإما فارسًا من عترة الشرفاء، يُعيد الحكاية، ويجعل الرواية تتناسل في لُغة الشَّبَق؛ لتنطق الأزمنة وتكشف عورات الأمكنة، المخفية بشرى الغائبين تحتها.

كنتُ أشعر بالإعياء، وقد طال شعري كثيرًا، وتجمَّع أكثر، نمت لحيتي وهُدَّني الحنين لبنغازي، وليبيا وأهلها، ورائحتهم الطيبة، وحديثهم الذي سرعان ما يتحول إلى دعوة إلى غداء، أو عشاء، أو مُزحة تشدَّق بما يحدث، وتسخر منه في نكتٍ طريفة. شعرت بالدموع تنساب على خدي، وأنا مستلقٍ على جانبي الأيمن، بقيت على هذا الوضع حتى داهمني الجوع، ونهضتُ فرأيتُ الكثيرين بحالتي نفسها،

ومن رحمة الله لم نبقَ سُويغات حتى عاد أحد الحراس ليطلب منا أن
نفسح له مُحضراً بعض السندويشات.

لم يلتئم الجرح بإصبعي الصغيرة بسبب افتكاك البندقية مني،
تجاهلته حتى صار يتأكل، فشعرتُ بالرغبة في كيِّه، وتطهيره لأنه
ينهشني بشدة، حاولت البحث عن مُعقِّم، فأحضر لي الحارس قطعة
شاش مغموسة في مطهر، وقال لي:

- والله ما في، اتصرف أنت يا أخي!

وحين هبط الليل بستاره الموحش، كان علينا أن نتحدث فيما بيننا،
ونتفق على أشياء لا يمكن أن نبتَّ فيها أثناء التحقيق معنا، فلما صعد
ضوء الصباح تناولنا الإفطار المكوّن من شاي وقهوة، ومعه كسرات
خبز، ومن البسكويت المحلي والتمر، ويبدو أننا من شدة الجوع
والإعياء تناولنا كل أنواع الفطور، بدأت عملية نقلنا كأسرى من
السجن إلى طائرات، هناك استقبلنا الجنود ببرود متفاوت، واستياء
واضح.

قال هاشم:

- عيني تؤلني بشدة، ولديّ صداع كبير بجانبني رأسي، أرجوكم
كلموهم عني.

حاول بعضنا مساعدة هاشم، جراء إصابته الشديدة، طلبنا من آمر
السجن أن يفعل شيئاً، فقال إنه لا يمكنه فعل أي شيء، وسمع هاشم

كلامه، فاستسلم يائساً، وبعد قليل وفدت مجموعة أخرى من الأسرى، واستمر ذلك حتى ساعات متأخرة من الليل، ليصبح المكان مُكتظاً. رأيتُ جنديين بحالة مُزرية، أحدهما لديه إصابة في صدره، والآخر لديه إصابة حروق متفاوتة الخطورة بين طفيفة وملتهبة. ساءت حالة يوسف الجندي الذي عانى الحروق، فجلب له الحارس المطهر الطبي والشاش، ظل يُطهرها حتى جفَّ جلده تماماً، وتسبَّب الجفاف في الحكَّة والهرش، فكان يدمي بشدة ويتسلَّخ شيئاً فشيئاً. وفي ذات ليلة كثيية التففنا حوله جميعاً، وهو يوصينا ويقول لنا:

- سلموا لي على إخوتي وأبي وأمي، وخطيتي، وأهل لبيبا، وأسبل جفونه، فغاب تماماً عن ضوء الحياة.

في الحرب لا يوجد انتصار حقيقي للجندي، فالحكومات مسؤولة عن فساد الإنسان، وفساد العلاقات الإنسانية بين الشعوب، ومهما ينتصر الجندي على الآخر، فهو على أي حال ضحية الحرب - التي يصنعها الساسة باسم الإنسان، وتنتهي بتصنُّع الفرق بالإنسان، لا توجد خيارات للجندي المأمور فيها، قد يفقد الجندي احتمالات إنسانيته بمجرد أن يأخذ أوامره من قائده، فإن كان الجندي قد قتل عدواً دخل أرضه، فهذه حتى اللص الذي يدخل بيتك من حقلك أن تقضي عليه، ولكن ما شعورك إن كنت أنت المعتدي، والمحتل؟ إن كنت القاتل بلا حق؟!

ما زالت صورة ذلك الجندي التشادي لا تُفارقُني، ولا تغادر مُخيلتي، وهو ينحني على الأرض، ويغرف غرفة من تراب مدينته

التشادية، ويقول لي: يا ساقط أنت، يا بن الساقطة، ما تفكر تدوس أرضنا!

فشعرت حقاً أنني شوّهت سمعة أُمِّي، تلك المرأة الشريفة العفيفة، التي ربّنتني على احترام حق الإنسان في أرضه، والتي عاشت حياتها مُرتحلة بين نجوع البادية، مع أمهاتنا، وآبائنا، وأجدادنا، يطالبون الطليان بالرحيل عن ليبيا.

يوم آخر

وفي سجن انتقلنا إليه مؤخراً

بدأ الطابور يدخل للغرفة الواحد تلو الآخر، هنالك يجلس محققون، يسألوننا، يطرحون أفكارهم، يطلبون منا التصوير، والاعتراف بأن نظام القذافي يقصد احتلال تشاد، ويسبب القلاقل للجيران... ويدعم المعارضة التشادية بأسلحة وعتاد متطورين. وكنا نسأل كل جندي يخرج، عما سُئل بشأنه، فيهِزُّ رأسه نفيًا، ويقول التحقيق ليس تشاديًا.

وعندما حان دوري، وجدتُ نفسي أمُثِّلُ أمام رجلٍ أبيض اللون، طويل البنية، عريض المنكبين، له لحية خفيفة، أشقر الشعر، عيناه ضيقتان، يرتدي ملابس عسكرية، ويتحدث تارة بالفرنسية، وتارة بلهجة عربية، وتارة يتحدث إنجليزية لرجل مدني يجلس بجواره، سألني:

- ما اسمك؟
- نبيل القاسم.
- رتبتك العسكرية؟
- أنا صاحب مقهى مش عسكري.
- احكي منيح - حسن ما اكسر راسك
- أنا صاحب مقهى رجل مدني ضموني للخدمة
- لشو ضموك؟ أكيد تعلمت شي بالجيش الليبي؟
- أجدد الاتصالات.
- أي نقاط كنت بتخايرها؟
- نقطة الدوم، ونقطة السارة.
- ونقطة القيادة في ليبيا من يقود من هناك؟
- ليست من اختصاصي.
- أنت مؤيد لاحتلال تشاد؟
- أنا لا أؤيد الحروب أبداً.
- طيب، ليش جيت لهون؟
- مش خيارى الحرب
- من وين يجيب القذا في السلاح؟ من يمد به؟

- والله مش عارف، اسأل اللي بعدي.

وخرجت بعد سماعي جملة القبيحة، والتي تسبُّ القذافي وتشتمه، فلم أرد عليه، وبقي نظري للأرض، كيلا أستفزه، أصعب شيء أن تعترف برتبتك العسكرية؛ لأنك قد تعزل في مكان لوحدك، وقد يُنفذ فيك حكم بالقتل.

بعد قليل خرج جندي مضروب على وجهه وبطنه، والذي يليه كان مُصاباً في يده فخرج أيضاً يترنح من البكاء، ويبدو أن أي جندي مصاب يلاقي مصيراً أشرس في التحقيق، وبعد قليل شاهدنا مجموعة من القادة التشاديين يدخلون على المحققين عنوة، ويخرجون معهم، ثم حصل خلاف حاد، وتلاه هرج ومرج، وفجأة تصاعد صوت الرصاص، وتبادل بعض الجنود القتال فيما بينهم، فسقط ثلاثة منهم أرضاً.. ثم دلفت بعد قليل قواتٌ تشادية راجلة، فاقتحمت السجن، ووزعت جنودها على السجون، وأغلقت كل المكاتب العاملة فيه.

فهمنا أن هنالك انشقاقاً في القيادة التشادية، وهذا مؤثر في وضعنا، لأننا في هذه الحال سنتحول إلى ورقة يحاول الصراع الدائر بين القادة أن يوجهها لأغراضه السياسية. وبدأت الصحافة تستغل وجودنا، في تأجيج الصراع ضد القذافي، فحضرت للسجن لتصويرنا، وعبرت بنا لمقراتٍ أخرى، فتعرضنا في أثناء ذلك لغضب الشعب التشادي، المترجم بإصابات بليغة، وندوب على أجسادنا.

توسّلت عطف الضابط تشادي، ذات جرح على كتفي - أن يجلب لي سجائر، عندما أعادونا للسجن فأعطاني علبة، وقال لي:

- أنا عارف شنو تفكر أنت، أنت تحس أنك مقهور، وأسير عندنا، هذا هو مصيرك لما تعتدي على تربة موش تربتك.

ربما قال التشادي نصف ما يعمل في قلبي، فأنا فعلاً أسير، وشعوري بالقهر نابع من كوني فقدتُ حريتي في التصرف بنفسي، فمن جهة أرفض مبدأ القتل، ومن جهة أخرى أنا إنسان تعلمت، وتنورت بالعلم، وأحمل روحاً مسالمة بين جوانحي، رأت نور الله واليقين به أنَّ قتل النفس للنفس لا يجوز، وأنَّ ديننا لم يدعُ للبغي والعدوان على الجيران الأبرياء.

بدأ بعض الجنود يتساقطون جراء عدم وجود علاج لحالاتهم، غادرنا هاشم فأصابني حزنٌ شديد، ورحل ذلك الفتى الذي يُعاني جروحاً في صدره، ولحق بها بعد أيام جنديٌّ آخر، كان إصبعي تنهشني من شدة الحرقان، لم يكن هنالك مهرب من بتره، ففعلتُ ذلك بطريقة أخذتها أُمي عن جدتي، حول علاجات الحرب، فقمْتُ بسنِّ سكين، وتطهيره جيداً، ثم تسخينه على النار، وبترت جزءاً من إصبعي، فعلتُ ذلك بقسوة، أُصبتُ على إثرها ثلاثة أيام بالحمى، لم ينسني منها حارس السجن الذي كان يحضر لي طبقَ مرَقه تعاطفاً معي.

بعد مدة طويلة، أحضروا لنا راديو، فقال لنا الجندي التشادي:

- في أخبار من ليبيا، أنتم ممكن في تسريح من السجن، ممكن في خروج بعد يومين!

تهللت أسارير وجوهنا، وتعالَت صيحات الفرح، شعرنا بالانتشاء، فلا بد أن تسوية سياسية قد حصلت، ولا بد أن التشادين توصلوا لاتفاق مع الليبيين، أو ربما تمَّ الفصل في قرار ضمِّ شريط أوزو، أو لعل هنالك وساطة عربية ودولية، سيتمُّ على إثرها إرجاعنا لبلادنا.

كنا حول الراديو، ننتظر الخبر السار بفارغ الصبر، وبعد حوالي ثلاث ساعات، تهادى إلينا صوتُ قائدنا وهو يخطبُ في مدرجات الحرس الثوري، يتحدث عن أحلام سبتمبر ورؤاه، ثم سمعناه يتحدث عن حرب ليبيا وتشاد، ويقول عنا: هؤلاء ذهبوا بأنفسهم، ونحن ليس لدينا جيش في تشاد، هؤلاء يجب أن تلاحقهم ليبيا، وتعيدهم، وتحاسبهم، لأنهم ليسوا من الجيش الليبي.

أصابنا الخطاب بصدمة كبيرة، طار صوابنا بأجسادنا من مكاننا، فالنظام أنكرنا وسوف يلاحقنا حتى يستعيدنا، ويطبق ضدنا حكم القتل.

قلتُ للجنود الذين معي:

- لقد أسدل الستار على مصيرنا، وهذا السجن بضيقه وقذارته، والأعداد التي يتلعها منا، سأظلُّ شاكرًا له؛ لأنني ما دمتُ فيه، فسوف أكفُّ شرِّي عن إخوتنا في تشاد، إلى أن يأذن الله في أمرنا.

جذبتُ ياقة قميصي لرأسي مُحاولًا استجلاب النوم. تُرى، كم سيطول البقاء؟ وكم سأبقى؟ وكم من العمر سينقضي، وأنا في هذه الهوة الزمنية - التي سقطت سهوًا من الزمن - والتي سارت على رتم زمني للأفعال الآتية، انهض، اعمل، كُل، اخرج، اذهب، اسمع، ثم.

وظائف أخرى لأدوات النفي

عزيزتي سمر:

تصلك كلماتي على أمل أن تكوني بخير، أفتقدك في الفيس بوك،
وأفتقد قصائدك التي تبعث في روحي الحياة، قرأت رسالتك الأخيرة، لم
يتسن لي الوقت لأردّ عليها فوراً؛ بسبب طول انقطاع التيار الكهربائي،
وغياب خط الإنترنت.

الخوف كبر كغول شرس في طرابلس، يأكل الناس واحداً تلو
الآخر، مجرد الاعتراض أو التعبير بتذمر، مصيرنا الاعتقال، أو التصفية،
أو أشياء أخرى قد نكتشفها مع حدوثها، هنا تتوقعين أي شيء يحصل
لك إذا خرجت، فالنساء هنا صيد سهل للذين لا ذمة لهم، ولا قانون
يردعهم.

عزيزتي سمر:

بصعوبة أتعايشُ ولا أعيشُ، أتصنّع ولست طبيعية، أتأقلمُ وليس بإرادي، أتكيفُ مع نقص الموارد وتراجع الحياة، كما يتكيف سجين، في سجن يديره أكثر من حارس، وأكثر من قائد. كنتُ أتساءل يا سمر: أين ذهبت طرابلس التي كانت ضحكاتها تملأ البلاد؟

صديقتك فريدة

عندما أنهى عمر قراءة الإيميل، كان التيار الكهربائي قد عاد، وبريد إناث الإلكتروني يخطر بالمزيد من الإشعارات على جهازها المفتوح، نهض من كرسيه بهدوء، فقد كانت إناث نائمة، دخل المطبخ لتحضير قهوة له، أعد قهوته في المُسخن الخاص بها، كم يعشق أن يتلذذ فيها، بطعم بنغازي ومذاقها! سرّح في ليلة أمس، فمِنذ زمن طويل لم يفكر بالرقص، وارتكب جنونه مع إناث، ربما لتحارب حزنها وحزنه، ربما لتداويه، ربما لتواجه ألمها بطريقتها كشاعرة، ربما لتصدم أحاسيسها برد فعل معاكس لها، ربما لأنَّ إحساس هذه الفتاة مرهف ودقيق حد الدهشة.

كانت كل خطوة رقص قام بها هو وإناث، تعبر عن معاناة لامست أوتار قلبه، مسّت روحه، اصطدمت باليومي المعيش، محاولةً للسعادة رغم الألم، محاولةً رقصٍ تمّت فيها عملية بترٍ مبدئي - ليد القهر الممتدة نحوه، رقصٌ حارب الموت بالحياة.

إناث هذه الأنثى الليبية بحجم وطن يداويه، وهو عاجز عن إيجاد مفاتيح قلبه، تملكُ كيانه، وتهبه قلبها من أول ضحكة، متواضعة،

بسيطة، لكنها سيدة فكر وثقافة - وإن لم تكمل تعليمها، لا تهتم بالثرثرة عن قدراتها، فالمثقف في نظرها ليس ظاهرة صوتية، إنه التغيير الذي يحتاجك، ويجعلك تعيد تفكيرك، وترتب عقلك، بفضل أفكاره وسلوكه كعامل مؤثر.

قاربَ الوقتُ العاشرةَ صباحًا، عندما صعدتُ إناثَ الدَّرج، ثم نزلت، وقد اغتسلت، وأطلت بشعرها المبعثر، وابتسامتها التي تغزو الصباحات الغائمة، فتحيلها ليوم ماطر جميل، مشيتها المتروية التي ذكَّرتَه بقول الشاعر:

كأنَّ مشيتها من بيت جارتها مُر السحاب لا ريث ولا عجل

قبَّلته على خده، وهي تقول له:

- صباحك مبروك.
- صباحك مبروك يا لغالية، نوم الهناء سمر.
- شكرًا عمر، هل هناك قهوة في الإبريق؟
- تعالي واجلسي، هناك قهوة وهناك مشوار.
- إلى أين؟

قالتها بهدوء وصوتها العذب الرخيم؛ حتى أنَّ يده انساقت لإبريق القهوة، فسكب لها فنجانها دون شعور منه.

- إلى الهلال الأحمر، لدينا عمل كثير، ستسعدهم عودتك وانضمامك لهم، تناولي القهوة وغيّري ملابسك.

- حسنا يا عمر .. سأكون جاهزة، هل أرتدي بنطلوناً أم فستاناً؟
 - حببتي الأفضل بنطلوناً، ستتحركين بحرية أكثر.
 - عمر، شطبتُ مقاطع كبيرة من روايتك، لا أرى حاجة لذكرها، مع احتفاظي بالتفاصيل الأساسية.
 - إلى أين وصلت سمر؟
 - وصلت لتخلي النظام عنكم، ولعملية بتر إصبعك، هذه النقطة كنتُ أخجل من سؤالك عنها.
 - آه... أذكر أنك نظرت إليه طويلاً في لقائنا الأول، ولم أعلق لتوقعي أنك ستقرئين ذلك في الرواية.
- امتدَّت يدها، ليده اليسرى، وقبَّلَتها بحنان قائلةً:
- أعلم أنه يذكرك بذلك الزمن المتور، من الرواية التاريخية اليبية.

ابتسم لها، فيما وقفت لتغسل الفناجين بهدوء، ثم استرسلت في مشيتها الهادئة نحو الدرج. تواردت خواطر عمر كثيراً هذا اليوم، بدأ يتذكر أشياء كانت غائبة عن باله. سرح قليلاً وهو يقود السيارة بهدوء، يستمعُ لأغانٍ جلبتها إناث، هذه المجرمة تمضي في حياتها معه بكل ثقة؛ لتعيد له شيئاً من حيويته وشبابه، ظلت جملتها الأخيرة ترطن في رأسه، وتُعيد ترتيبه من جديد، تجعله في كل مرة يقترب منها أكثر، يُعيد استكشاف نفسه، تقول له:

- أعلم أنه يذكرك بذلك الزمن المبتور من الرواية التاريخية
الليبية.

وجدَ نفسه يتذكَّر النَّفْيَ للصحراء، وعدم السماح له بالعودة بعد
حرب تشاد، وجدَ نفسه يتذكَّر أهل فلسطين ورباطهم، ومطالبتهم بحق
العودة لأرضهم، أولئك المنفيين في غياهب العالم، وسرايب المدن،
تذوق مرارة إحساسهم ذاك، تجرَّعه عن قُرب ألم ومعاناة، وتساءل عن
هذا التشابُه بين ما يحدث من محاولة إبعادهم عن ليبيا سابقاً، وبين ما
يحصل الآن، من محاولة إبعاد ليبيا نفسها عن صيرورة الحياة التي تدور
في العالم؟ تمازجت الأزمنة في ذهنه بين ماضي وحاضرٍ، لتبدو كأنها
تتزاوج، وتتلاقى في بعض الصور والتواريخ، والمواقف الباهتة
والدكناء، تجسَّدت له فجأة .. وبدا له كأن جمهور يتعاطى معه الحوار،
في المقهى المكتظ ببغازي:

- أسمعُ ما في خواطرك ... فماذا تريد أن تقول يا سيدي؟

ردَّ عليه بصوته العميق:

- جمهور، قل لي: هل تمَّ نفينا؟

وجاءه صوته حاضراً، وهو يُشعلُ سجائره كالعادة:

- النفي مفهوم عظيم، يُذكِّرني بشعب فلسطين يا سيدي.

- نعم، وهل ثمة نفي يُذكِّرُك به في بلادنا؟

تنهَّد جمهور بزفرة عميقة:

- إنه نفي تاورغاء^(١) من أرض الوطن، الأشد ضراوة، والأقسى على الإنسان الليبي.
- أن تُهَجَّر من وطنك، داخل وطنك!
- نعم يا سيدي، أن تُطرد من بيتك ومن أهل بيتك!
- قل لي يا جمهور: ماذا كنت ستقول لي، لو قصدت النفي بأدوات النفي؟
- النفي بلا، وليس، وما، ولن، ولم، تلك أدوات تجعل الحلم يتعثر.
- برأيك بأي شيء تعثر حلمنا؟ وأين نحن منه؟
- يا سيدي، حلمنا تعثر بمطبخ هوائي كبير، فتغيرت وجهته!
- كيف يا جمهور؟
- تنهد جمهور، وهو ينفث دخانه بعمق، ثم أجابه بزفرة أخرى:
- نحن خرجنا من أجل حقوقنا، وسوء أحوالنا المعيشية، لكن لم نعتزف بواجباتنا تجاه بعضنا البعض.
- أظنك تريد أن تقول شيئاً أكبر يا جمهور.
- أريد أن أقول: إنَّ السلبية، وإنكار الآخر بنفيه، تولدت عن نفور متطرف الرأي، يسودنا منذ خمس سنوات، وهذا يزيد الطين بلة.
- وما الموجب الذي يجب أن يسود، لما تُشير إليه؟

(١) مدينة ليبية تقع شمال ليبيا، عمرها وتاريخها يرجع إلى أكثر من ٥٠٠٠ سنة.

- عندما يكون الكل في البيت، يحقُّ للجميع ترتيبه، وتحق لهم الراحة فيه.
- هل سننجح؟
- سننجح يا بيللو، لو ارتفعنا عن الدُّنى. الدنى التي تسكننا نحن.
- كأني بك تتكلم بلسانٍ ليس لسانك.
- إنه لسان العوام يا سيدي
- ألهذا سموك (جمهور)؟
- ترقرقت الدموع من عينيَّ جمهور، ثم قال بحزن:
- أنا لستُ حُرًّا في نفسي، أنا أُمُّ هذه البلاد.. أنا صوتُ البكاء، والأُنين الصادر من بيوتها.
- ومَن استعبدك يا جمهور؟
- استعبدني حبي لبلادي، استعبدني فكري الحُر الذي يبحث عن عدالة تستحقه.
- إذاً هي عبودية المثقف للوطن، لا للحزب، والجهة التي يؤيدها.
- المثقف الأصيل ليس ملكاً لأحد.
- ولمن هو إذاً؟
- إنه للعوام فقط، يقودهم للتنوير، ويتكلم بلسانهم.
- كأن ردودك، تعني التفكير الجمعي لهؤلاء.

- هل عرفت الآن.. لماذا كنت شديد التذمر غالب الأحيان؟

وذهبَ جمهورُ والدموع تملأ وجهه، ذلك الوجه القادم من زمن الماضي، وزمن المقاهي الحميمية بين أزقة بنغازي، زمن طرابلس المزهرة، وزمن درنة الغارقة في رائحة الرياحان، زمن طبرق دار السلام، زمن الكفرة العذبة بمياهها، زمن البيضاء الرابضة على تلال الثلج، زمن قورينا بأثارها وبهاء زيتتها، زمن غريان أم المعاصر وزيت الزيتون، زمن بني وليد بلاد الفرسان، زمن المرج العميقة في بساطتها، زمن مصراتة باحة الغرب الليبي وحاضرتة، زمن سرت ولكتتها الجميلة، زمن سبها ورائحة الحناء، زمن تاورغاء وتراث الزي الليبي الجميل، زمن الواحات المتناثرة في قلب الصحراء، زمن ليبيا النقية نقاء سريرة أهلها.

حين كان ينام في سجون الغربة، ظلَّ يتساءل دائماً: بأي امرأة سيجمعني الله؟ بأية أنثى تحيد نكث جدائل اللُّغة بين يديها، وتعيد تصفيفها في لغة جديدة تخصُّ قلبي الوحيد، في هذا الليل العاري من رداء العِفَّة، والمتجرد من رباط الإنسانية، بأي أنثى سيلاقيني هذا الزمن الشاذَّ عني بالفرح؟ والنائي عني بسعادته، كي تعيد ترتيب أجزائي المُفككة من جديد، بأي أصابع ستلتقي كُفِّي وستعجنني بحناء لطفها، اللهم خذْ بيدي في غربتي، ولا تؤاخذني بضعفي، وقلة حيلتي ومن معي، اللهم سُر قلبي، وأخرجني من حلق الضيق إلى واسع رحمتك.

كان في حالة التوارد تلك، بين ماضٍ سحيق يتهيأ له من بعيد، وبين حاضر يتلمَّس طريقه للنور، يحاول الخروج من هذا النفق المظلم

الطويل، يُرَحَّب بأي يدٍ تمتدُّ له، لكنه لا يميز اليد النبيلة، من اليد التي يمكن أن ترميه بعيداً في حقب الوراء، وما أقسى الوراء! ذلك الذي يُعيدُه لعصوره الحجرية، ويجعله يفقد سلسلة أو منظومة سنين، تمنى أن يعمل فيها على إنجاز نفسه، ويواكب التغيير في دولته.

حقاً إنَّ السياسة امرأة ساقطة، لا تدين بالولاء لأحد.

عمر.. عمر، لقد وصلنا.

نظر إلى إناث الجالسة قُربه وهو يفيق من سرحانه:

- آه ما بك يا سمر؟

- عمر لقد تجاوزنا بوابة الهلال الأحمر.

- صحيح عزيزتي، عذراً منك، سنعود للوراء.

وفيما يدير سيارته للوراء، قال لها:

- هل تعلمين، كنتُ أتذكر جمهور، هل تذكرينه يا سمر؟

ردَّت في مكر:

- مَنْ يكون جمهور؟

- ألا تعرفين جمهور؟

كان عمر مصدوماً منها، ومندهِشاً من سؤالها، ثم عاد يقول:

- لا تدوخيني حببتي، أنا لا أقدر على تلاعبك الكبير!

ضحكت بعمقٍ يعرفه فيها، وكانت تُهذَّب ملابسها، وتنزل من

السيارة قائلة:

- ألم يسألك من أين أتيت بإناث في مذكراتك؟!

نظرَ إليها بذهولٍ:

- ماذا تعنين يا سمر؟ ماذا فعلتِ بفتاتي الحاملة؟ هل تلاعبتِ بالشخصيات؟

لم تُجِبْهُ، تركت ضحكاتها تتهاوى مع الريح، وسارت صوب البوابة .. فيما بقي سؤاله الكبير، عالقاً في ذهنه، يحاول أن يتلمّس إجابة لديه.

يراها الآن أمامه ليلاً يمشي على قدميه، تحاول إلا تلمس الشرخ الذي يسكنها، تكتب روايتها التي أخبرته عنها، بأمل يحدوها ليخرج شعبها من سنوات الحرب.

كانت إناث حُلماً يُراوده منذ شبابه، يخلو له بينه وبين نفسه أن يسميها كذلك، كانت مخلوقاً معجوناً من حكايات الكثيرين، يختزلُ داخله معاناة الناس، الجارات اللاتي يَفْذُن إلى بيتها، الرجال الذين يتساقطون في المحاور لصدِّ الإرهاب الذي يغشى العالم، الأطفال الذين اختاروا أن يكونوا نباتات ظلٍّ في بيوتهم، لا يرون الشمس، ريثما تُطْلَقُ الحياةُ سراحهم.

كانت توجزهم في شخصها، تكتبهم في نصوصها، تقول له ببحه صوتها الجميلة:

- تخيل يا عمر لو أنك تتحول إلى نبتة ظلّ في بيتك؟
وكان يرُدُّ عليها:

- سيخرجون يا حبيبتى، سيخرجون للهواء، والحياة الطبيعية.
يُعاود التفكير في كلامها، فيجد نفسه في بعض الأحيان أشبهَ فعلاً
نبتة ظلّ منكفئةٍ على نفسها، تنتظر الاعتناء، تنتظر ماء الحياة، تنتظر في
الظل، ريثما تأتي ساعة الشمس، ويعني بها ساعة الانبعاث في الحياة.
أمنيات كثيرة لم يحققها بعد، وأمنيات ظلت تنتظر في الظل، ريثما
تقوم الدولة في ليبيا، ويتفرغ لها، ربما سيكون الوقت كافياً لأن ينشئ
أسرة مع إناث، ويساهم في الارتقاء ببلاده، من خلال إعادة فتحه لمقهى
برنيق، وجعله مكاناً للحوارات الثقافية، وسيقوم بإنشاء مكتبة فيه، كي
يستقطب الرواد أكثر.

تذكر صديقه هاشم (رحمه الله) في غرفة عمليات فايا، ذات مرة
حين تحدثا عن التمنيات والتوقعات بعد العودة، قال له إنه يحلم
بصناعة طائرة صغيرة الحجم، وكان ذكياً جداً في الإلكترونيات، ويُجيد
تفكيك أي جهاز وإعادة تجميعه، كان قد جمع بعض قطع الغيار من
الطائرات التالفة من المطار حيث كان يعمل في طرابلس، ويخزنها لديه،
يقوم بتصليحها وإعادة تأهيلها، ثم يلهم نفسه، حتى أنه قال له: لو
انتهيت من صناعتها سأكون أول عربي يصنع طائرة صناعة خاصة،
وقتها كانا في عام ١٩٨٥، ولا يعرف هل سبقه أحد أم لا، لكنه سأله:
وهل ستكون طائرة عسكرية أم مدنية؟

- طبعًا ستكون مدنية، تعشق السفر والطواف، والتعارف والسلام.
- هذا طيب، أن تكون بذورك إنسانية غير ميالة لأدوات الحرب.
- وهل ارتكبنا نحن فعل الحرب بإرادتنا يا صديقي؟
- ومضى هاشم من فعالية الحرب، إلى اسمية الموت .. تاركًا حلمه عالقًا فوق مشانق ذاكرته.

أحلامٌ بالمجان . . وأحلامٌ لها ثمن

عائبةٌ أنا على عينيك حين تغيبان في البكاء، تجعل منهما نبعاً لنهر مذاقه مختلف، عائبةٌ أنا على الغياب الذي أخذ بأهلي، وقومي، ومدينتي في غياهب سجن مفتوح على عراء الليل، سجن يحيلنا لمدينة سقفها قابل للتأويل، وأزقتها قابلة لاحتلال الغرباء، وشوارعها بعناوين جديدة، وأرقام هواتف متروكة، كذكرى من مقاتل غادر لجبهات القتال من أجل الوطن.

لقد كنتُ أتساءل: لماذا كل هذا الموت الذي يحيق بنا في بنغازي؟ ولماذا كل هذا الرعب والإرهاب، الذي يصادر حياتنا منذ عهد مضت؟ لماذا هذا الاستنزاف للرجال وللشباب، الذين يرفضون الاستكانة والذلة لهذا الاعتداء الواقع عليهم؟ كل شيء يعبر عن فقْد كبير، فقد في الأرواح، فقد في البنى التحتية، فقد في الإعمار، والمؤسسات والبيوت... يا الله!

لم تعد ملامح الأحياء هي ذاتها، فقد تلاشت بعض الشوارع، واستحالت إلى باحات واسعة، لم يعد يمر الأطفال الذاهبون للمدرسة صباحًا، لا ضحكات، ولا أحاديث تسترق إليها النوافذ، كل ما يمر من هنا هو صوت الريح، وصفير الهواء، النباتات التي تعرشت، وامتدت موعلة في زحفها، كسافانا معبرة عن طول غياب أهل البيوت عن أصحابها.

بيوت مهجورة، وبيوت فاعرة أفواهها، نتيجة الصدمة المفاجئة التي اخترقت جدارها، بيوت تبكي من غياب سكانها، وبيوت تناشد الله أن يعود أهلها بسلام، بيوت لله تشتاق إلى مصليتها، ومآذن تنادي بكاء مؤذنيها، منابر فقدت أئمتها، ومنابر تترحم على واقفيها.

كان هذا هو شكل المنطقة التي حرَّرها الجيش الليبي، سارعنا نحن الهلال الأحمر بتفقد المنطقة، وبدت غريبة، كهلة أو مُسنة، استحالت عجوزًا هَرَمَة، تهدلت أغصان أشجارها، وتغطت شوارعها بأعشاب وطحالب خضراء، كانت المياه الضحلة في بعض الأحياء تغمر الطريق، وفي أحياء أخرى تغرقها تمامًا.

قُمنّا بإدخال بعض العائلات لأعشاشها، رأيتُ الفرح يغمرهم، ورأيتُ النور يومض في عيون كثيرة، سُعدتُ بالعودة لأسرتها، رأيتُ عيونًا تبكي لهدم بيوتها، ورأيتُ قلوبًا تدمي لأشياء فقدتها، رأيتُ بشرًا سُلِب منهم الحلم، ربما ظنوا أنهم أسهبوا فيه، فتخليلوا أن يكبر وطنهم، لا أن يضيق بما رَحِبَ بهم.

لا أعلم كم ثمن الحلم في زمننا هذا؟ لكنني تعلمت أن الحلم في الربيع العربي ليس بالمجان؟

وفي هذا الوقت بالذات، كانت رسائل صديقتي فريدة تزيد في حزني، ورسائل هيثم نحاس تقض مضجع عمر، وتجعله لا ينام الليل. كنا نشاهد هذه الألوف المؤلفة التي تعبر البحر، كأمم من السمك تنتهي في شباك الصيد.

تخيلت كيف سيبدو شكل ناشط سياسي - كهيثم نحاس - وهو يجازف بعبور البحر، فرصه قليلة في النجاة، لكن الأمل بالله كبير، يقول هيثم: لقد عبر الكثيرون، وصاروا يتلمسون حائط أوروبا، ليزاح لهم الجدار، ويفتح لهم باب الدخول، المعاملة تتفاوت ولكن فيها جفاء ومخاوف من قبولنا كوننا عربًا، بسبب الإرهاب الذي يُرتكب باسمنا، والإسلام الذي تشوّه بنا.

ويستمر هيثم في الشرح لعمر قائلًا بحزن شديد:

لم تعد بلادنا صالحة للحياة، استحالت للمعب بيسبول دولي للقوى العالمية، التي تتهافت على الشرق، وتتعامل معه كغنيمة حرب، يجوز لهم اقتسامها، ويختصر هيثم بقوله: بلداننا مجرد وسيلة لتنفيس الرغبة في تقاسم مناطق النفوذ العالمية، أما كيف نموت، وكيف نعيش، وكيف يمضي يومنا، وعمرنا، وحياتنا، فهذا تجدونه في آخر عمود الاهتمامات اليومية، للشعوب التي تعيش على الضفة الأخرى من العالم.

كنتُ مهمومة بهموم عمر، عندما بدأت مظاهر الإعياء على جسدي، وفقدتُ وعيي أكثر من مرة، وبعدما نصحني الطبيب بالراحة الطبية، قال لي عمر: إذا أردت الحفاظ على الجنين الذي في بطنك، عليك أن تقللي من الذهاب للهلال الأحمر، وكان كلامه صحيحًا لولا أنني قلتُ له: إلا إذا كانت الحالة إنسانية ومُلِحَّة، فيجب ألا أتغيَّب، ووافقني.

انتقلنا من الحي الذي نحن فيه لحي آخر؛ بسبب قرب المنطقة التي نحن فيها من الاشتباكات، وكثرة الترويع لأهلها، من العشوائيات التي ترميها الجماعات الإرهابية، بقينا بمنطقة حيوية قريبة من المستشفيات الحكومية، ومَرَّت علينا أيام إلى أن تأقلمنا مع حيوية الشارع الذي نقطن فيه، قررتُ أن أنشئ مجموعة هلالية بالمدرسة القريبة، يكون عملها بثَّ ثقافة الأمن، والتخلُّص من الرُّهاب، والخوف من الأصوات، التي يرسلها الرصاص، باستخدام وسائل عدة، كالمحاضرات، والندوات، والشعر، ساعدني على ذلك انضمام معلماتٍ كثيرات، فأقمنا عدة معارض بأفكار نسائية، كان عائدها يعود للسكان الذين يقطنون بالمدارس المجاورة.

خرجتُ من المدرسة ظهيرة أحد الأيام، سيرًا على القدمين. عبرتُ الشارع المؤدي إلى بيتي، وهو غير بعيدٍ عن أحد المشافي العملاقة، خرجتُ على محل لبيع الخبز، وأخذتُ أول كيس ممتلئ بالخبز، فقد عمد أصحاب المحال إلى ربط الخبز في الكيس؛ للتخلُّص من الازدحام الذي

يسببه شراء الخبز، وسرت بمحاذاة الطريق العام، كان مشهداً بيعت على الأمل، فها هي بنغازي تتحسن يومياً، وتستعيد قدرتها على الحياة، كلما تقدّم الجيش الليبي، وسحب مواقع من تحت طائلة الجماعات الخارجة عن شرعية الدولة.

سيداتٌ وطلاب مدارس يعبرون للمحال التي تباع المواد الغذائية، والخضراوات، رجال يسارعون الخطى للمساجد القريبة من المستشفى الكبير، زوار أوقفوا سياراتهم في موقف السيارات الكبير المقابل للمستشفى، كنتُ أرى الطفل الذي يمسك بيد أخته على الرصيف الآخر، بدت الوجوه متفائلة، وسعيدة بهذا اليوم الذي منحها حق السير على القدمين، فهذا بصعوبة عاد لبنغازي.

فجأة علا دويٌّ انفجار قوي، وأمام مشهد عيني رأيت السيارات تتطاير على الرصيف المقابل، تناثرت فوقى أشياء محروقة، ودبَّ سلطان الرعب في المارة، صراخ، وعويل، صياح، واستنجد، بكاء، وأطفال يصرخون، نساء وثبن من مكانهن، محل طارت بضاعته المرصوفة، أجساد شاهدتها في لمح البصر، تطير في الهواء ... يا الله سقط شيء هلامي فوقى، غاب الزحام .. غاب الناس ... غابت الرؤية .. أحسست بأيادٍ توقظني، تحاول الإمساك بيدي لترفعني، نظرتُ إلى الوجوه الفزعة، والملامح التي أسبلت دموعها بحرارة، وقفت، كنتُ أضْمُّ حقيتي، وكيس الخبز، ثم بكيت وأنا أصرخ: لماذا؟ لماذا؟ لماذا يقتلوننا؟ لماذا لا يتركونا بسلام؟

المنظر مُروّع، أناس تجري هنا وهناك، أشخاص يركضون لطلب
أي شيء يسعف، سرعان ما تكاثف المارة، في مكان الانفجار، بدأ
بعضهم يجمع الأشياء، صوتٌ دوي الإسعاف .. نهضت من مكاني وأنا
أحاول السير، وعبور الطريق لرصيف الانفجار، يدهمك بي، فإذا بها
سيدة تقول لي:

- لا تذهبي هناك خطورة!

سمعتُ صوتي يخرج مني ويقول لها:

- لا أستطيع، يمكنني أن أنقذ شخصًا.

هرولتُ للطريق، نظرتُ للأجساد المصابة، بدأت في شدّ جراح
بعضهم، تجمعٌ حولي بعض الناس، وأنا أصرخ وأقول لهم:

- الي بيته قريب، يرفعلي شاش، وأي شيء يساعد بيه ..

بعد دقائق وجدت من يدفع لي بشاش، وأقمشة لوقف ضخّ الدم،
هنالك أطفال قتلى، يا الله .. هذا مروع، جاء الإسعاف بدأ الناس
يرفعون الجرحى للسيارة قتلى كثر .. وجرحى أكثر ...

فجأة صرخ أحدهم وهو يقول لي:

- يا أختي، أنت مبللة بالدم، شوفي روحك.

نظرت لنفسي، لملايبي، سقط شيء فوقني في أثناء الانفجار، ربما
أشلاء، من أين يأتي الدم؟ لا أعرف تحسستُ بطني، شعرت بالألم،

بمغص شديد ..ربما هو التوتر بمعدتي، ربما هو شيء ...أشعر بالإعياء
... لا .. بالإغماء!

في المستشفى كنتُ أسمع الأصوات تنهياً لي من بعيد، من نصف
عين غائبة عن الوعي، رأيت الناس يهرولون، والأطباء يركضون وراء
الجرحى، أكياس تندفع لغرفة الطوارئ لبقايا بشرية، دماء تملأ الممر
المؤدي لغرف العمليات، صراخ للأطباء عن دم، عن أكسجين، عن
اسم طبيب، عن أشخاص يجب أن يغادروا الغرفة ..عن ثلاجة الموتى.
كانت سيارات الإسعاف ترطن بلغة الحرب، وتصيح لتبدو كعجوز
تولول على بيتها، وأبنائها الذين تفقدتهم كل حين ..سابقاً، كنتُ كلما
مررتُ بقربي سيارة إسعاف أقول: ما بالها تبكي؟ الآن فهمت مصابها
الجلل! تفحصتني الطبيبة، قائلة لي: أنت بخير؟

كانت ملابسي مليئة بالدم، حاولت التماسك، هذا التماسك ليس
شجاعة مني، ولكنه من عملي بالهلال الأحمر، فقد رأيت أكثر من ذلك
بشاعة، وفضاعة

- أشعر بالدوار، سقطت في الشارع، وسقط فوقي شيء ما، كأنه
جسد.

- هل يؤلمك جسمك؟ أنت متزوجة؟ هل لديك سكري؟
ضغط؟ مرض آخر؟

تالت الأسئلة من الطبيبة المستعجلة، بحكم الحالة المرتبكة،
فاختصرتُ عليها:

- لا أعاني أي شيء، أنا فقط حامل، أحتاج إلى صورة للتأكد من سلامة طفلي

- حسنًا، سأطلب إجراء صورة للجنين بسرعة.

وكتبت لي ورقة، وجدت ممرضة تقف قربي، حملتني بالكرسي ذي العجلات لقسم التصوير، انتظرت حتى جاء دوري، أجرت لي الطيبة مع مساعدتها الصورة، وهي تقول لي:

- لا بد من طبيب نساء متخصص سيدتي، الصورة لا تقول إنك بخير، أنت سقطت على بطنك، وقد يحصل معك نزف لا سمح الله.

سرعان ما اكتسحت عيني الدموع، فطلبت منها الكتابة على الورقة لأحملها للطبيب.. في هذه الأثناء قررت أن أتصل بعمر، لكنني فقدت هاتفي، حقيتي، كيس الخبز... وأشياء أخرى. اتصلت بعمر من أحد هواتف المسعفين..... كان صوته كالمجنون:

- حبيبي أين أنت؟ أنا في المستشفى الآن؟

انهرت من البكاء:

- عمر، عمر، أنا في قسم التصوير.....

لم أكمل كلماتي، كان عمر أمامي، ومعه بعض الأشخاص، يبدوون من الهلال الأحمر... أخذني عمر إليه في ملح البصر، ورفعني، لا أعرف كيف فعل ذلك، رغم أنه جسمه نحيل، وعمره لا يسمح بذلك، لم أر شيئًا غير حزن آمن، كنت أعلم أنه سينطلق بي إلى مكان أكثر أمانًا من هنا.

وقع خبرُ الإجهاض قاسياً على عمر، تأخر الطبيب في إخباره، كان
ينصت لنبضات الجنين، ثم يهزُّ رأسه سلباً، ثم يعاود، لم أكمل النظر
إليه، وإلى وجهه المعبر بوضوح، أغمضتُ عيني.

يومان وأنا مستغرقة في النوم... ثلاثة أيام .. في اليوم الرابع سألت
عن الموتى، عن أطفال المدرسة التي عملت فيها، عن الذين كانوا
يعبرون الطريق لشراء الخضراوات، عن عدد الضحايا، عن الأضرار،
وما بعد انتحار الإنسانية ...

قال عمر:

- تفجير انتحاري، تبتته جهةٌ ذكرت أنها غزوة أبي ليث
الأصفهاني.

- غزوة؟ هل ذكروا عدد الضحايا؟

- العشرات يا سمر، بينهم أطفال ونساء، ورجال ذاهبون
للصلاة.

قال أخي الشريف:

- توفي الكثيرون، تعددت الطرق، والموت واحد

وبدأ الشريف يُحصى أعداد مَنْ ماتوا، وعبروا الشارع، ثم بدأ يسرد
كيف انهار سائق حافلة الأطفال، التي مرت بسلام قبل التفجير بدقائق،
فقد طار صواب السائق، ونزل وهو يبكي، ويقول للسكان:

- أنا بريء من دم هؤلاء الأطفال، ولن يتحرك هذا الباص بعد اليوم من أمام الباب.

ثم كسر زجاج الباص، وأتلف مقدمته، وهو يصرخ:

- ماذا لو انفجر الباص بالأطفال؟ ماذا لو ماتوا بسببي؟ تأثر أحد الآباء، فضمَّ أطفاله إليه، وهو يقول:
- لا مدرسة بعد اليوم.

نظرت لعمر:

- أريد ماء.. ماء يا عمر.

شربت الماء وغبتُ عن الوجود مرة أخرى... ذهب بي الغياب لهذه البلاد العرجاء في سيرها، والتي تتعثر في كل مرة بمطبخ يرددها للخلف، لم أعرف من أين أبدأ بالصراخ، من أين أبدأ بالتعبير الغاضب، من ساسة مختلفين؟ من جهات غير متفقة؟ من أعداء للحياة يحاربون شعوب الأرض...

أيتها المدن المتأكلة، في صمت المآذن، الغارقة في سبات الجهل... متى ترين يقين الله؟ متى تغردين؟ وينذر صباحك بالقدوم؟ متى تعود الابتسامات المسلوقة من شفاه أهلك؟ متى يغادرنا هذا الرعب؟ وهذا الرهاب؟ وهذا اليوم الذي لم يكف عن التحديق بنا؟ متى يأتي آذان إقامتك؟ متى تقفين على قدميك؟ ويشرق بك الحضور؟ متى تعود خطوط طولك وعرضك لإحداثيات وجودك على الخارطة؟ الخارطة التي بدأت تفقد وجهها، وتغيب بين الركام؟

في الصباح كنتُ أجدُّ إلى سقف غرفتي، فيما تحيطني يد عمر
النائم قربي... ما الفرق بين زمني وزمن عمر؟

هذه الرحلة الطويلة، التي قطعها عمر سيرًا على قدميه منذ ولادته
في ١٩٤٣ فترة الاحتلال الإيطالي لليبيا - حتى هذه اللحظة، وهو يمشي
على الطريق المؤدي إلى ليبيا، يحذوه الأمل، ابتعد، واقترب، خاض حربًا
ليس مقتنعا بها، هُمَّش في الغربة، عاش الاغتراب، تغير الحال - فعاد
الأمل لقلبه، فَرَحَ وظن أن قيام ليبيا قريب، قامت القيامة على ليبيا، ولم
تَقُمْ بعد.

ما الفرق بيني وبين عمر سوى أن كلينا يقتسم الجرح، ويقتسم
المعاناة، كلينا يحملها بطريقته، كلينا يروي للآخر رواية في رواية،
بالجينات الوراثية نفسها، بالعناوين نفسها، بمذاق التراب نفسه،
بالهوامش المتعبة نفسها، بالوجوه نفسها، والليل نفسه، والحظ نفسه،
ذلك الذي يبدأ في وضع أسعارنا، تبعًا لما يرسله لنا من معادن الرصاص
والقذائف، والمفخخات والصواريخ، ثم يترك لنا فرص إرسال
ابتساماتنا في الحياة بتقسيط مريح، فلا شيء اكتمل في محاق هذا الجزء
من البلاد سوى الأمل. الأمل الذي يلاحقنا كلجنة تأبى أن تغادرنا.

متى تسافر الريح؟ وتأتي إلينا رياحًا مليئة بالأمل، زاخرة بالحلم،
تضج بالحياة، وتعد بغدٍ مشرق وجميل؟ كل ما يهبُّ هنا يعصف بنا، لا
بد أن أصبر، وأتعلم من مسيرة عمر، هذه رسالة مقدسة للإنسان الذي
يحمل في قلبه الإيمان المطلق بنزاهة قضيته، وعدالة السماء، هذه الرسالة
ثمناها دم الشعوب، مهما يطل بها النضال، فالشعوب لا تموت.

غابت عني الرغبة في النوم، تحسست الدرج الذي بجاني، وقعت
يدي على مسودة الرواية، فأشعلت ضوء الأباجورة، وبدأتُ أقلب
صفحاتها الطويلة، أقرأ بهدوء، ويد عمر ما تزال فوق بطني، الذي صار
عبارة عن تجويف فارغ من الأمومة، ومن الحلم ...

صفحة ١٢٦:

تأخر إطلاق سراحنا، بعد صدمة تخلي النظام عنا، بقينا في ردهات
الانتظار، حتى تناهى لمسامعنا أنَّ القيادة التشادية تُخطِّط لأمر آخر،
وتتداول موضوعه خفاءً، فكان لزاماً علينا أن ننتظر القرار الأخير ...

أيقظني جندي اسمه حسين، ينام عادة بجاني:

- خويا نبيل، نبيل، نوض رانا احنا طالعين؟

نظرت لوجهه العريض، كان قائداً يقود مجموعته التي وقعت
بأكملها في الأسر، ومن المجموعة التي وفدت على السجن أخيراً، بعد
معارك حامية الوطيس في جنوب ليبيا، بمنطقة الواو تحديداً.

- وين طالعين يا حسين؟

- قالوا ينقلونا لسجن آخر، السجن هادا ما عاد يستوعب.

- باهي، هيا اني معاكم.

وقادونا إلى سجن كبير، سبقتنا إليه دفعات أخرى، حتى ظننتُ أن
الجيش الليبي كله هنا، وضعونا في سجون واسعة، وقذرة جداً، تطل
على ساحة تكفي لدخول الهواء، وتنتشر فيها الأمراض بسبب قذارة

الأماكن الخاصة، وإجبارهم لنا على قضاء الحاجة بشكل جماعي، حتى لا يُرهق الحراس. كنا كالبهائم حين تُساق جمعًا.

الليل هنا حزينٌ معنا، تنتهى فيه الأزمنة، لتعزف مأساتنا بأنينٍ ينطلق من أحد الجنود السجناء، مرددًا نغمًا مُبكيًا، يحكي ما دار من معارك في وادي الدوم، وأم شالوبة، كنت أتهادى مع كلماته، أستحضره وقت مراجعة مذكراتي هذه، حينما تناقله الناس بذلك الزمن في ليبيا، ذرفت الدمع أسوة بمن استمعوا له، ومن أَلتهم المعاناة، ورحلة عذاب شعبنا، وطول سنوات الحرب.

جيل تواری في الديرموم ..

ردمهم سافي وادي الدوم

عدوا في تشاد ..

بلاد القهرة، والصرهاد

الي راحوا سماح الميعاد.

غوالي السوم ..

على رملك ماتوا بالكوم

ثم يرد عليه آخر، ويكمل عنه بقوله "

أوزو المعطيه ..

يوم المخنق يوم رزيه ..

اللي يقتل في الحى وخيه ..
قال لزوم
اللي ما يخلها معدوم .
نبأ مفجوع ..
خبر ما خلى فيها دموع ..
اللي عدو معاد رجوع ..
ابكى مكتوم ..
كل شارع خيمة مرحوم
فيعاود الجندي الأول ويرد على الثاني قائلاً بصوتٍ بالك:
راحو اللي معانا ..
رفقة عمر اللي خلانا ..
مواقى تجم الصبر دوانا ..
جاء مرسول ..
قيم عزاء يا شينك يوم .
الله لا ترده ..
دعانا يا ربي من جده ..
معطل حق ..

تشاد اتهدده .. يوم بيوم ..

يبانن في هلهم زقوم^(١)

عايشنا سيرة الحرب محكية في حزنهم .. وكنا نمتنُّ لها، لأنها
وثَّقت مجازر كنا سننساها، لولا الشعر الغنائي والمحكي في التراث.

بعد أيام ..

دعتنا أقطابُ المعارضة الليبية في الخارج، للانضمام لها ما دام
النظام قد تخلَّى عنا. دار السؤال بين الرؤوس، وعلقت النظرات في
بعضها البعض، فكروا، دبروا، تناقشوا ...

قال العميد عبد الله:

- علينا أن ننشئ جيشًا خاصًا بنا، نُدرِّب فيه جنودنا، ونطلب من
النظام التشادي أن يدعمه، ثم ندخل به بلادنا لنقلب النظام هناك.
شجّعنا حسين هبري، فقد كان من مصلحته أن يقود انقلابًا ضد
القذافي، كردة فعلٍ على دعمه لحركات التمرد، والمعارضة في تشاد التي

(١) مجمل المعنى يتحدث عن جيل توارى في مجاهل الصحراء التشادية، بلاد القبيظ
والحرّ، فرسان دُفِنوا برتبهم العسكرية، كأكوام من البشر، لا تعداد لها، بسبب
أوامر صارمة بضرورة دخول أوزو، واحتلالها، وإلا فالشق جزاء من يرفض
تنفيذ الأوامر، يعتبرون ذلك فاجعة أفقدتهم الألوفا من إخوة الدم، فحرق كل
جيش الآخر، وتناثرت خيام المآتم فوق أرض الوطن حزنًا وبكاء على الفقد.

يقودها إدريس دبي^(١) في معسكراته بجنوب ليبيا.

خرجنا من السجن، وخضعنا للعلاج المدعوم من المعارضة الليبية في الخارج، في ذلك الوقت كنا نُعزِّي أنفسنا بفقدان عشرات الجنود الليبيين، الذين أصيبوا بالملاريا، وأمراض السجن الصدرية، والمعوية، تلك التي لم تتحملها بعض الأجساد.

حسنْتُ من شكلي، وحلقتُ لحيتي، واعتنيتُ بنفسي جيداً، نظرت لإصبعي المبتورة من أعلاها، يبدو أن قدرتي، وقدر أُمي وأبي أن نخرج من الحروب، ومعنا ندوب تفتح باب الذكريات كلما شاهدناها.

شرعنا نُدرِّب جميع التخصصات، ولما استقوى جيشنا، قمنا بالإعلان عن جيشٍ ضد نظام القذافي، ينتظر الإشارة لدخول ليبيا وقلب الحكم على القذافي، جنَّ جنون القذافي، وحاول إرسال المجندين للقضاء على القادة لدينا، ولم ينجح ذلك رغم تكرار المحاولات التي جعلتنا في حالة توجُّسٍ دائم، خوفاً من الغدر، والغيلة.

قال حسين رفيقي في التدريب:

(١) رئيس تشاد، ورئيس حركة الإنقاذ الوطنية. ينتمي لقبيلة الزغاوة "Zaghawa" التشادية-السودانية. أُرسِل إلى فرنسا للتدريب، وعاد إلى تشاد في ١٩٧٦، بقى موالياً للجيش وللرئيس فليكس معلوم. دبَّ خلاف بينه وبين حسين هبري رئيس تشاد الأسبق، واتهمه هبري بالتخطيط لانقلاب. استولى على أنجamina سنة ١٩٩٠، اتسمت علاقته مع ليبيا بالود والتقارب بعد أن كان من أشهر أعداء ليبيا خلال الحرب بين البلدين.

- نحن على المحكّ يا نبيل.
- كيف؟ لم أفهم؟ ماذا تعني؟
- لو فكرتَ جيداً يا نبيل، نحن بين عُقدتي المنشار.
- صدقت يا حسين .. لا يمكن السكوت على ذلك.

اضطرتني ذلك للاتصال بباقي القادة؛ لتحصين جيشنا ضد الطرفين؛ لأننا نخشى خيانة الطرف التشادي المدعوم من فرنسا وأمريكا، ونخشى من النظام الليبي الذي يبذل ما في وسعه لاختراقنا والهجوم علينا، مُستعيناً بقوات حسين دبي.

قال العميد عبد الله:

- يجب أن نستغلّ الوقت في التدريب، واكتساب قوة زائدة، فإذا تعرضنا للخيانة المذكورة سندافع عن أنفسنا، ضد أي طرف يتهجم علينا.

كان التكتيك العسكري الذي رسمناه، هو تقوية قواتنا داخل إنجامينا، للسيطرة على معقل الرئاسة التشادية، ثم وضعها في قبضتنا للمساومة بها في حال تعرضنا لأي خيانة.

حاول النظام استدراجنا، عن طريق مناشدات العائلات التي استعطفته لعودتنا، واستطاع استدراج بعض الضباط الذين ذهبوا واثقين في قراره، فتم إدخالهم للسجن، والتخلّص من آخرين ما إن وصلوا.

وبعد معارك كثيرة دخلت قوات إدريس دبي لتشاد، وهرب حسين هبري للكاميرون، حاول الأول الاقتراب من قواتنا، فتصدت له، وحذرته بلهجة شديدة من الدخول إلى إنجامينا.

اقترحت فرنسا الوساطة بين الطرفين، بأن توفر لنا ممراً آمناً للخروج نهائياً، مقابل دخول قوات إدريس دبي للعاصمة التشادية، تدارسنا الأمر طويلاً، ثم اتفقنا معهم على ممر آمن إلى دول إفريقيا.

ظلَّ الإحباط الشديد يلازمنا، بعد فشل مخططنا للإطاحة بالنظام الليبي، وبناء على تغيرات المعادلة المتوقعة، عرفنا أننا في خطر، بسبب قوة نفوذ النظام الليبي في أغلب دول إفريقيا، خاصة في مالي، وتشاد، وكينيا، وجنوب إفريقيا.... وغيرها.

والآن مضى أكثر من شهر، ونحن نتنقل بين دول إفريقيا، ونخبر الموظف الأمريكي القائم بأعمال البعثة التابعة للأمم المتحدة، أننا نتعرض لمحاولات اغتيال، وملاحقات من قبل أعوان النظام، حتى تفاهموا معنا على الهجرة إلى أمريكا، وقاموا بالحصول على تأشيرات لنا للمغادرة نهائياً من إفريقيا.

عندها أشاعت القنوات الليبية أنَّ المخابرات الأمريكية قامت بتجنيدنا، كجواسيس لصالحها في حرب الخليج الثانية، وأنها تدفع لنا مقابل عملياتنا هناك، وتخطط لتدريبنا في الولايات المتحدة للقيام بهجمات مضادة لعدة دول عربية. صبرنا طويلاً إلى أن تمَّ اللقاء الثالث،

بالبعثة الأمريكية التابعة للأمم المتحدة، وبدأنا في انتقاء الولايات التي سنعيش فيها، على أن يتم نقلنا إليها في غضون يومين ..

تنهَّدتُ سمر وقد أنهت فصلاً من رواية المنسي، وهي تقول لنفسها:

كان يحلم بالحرية من السجن، والآن يحلم بالاستقرار بعد الربيع، إنه يُجسِّد شعبنا ببساطة، الذي دفع ثمنًا مستحقًا من أرواح أبنائه من أجل بناء الدولة، ولا بد للعالم أن يحترم طلباتنا الإنسانية، وحقوقها، وغايتها السامية والنبيلة، التي يختصرها العيش بكرامة كقيمة فاعلة، في احترام رسالة الإنسان لجوهر الوجود.

وكل مَنْ شارك في هذه الحروب المستدامة، من أبناء شعبنا المجاهد، مضى إلى طي الغياب، أو ظل عالقًا في ألبوم الذكرى، ليمهد للأجيال التي بعده الطريق، غادرونا وتركونا مع صورهم الباهتة، والتواريخ التي تُقيِّدُها، وتجعلها في شرنقتها الزمنية ... وفي هذا المقام، أحمد الله أنك عدت من العصر الحجري للحروب، إلى عصرنا الآني للاستقرار، بمشيئة الله، ولطفه بك يا عمر!

كيف تُقاومُ موتك؟

يوم الأربعاء....

بعد أن تعافيتُ إلى حدٍّ ما، حاولتُ إلَّا أركنَ إلى الكسل، فالوقت يمضي محسوبًا من عمر الدولة، وأي تأخير عن منجز أو نشاط، تقوم به مجموعة ما في بنغازي، يعني أنك كونك فردًا تُساهم في قتل الحياة المدنية في المدينة، هنا لا يعرفون لغة الموت، ويُسلمون قلوبهم لله، يتركون للقدر مهمة حسم أقدارهم، ويرفضون أن يستجيبوا للخوف.

في المسرح بمنتزه بنغازي، قُرب سلسلة مستشفيات خاصة وعامة، ومحطات بنزين متقاربة، ونقاط متناثرة لانتشار الجيش الليبي، كان علينا أن نحاول إحضار أكبر قدر من الناس، لإقامة أمسية شعرية، ومعرض للفن التشكيلي، وحفل تكريم، قضينا أسبوعًا ونحن ننشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وندعو النُخب والمؤثرين في حياة المدينة، من الكتاب الموهوبين، والشعراء، والرسامين في محاولة لأن نعالج الخوف الذي تتركه التفجيرات الانتحارية بنفوس الناس ...

كان هذا صعباً في البداية، ومع مرور الوقت أصبح مدعاة للإقبال على التعايش، والانتصار للحياة، كسلاح في يدنا، وكأداة تمارس حَقَّها بشراسة وقسوة، فمع الإرهاب والخوف لا يمكن أن تكون ضعيفاً، لأنك إن فعلت ذلك سيقضي عليك، ويدحرك في غربة بيتك، ويسكنك ويتمكن منك، ومن مدينتك.

الحضور كثيفٌ، والنور ينبعث، يسعدني أن عدداً كبيراً من الناس حضروا، ومنبع سعادتي هي روح المقاومة بالشعر والفن، الفن سلاح يقاوم الحرب، يدحر ظلمة الأرواح، ويهدئ من اغترابها، وشعورها بالجفاء، الفن يروي القلب، ويجعل العقل في حالة سلامٍ مع العالم الذي حولنا.

كانت الحماسة تتزايد، أردتُ أن أقول نصّاً يذكرني بمن فقدناهم، فعدلتُ عنه حين رأيت التفاؤل يشعُّ كالنور من قلوب الناس، وقررتُ أن أزغ وردة في كُلِّ قلبٍ، وزهرة في كُلِّ وجدانٍ، لعلِّي أُعيدُ استنبات حقولٍ من الحبِّ، كانت غارقة في مياه الحزن الضحلة التي غمرت بساتين قلوبنا.

جلس عمر كعاشقٍ ينظر لي من أقصى يمين المسرح، مُطلاً بروعته، يكتنفه الصمت، ويستغرقه التأمل في هيئتي، عندما حضرت هذا اليوم، لم يشأ أن يظهر معي، تركني على سجيتي، وكأنه يقول لي: افرحي بانتصاراتك وحققني نجاحك، أنا أراقبك من بعيد، ولن أسرق منك إنجازك، ولن أشعرك بالوصاية عليك، كان يطل بين حين وآخر، تارة

يدخن سيجاره، وتارة يتحدث مع شخصيات يعرفها، وتارة يرتشف قهوته مع مجموعة تقتني المشغولات التراثية.

لا أفهم كيف يقترف الناس هنا المشغولات اليدوية، كيف يصنعون هذا الجمال بأصابع فنانة؟ كيف تنضمُّ النساء التاورغيات المَهْجَرَات من مدينتهن تاورغاء^(١)، هذه العقود الجميلة، والأساور المصنوعة بدقة متناهية؟

تاورغيات لا يفرقن عنا بشيء، سمارهنَّ جميل، وحديثهنَّ تتمازج لهجاته بين لكتة غرب ليبيا وجنوبها، وقد تأثرن بلغة شرق ليبيا بعد نزوحهن إلى بنغازي. كان صمتهن يئنُّ تحت رزح التمييز وانتصار الفوقية، ضد وحدة التراب الليبي. كنْتُ أراهنَّ وقد أكل الحنين ملامح وجوههن، يقبلن بابتسامات ودیعة، ويسلمن على الجمهور الذي يشتري مصنوعاتهن اليدوية، يقاومن بأصابع ناعمة هذا التهجير، كنْتُ أُللمُ الليل من ملامحهنَّ، وأصنعُ به قصيدة تليق بهنَّ، فأكتبُها ودمعةً تنحدرُ من خدي، مُتوسلةً إلى الله أن يرجعن تاورغاء، وهنَّ آمنا، عزیزات، شائحات كما يليق بهن، كنْتُ أراهن، وأستشعرُ في عيونهن حكايات طويلة، طواها البُعد في تجاعيد المسافة، ودفنها الحزن في قلوب ذابت من الفراق، ورواها الليل في أنین اشتياقهنَّ.

أنین تواطأ مع قصص مخفية في السجون البعيدة، ينفجر كلما تناهى إلى مسامعهن موتُ أحد أهلهنَّ أو أقاربهنَّ تحت التعذيب، أو انتهاء

(١) تاورغاء: مدينة ليبية مَهْجَرَة، وخالية من السكان بُعيد ٢٠١١.

حياته دون محاكمةٍ عادلة، كنتُ قبل أيامٍ قد كتبتُ عن سيدةٍ تاورغية اسمها فوزية شلغوم، ماتت في سجنها تحت وطأة التغيب والتعذيب. لم يهتز مجتمعنا لموت فوزية، المنيوذة هي ومدينتها منا، ولم يهتز لاغتصاب أخريات.

لله أنت يا تاورغاء، ما أبعد الشوق عن اللقاء! وما أثقل ظل الانتظار عليك!

خرجنا بعد الانتهاء إلى قاعة تعجُّ باللوحات الفنية، ولأول مرة منذ بداية المساء أجد نفسي أبحثُ عنك، وجدُّتك وكأنك تنتظر بحثي عنك، اقتربت منك، أريد أن نسرح في هذا العالم المليء بالفن، ضعنا معاً بين الصور، كنا نهبُّ الأملَ لأننا مُحَبَّان يُشعَّان بالدفء، وهيئة ملامحنا تقول إن هذا الوطن سيكون، ها نحن بأسلحتنا الواعية نحارب الموت، نخاطب العقول، نراها بالضوء، ونترك للأجساد حقَّها في الحياة، نتركها تنجو بفرص النور نحو حياة أجمل، نطمس الرصاص ولغة المعدن في صناديق السياسة والدور المغلقة، في رُدهات القاعات السريَّة، ونعلن على الملأ أنَّ الحياة تبدأ بصرخة، وتستمر بضجيج الكلمات.

- نحن مجرد رحلة فاصلة بين هذه الكلمات وتلك.

قال عمر، مشيراً إلى لوحةٍ تُعبِّر عن عصفور في قفص يرنو للنافذة.

- نحن العصفور، وتلك نوافذنا نحو الحياة.

- أراكِ تقولين الشعر في تفسيرك.
- وهل غير الشعر يا حبيبي يقولنا؟
- الفن، الغناء، الرواية، القصة، الشَّعر، كلها ظواهر لغوية،
حبيتي.
- إذا، ما تعريفك للغة؟ إذا كانت هذه الأشياء تبدو ظواهر على
جسد اللغة؟
- اللغة ليست وسيلة تعبير فقط، وليست أداة تعريفها، اللغة
كائنٌ، كائنٌ فينا، ولهذا كل هذه الأشياء تبدو ظواهر مُعبِّرة عنه.
- لا يمكن أن تعدو اللغة وسيلة، أتفقُ معك.
- أراها كائنًا، له فروقه الفردية، بينه وبين غيره من أقرانه، أظنُّ
أنها ماهيتنا باختصار.

كان لحضورك نشوة الانتصار الأول لي كأنثى، تحاول أن تضيف
لوجودها قيمة ذات معنى، ترسم خطواتها بفرشاة ألوانها مَن تشكَّلت
مِن وجودك الجميل، ومِن ثرى انبعاثك كونك آدم ستبارك حواء
للضلع الأعوج استقامته.

في كل ساعة تمرُّ، يتزايد الحضور وتبدأ نوتة أخرى في المسرح،
موسيقى صادحة يقطعها شاعر بقصائده، يُكمل وتكمل معه رحلة
الكلمات، وتبدأ الحماسة والتصفيق في دورة جديدة.

استغرقتُ مع الصحف في اللقاءات، وإجراء المحادثات، والمثير في
الأمر أن المصورين لا يكتفون بنا كوجود له حضوره، بل يقومون

بتنزيل صور الناس معنا؛ لإضافة الرغبة والإقبال على حياة الفن والأدب بالمدينة، وترك حافظ يبيث إشاراتهِ للعودة مرة أخرى.

في هذه الأثناء دخل أشخاص وكأنهم تأخروا في المجيء، كان الشرطي على الباب يُرَحِّبُ بهم، متفحصاً شكلهم، وباحثاً عن أي شيء يلفت النظر معهم، فقد كان الحذر واجباً تجاه أي اختراق أمني، نظر عمر لأحدهم، تفحصه مدةً طويلة، تركني ولحق به، حتى دار الرجل في أرجاء المعرض، واقترب من مكاني، كنتُ أتابع نظرات عمر، إلى أن تجرأ وسلَّم عليه:

- أهلاً بك في المعرض أستاذ؟

نظر الرجل لعمر:

- أهلاً بك سُررتُ بالمعرض، أنت فنان؟

- لا، لستُ فناناً، ولكني أحد المتابعين للمعرض، مَنْ حضرتك؟

- أنا المنفور المقرحي و ...

لم يكمل الرجل كلامه، حتى شهق عمر، ونظر إليه بتفُرس، يا الله! لهذا السبب لحَقَّ به، شعر أنه يعرفه لحيته، شعره الذي اختفى، نحافته، بعد أن كان رجلاً صحيح البنية، كان عمر يشعر أنه قابله من قبل، نعم إنه المنفور، المنفور الذي كان يقول له: أنا وراء سيدي القائد مضت أكثر من ثلاثين سنة، ولم يتقابلا إلا بعد ربيع فبراير.

- يا رجل. يا رجل .. ألم تعرفني؟

حدّق الرجل طويلاً إلى عمر .. ثم بدأ يقول مُشيرًا بإصبعه:

- لا أعلم .. ولكن كأني شاهدتُك من قبل.
- يا رجل ... سوق الحوت .. سوق الظلام .. برنيق ... الرئيس عمر؟

- لا، لا. انت مش الرئيس عمر قاسم ..
- بل عمر قاسم منفور يا صديقي المنفور!

وتلفقه الرجل، واحتضنه بشدة، كنتُ أراقبهما يحتض كلُّ منهما الآخر، يعبران خلافات المرحلة المقيّنة، من سبتمبر، إلى فبراير، كنتُ أرى الرجلين يتعانقان، وكأنهما تذكرا مأساة قديمة، وألماً مُتجدّداً، فتناثرت الدموع من هذا وذاك، وسمعت صوت أنينهما، وكأنهما يبكيان ليبيّا. سمعتُ عمر يضحك بين دموعه، وهو يقول:

- لم أكن أعلم أنك مهتمُّ بالأدب يا سي المنفور.

بادله المنفور الضحك بشدة:

- والله يا سي عمر، من الفراغ، والخوف، والحبس بالبيت، طلعت للمعرض، وأنت امتى جيت؟
- أنا يا سيدي جيت في فبراير ٢٠١١، والتحقت بالمحاور، وبعدين رجعت ٢٠١٤ واستقرت في بنغازي، بس ما قابلتني.
- صح، أني طلعت في ٢٠١٣ بعد التهديدات بالقتل، والاختيالات، والتصفيات في بنغازي، طلعت، ورجعت في بداية ٢٠١٦ لما سيطر الجيش، خفّ الأمر علينا.

- الحمد لله على سلامتك .. هل هدّدك شخص أو جهة؟
- هددوني أشخاص، بتهمة أُنِي من أْزلام النظام، هربت لمصر وبعد هكا رجعت وسكنت في حي آخر.
- معاك مجموعة روحت؟
- إيه نعم .. في ناس من طرابلس، ومن ورفلة^(١)، رجعوا من مصر، وتونس، وسكنوا هنائي في البيضاء، وبنغازي، وبعضهم اختار طبرق، وبعضهم رجع ورفلة، وسبها.
- تنخّى عمر مع صديقه المنفور عن طريق رواد المعرض، ثم قال عمر:
- اسمعني يا المنفور .. تعال زورني في البيت، أو في الهلال الأحمر، أنا بس معي زوجتي، وتنتظر هناك.
- وأشار إليّ واقفة بانتظاره، فيما كنتُ أدرشُ مع إحدى الصديقات عن الشعر:
- باهي عطيني عنوانك يا سيدي عمر هيا.
- وكتب له عمر عنوانه، وأخذ هاتفه، ثم قال له ممازحًا:
- راك تضيع مني، بعد ما لقيتك.

(١) ورفلة: هي مدينة بني وليد الليبية، نسبة ورفلة لها بسبب أكبر تجمع لقبائل ورفلة فيها.

كنتُ أبتسمُ، بل أضحكُ حين صعدنا السيارة:

- ها قد وجدت المنفور يا عمر، أحد المفقودين لديك.

ابتسم عمر:

- نعم، هو المنفور اسمًا في شهادة ميلاده، وفعلاً من مجتمعنا!

- لماذا يصرون على التسميات الغريبة في مجتمعنا؟ هل القصد

منها العنصرية، والتقسيم؟ بربك ماذا تعني جملة أزلام النظام؟

أدار عمر السيارة، وخرج من بوابة المنتزه، ثم انعطف نحو شارع

دبي، وهو شارع واسع يتميز بتسويق الماركات العالمية فيه.

- أزلام النظام معناها أنصار النظام السابق.

- عمر... ألسنا جميعنا أبناء تلك الحقبة؟

- نعم، ولكن بعضهم كان مُقَرَّبًا.

- في رأيي هو مواطن ليبي، أما تصنيف أزلام وفبراير وسبتمبر،

غير مقبول.

- هذا لأنك مثقفة.. ماذا تقولين للعقول التي تمارس العنصرية،

والإقصاء يا سمر؟ لا أحد يتفهم.

- إنه واجبنا في رأب الصدع يا عمر، نحن كلنا أبناء ذلك الزمن،

فهل يجذف الإنسان فترات عمره من مرحلة النظام السابق؟ هذا غريب

جداً!

- علاوة على أنها مرحلة جهل وتحلف، ولكن فيها مزايا

وخصائص، أسوة بمرحلة فبراير المجيدة.

- آآه لا تقل مجيدة، وقبلها الفاتح المجيدة، لا مجيدة سوى هذه البلاد، ليبيا المجيدة.
- عزيزتي لا تتذمري، رجل مسالم مثل المنفور يشعر بالزُّهاب الاجتماعي من الناس، يشعر بالتهديد، ويشعر بالعنصرية.
- عمر، في المقابل فكّر أنت أيضًا في رجل من فبراير يعيش ملامًا، بالتقريع، والجلد لأنه قام بالثورة.
- ماذا تريدين أن تقولي.
- أريد أن أقول لك إننا نعاني تفكيرًا متأزمًا فعلاً.
- حسنًا يا سمر... ثمة وجهة رأي في كلامك.. كأنك تقولين فكروا في بعضكم البعض.
- نعم.

ونظرتُ إليه بطرف عيني وقد اقتربنا من البيت، فقلتُ في نفسي: كم من الجميل أن أتحدث إلى عمر! لديه مرونة في التفكير، وقابلية كبيرة للانفتاح على أفكار الآخرين، يتقبلها ويُعيد تدويرها في باله، ثم يتفهّم التوجُّه في أفكاره دون أن أسمعَه يصرخ.

انتهى يوم الأحد من مايو بحالة تدمير واسعة، طغت على المدينة بصورة واضحة - عن الوضع العام في ليبيا، اشتكى فيها الناس عسر الحال ونقص الموارد الغذائية، وسوء الأحوال المعيشية، وكثرة الوقوف في طوابير مملّة تملأ الشوارع دون فائدة تذكر، طوابير تترجم ببؤس كسادنا الأخلاقي، وتعطل لغات الحوار بين مجلس النواب، والوفاق

والرئاسي، وفشل المبعوث الأممي الرابع إلى ليبيا ... كان الغضب الشعبي قد بلغ مداه، حتى أنَّ المصرف المركزي اضطر لطبع عملة محلية لتغطية هذا العجز.

رأيتُ بعض العائلات تتساقط من الجوع، وبعضها يتساقط من الأنين والوجع، الذي استنزفَ الاقتصاد الليبي، وجعلنا نعيش حياة تقشف مُعلنة، منذ أربعين سنة، وحتى يومنا هذا.

كنا في الطريق إلى مستشفى للأطفال لدعم قسم أمراض الدم بما جمعناه من التبرعات المحلية للمرضى، خرجنا مُبكراً وقد خلا الطريق من السيارات تقريباً، شاهدنا أنا وعمر سيدةً ورجلاً ينكشان أكياس القمامة .. وبحثان عن شيء يطعمانه لجياعهما في هذه الظروف الحالكة فلم نجد بداً من التوقف من أجلهما ومساعدتهما ببعض ما لدينا من مال.

هذه الظروف ليست في بنغازي خاصة .. إنها أيضاً في مكان آخر من ليبيا .. وفي دول تشبه حالنا .

منافي الألم

أعيدُ ترتيبُ نفسي، وأستعيدُ تفاصيلي، كلّما تذكرت أفضالك على إنساني، ستظلُّ كلُّ أنثى مثلي، شاكراً لرجل يعرف كيف يقرأ عقلها، وكيف يُقدر أنوثتها، وكيف يدرك تفاصيلها، وكيف يعاملها كإنسانة، سأعيشُ وأنا أنحني للإنسان الرجل، الذي يعلم أن الحياة ليست خياراً لطرف واحد، إنها خيارنا جميعنا، كلُّ يدٍ تمتدُّ للنور، تصنعُ شيئاً، وكلُّ نورٍ يضيء الظلام، يفتح عقولاً مغلقة.

عزيزتي فريدة:

لا أخفيك أنني مقهورة مما حصل معنا في السابق، ومعكم الآن في طرابلس، إنَّ قلوبنا ترنو إلى هناك، لم يشهد التاريخ الإنساني مدينة تعيش تحت رزح الظلم، كما يشهد على طرابلس الآن، وأضيف لك أنَّ هنالك مدناً ليبية أخرى تحيا تحت وطأة الشعور بالخوف ...

عزيزتي فريدة ..

وأنا أخطب إنسانك الجليل، أتساءل عن دور الشعوب الأخرى معنا؟ الشعوب التي نُعجب بأدائها، وتعاملها مع الإنسان؟ لماذا لا نسمع لهم صوتاً؟ ولماذا لا يتواصلون معنا؟ أنت تعرفين أن تلك الشعوب ذات صوت مسموع، وحراكها له وزنه، وقيمتها، ونحن نحترم الإنسان الذي يعيش داخل كل جنس، وعرق، ولون، نحن يا صديقتي مع الشعوب ..ولسنا مع الحكومات التي تستغل وضعنا الحرج.

أتخيل ذاكرتي، وخيالي الخصب... يذهبان لأشياء جميلة تليق بالبشرية، فلو كانت هنالك حركة عالمية اسمها حركة شعوب، كالتي أخبرتك عنها بالفيس بوك ذات حوار، لما استطاعت السياسة أن تفسد حياة الإنسان، ولا استطاعت شعوبُ العالم أن تردع السياسة الذين خربوا الحياة المدنية على كوكب الأرض.

لماذا لا تمتلئ الأرض بالإعمار، والمشاريع والتطوير؟ لماذا لدينا أمم متحدة غير متفقة، أمم حراكها على مرّ الأزمان - لم يسعفنا نحن شعوب الشرق الأوسط لينصفنا، ويعيد لنا حقوقنا الشرعية، ويكفل لنا العيش بكرامة كأبي شعبٍ من شعوب الأرض.

يتساءل أهل أوروبا عن هذه الأعداد من الهجرة التي تنهافت عليهم، ولا يتذكرون أن حكوماتهم، وأطماعها، وسياساتها تجاهنا، هي التي أوصلتنا نحن للخروج من أوطاننا، حين أحالوا أراضينا لمسرح معارك، وتصفيات سياسية بينهم.

هأنذا أرى العراق، أرى فلسطين، أرى سوريا، أرى الصومال التي
تستشري فيها المجاعة، وأرى ليبيا، واليمن، ثم أتساءل: هل هذا ما
وصلنا إليه بمساندة الأمم المتحدة؟

عزيزتي وصديقتي:

الأمم المتحدة ليست متحدة إلا حين تتفق توجهات الدول
الكبرى، أتمنى أن ينتج العالم كياناً جديداً، يليق بالإنسان، يشرفه،
ويُكرِّمه، اسمه أممٌ من أجل الإنسان.. أمم من أجل حياة أفضل، هذه
هي الشعوب يا صديقتي، وبمناسبة ذلك أحب أن أبعث لك صوراً
جميلة، فيها مشاهد إنسانية لشعوب من مختلف بقاع الأرض، ستسري
عنك كثيراً.... يجب ألا تفقدي الأمل، لأن النور يأتي بعد العتمة يا
صديقتي... هذا أكيد.

محبتك سمر

في العادة حين أكتب لفريدة، أحبُّ أن أطرح عليها الأسئلة،
لأجعلها تفكر، وتنسى ما هي فيه، أحبُّ أن أستثير ذهنها كي تسري
عن نفسها، وتناقشني وترد، وهكذا أخلق لها جواً يجعلها تخرج مما هي
فيه.

وحين ألوذُ بنفسي، لا أعرف كيف أبدأ في فتح مغاليق روحي،
التي سُدت نوافذها، وأوصدت أبوابها، وصار وجودها في المجتمع
مجرد جسد، يروح ويحيى، في انتظار أن ترفع عنه آلة القمع الفكري،
وآلة الحرب المعدنية، حصارها.

لأنني في أبسط احتمالات تعريفني إنساناً، خُلق من رحم هذا الطين، نفخ الله فيه الروح، لا ليقضي عمره بين ترهات السياسيين الكبار، الذي يلمنون بأن تلتصق مؤخراتهم بالكراسي للأبد، بل ليمضي إلى صناعة رحلته، يزرع اليقين بالله، حُباً وخُلُقاً وسمواً ورفعاً.

أنا نهارُ هذه الأرض، نورها وفكرها، شمعة تحتاج ظلمات الخوف، كي تبعث نور الإنسانية مُشعاً، ذلك النور الذي يمدُّ يديه، وأشعته للعالمين في جبهات القتال، للمحتاجين ليدُ تربت على أكتافهم، للذين لا يصلون لقطرة ماء في يومهم، للجائعين الذين يفقدون قوت يومهم، للمهمشين الذين يشعرون بالعنصرية، والإقصاء، للعابرين مسافات الأرض كي يحصلوا على ملاذ آمن لهم، للعيون البكاء التي لا تنام ليلها، وتظل تطرق أبواب الانتظار؛ كي تأمنَ نفسها في معابر الحياة، للقلوب الراجعة الراجعة التي تبحث عن السكينة، في بيت بسيط، يؤويها من شر آلة الدمار والخراب.

أنا في أكبر احتمال، قائد هذه الرسالة الكونية، رسول الله في الأرض، نبي السلام، صاحب ديانات الزهور والياسمين، مبدع قانون الإنسانية، مخترع خير دساتير الأرض، فأول مادة فيها تنصُّ على احترام كينونتي، وعدم هتك المعاهدة بيننا وبين صيرورة الطين.

أنا مَنْ يتهجَّى تربة الأرض، باعث شعوبها، منابت شعري الأشجار، وقوة قلبي مزروعة فوق شفاه الأزهار، مائي يمرُّ سلسيل بين ممالك الطين؛ لأغمر بالطمي طيبة هذه الروح الإنسانية، أنا المنسي في

رحم الحياة، والسائد فوق أجناس الأرض، أنا هنا .. أنا هناك في كل الأنحاء.

كنتُ أُحرِّرُ هذه الكلمات، وأنا جالسة قرب الأريكة في بيتي، خرج عمر وبقيت هنا، أنظر وأتأمل، أتشربُ حواسَّ المكان، لأضيفها إلى قلبي، كي يتحسَّسَ أكثر كينونة المكان الجديد الذي انتقلنا إليه، كان من الصعب الحديث عن أريحية هذا المكان، لأنه لا يترك مجالاً للتعليق عليه، في ظل هذا الزخم الذي نعيش فيه، وفي ظلَّ الانتقال من مكان إلى آخر، يظلُّ من الصعب أن نتحدث عن شيء حميم، ونحن نتوقع أن نتركه دون مقدمات، بسبب ظروف الحرب في البلاد.

في هذا الحين .. كانت تحركات الجيش الليبي، هي الوحيدة التي تعطي مؤشرات على قيام الدولة الليبية، بعيداً عن تنافرات - وتجاذبات الساسة، وتكالبههم على ضخ ثروات ليبيا في جيوبهم، حتى تحولت المرتبات الشهرية للسكان إلى مصروف جيب مُقتطَع - على هيئة منحة يتدبر بها المواطن أموره، شاء أم أبى.

وسألت نفسي: لماذا يتدمَّرُ العرب من سلطة العسكر؟

رغم إيمانهم المطلق داخل أنفسهم، بأن بلدانهم تحتاج للضبط أكثر من الحاجة للحرية، وكلما شاهدت ماذا يحصل في البلدان العربية، وسمعت آراء الناس فيما يدور ويحصل، عن سيطرة الذئاب على مقدرات الحياة، عن اغتصابات الكلاب الشاردة للنساء، عن تفجير الغربان لبيوت الناس الآمنة، عن سكاكين يتم سنُّها لتذبح الإنسان

العربي، باسم الدين، عن إسلام لا نعرفه يزعمون أنه ديننا، عن مجموعة لصوص خرجوا علينا، فزاد عددهم أكثر من أربعين حرامياً، وصرنا أمام موسوعة غينيس، نعد ونحصى الذين دمروا فينا رغبتنا في التعايش السلمي، آمنتُ بأن الناس يأمنون لسلطة العسكر، كونها تردع إلى حدٍّ كبير هؤلاء، فهؤلاء لا يحتاجون لرجل قانون يحاكمهم، هؤلاء يريدون عسكرياً يقاتلهم حتى يزيحهم، ويجعلهم يغربون عن حياة شعوبنا.

هذا المنطق لا يجعل البعض يسكت، فهناك مَنْ يصيح ويشكو، ويثُنُّ خوفاً مِنْ بطش سلطة العسكر، وثمة من يقول إن العسكري شخصٌ بلا رحمة، ودكتاتوري، وربما قاتل مأجور، وثمة مَنْ يقول: لم يستطع العسكر أن يجمعوا بين المرونة تجاه الانفتاح المتمدن، بحيث لا يصادرون الحريات والتعبير وبين القوة في إدارتهم للأُمور. لكنني أُعيدُ طرح السؤال الكبير، الأكبر على الإطلاق: لماذا تُستهدف الجيوش العربية بالتدريج؟ جيوش انتهت، وجيوش يجري إنهاؤها، جيوش تتم محاربتها، وجيوش تُحرم من الدعم، جيوش يُقطع عنها الإمداد حتى تخر ساقطة، وجيوش تحارب بدمها كي تستعيد دولها، التي تُسحب منها.

لا أعلم متى سترتب كونداليزا رايس شعرها؟ ومتى ستُقرَّر أن تُصَفَّه؟، وتغير خطابها السياسي عن الفوضى في الشرق الأوسط، لا أعلم متى سيحين الوقت، لتؤسس دولة خلاقة، أفكارها مُرتَّبة؟ الموضوع أكبر من أن يبدو خياراً لنا، أو حلماً نحلم أن نُنشئه دون

تحفظات، الموضوع كما يظهر لي حين ألقى الناس، وأنظرُ إلى هذا الاختراق في دولنا العربية، يجعلني أشعر أن أحلامنا بعيدة التحقق عن ديمقراطية أصيلة، وصحيحة.

ربما لأننا نفتقد أصلاً للسلوك الحضاري العقلاني، البعيد عن العشوائية والانفعال، الذي يعدُّ أول أساس لتكوين ديمقراطية صحيحة. وربما لأننا في فصامية حقيقية عن واقعنا، ذلك الواقع المتناقض مع نفسه، فمن جهة نحن مسلمون، ونحلم بمجتمعات متحررة، وهي بطبيعة الحال تصطدم في حاجتها للتحرُّر بأحكام النص الديني.

ومن جهة أخرى نحن نخلق لأنفسنا واقعاً مريضاً، ونُكرِّس له ولاءنا كوننا أشخاصاً، كوننا قَبْلُنا بتشكيل الأحزاب في مجتمعاتنا، فمنها الليبرالي، ومنها العلماني، ومنها الإسلامي، ومنها الديمقراطي، ولكلٍّ منها أدواته، وتوجهاته. فكيف يحكمنا حزب ليبرالي، أو علماني، ونحن في عاداتنا ويومياتنا نتمسك بديننا الإسلامي الذي تتناقض مبادئه، وتوجهاته، مع توجهات هذه الأحزاب؟ إننا باختصار نعيش حياة فصامية متناقضة، بين أداة الحكم، وطبيعة توجُّه المجتمع.

هل نحن نُعاني الكبت والهموم، وسطحية المفاهيم، والتفكير، حتى نجد أنفسنا دائماً نريد الحرية؟ ونبحث عنها في دولنا؟ نطالب بها حكمانا. ونثور عليهم، ونُخرِّب كل شيء فوق رؤوسنا؛ لنحصل على هذه الأشياء؟

أظنُّ أن مفهوم الحرية يبدو هُلامياً، في ظل إسلامنا، وتطلعاتنا المتناقضة معه، وأظنُّ أننا نحتاج إلى رؤساء يسمعوننا، وينفتحون على عقولنا، لأننا لو خرجنا فقط من ثوب التخلف، وحولنا بلداننا لجنائن خضراء، وواكبنا ثورات المعلوماتية، وسمحنا للعقول أن تُنتج، وباركنا المنجزات الإنسانية، وساهمنا في إحداث تحول فكري، تكمن فكرته في البحث عن حريات ثوابٍ إسلامنا، وتصبغه بصبغة التطور، وصبغة الإنجاز داخل دولنا، تنظمه، وتعمل على إحداث منظمة ترتيب مجتمعي، وأمن قوي، وكيانات قانونية ومؤسسية قوية، لكننا عشنا في رضى، وقناعة بأننا شعوب منظمة، وديمقراطية أكثر من غيرنا.

تنهدتُ وأنا أعيدُ ترتيب أفكاري، فالواقع الذي نعيشه، يكاد يتحول لجحيم يومي، نحياء نحن في ليبيا، ويحياء غيرنا في رُقعةٍ أخرى، بالأمس كان عمر في حالة سيئة، عندما أخبره صديقه السوري هيثم نحّاس أنه غداً سيخرج وسيهاجر عبر البحر إلى أوروبا، حيث سيرميهِ الشاطئ لأول دولة أوروبية.

بكى هيثم كثيراً عبر السكايب، حاولَ عمر أن يهون عليه، ويسأله أن يرسل له عنوانه فور الوصول، ليحول له ما يستطيع من دولارات. كنتُ أعلم أن عمر سيحاول بيع سيارته من أجل هيثم .

تنهدتُ وأنا أتساءل: إلى متى سيستمر بنا هذا الحال؟

عاد عمر من عمله، لاقِيته، ضممتُه لي، بكيتُ كثيراً بصمتٍ في بين ذراعيه، سكت عمر، ثم نظرتُ لي قائلاً بهدوء:

- ما بك حبيبتي؟ هل ثمة خطب ما؟
- إلى متى يا عمر؟، ونحن في زوبعة الريح هذه؟ تعبت، تعب القلب، تعبت هذه البلاد من السير حافية!
- آه .. أنت تسألين السؤال نفسه الذي دار ببالي، حين كلمني هيثم ليلة أمس .. والله يا سمر الرجل ليس بخير.
- ولن يكون بخير يا عمر . . البحر مقبرة عائمة، إنه خيار أخير، عن قبر من تراب.
- تعالي يا سمر، اجلسي على الأريكة، ستحدث بهدوء فقط .. هوني على نفسك.

جلسنا أنا وعمر، وعادت بي ذاكرتي تميد للوراء في أول لقاء لنا، حين شعرتُ أنَّ الريح دارت دورتها، وجمعت بين زمنين مختلفين، زمن تعثر بغبار السنين، في الثمانينيات قادمًا من حرب تشاد، وزمن يعيش ربيع فبراير قادمًا من أزمنة التخلف والفساد.

ها نحن نلتقي في زمن واحد، نسرِد أوجاعنا الماضية والحاضرة، نحكي ألما في سحنات أجسادنا، نتوحد في أزمنة الريح، ننصهر، نذوب في أحداثها كما تذوب شمعة، وهبت وجهها لمسيرة النور، ضد اجتياح الظلام .. في تلك الزوبعة كما حصوة ملح في يَمِّ الماء.

كلنا أجساد تسكن أزمنة الريح، التي تسير كما يحملها الاتجاه، فمنها من يسير اتجاه الريح، ومنها من يعاكسه اتجاهها، فتثور في وجهه الأزمنة، وتتغير الوجوه جراء زوبعتها، وتفقد معالم المكان ملامحها،

ويبدأ الزمن في تغييرنا وفقاً لاتجاه الريح، ثمة أناس سعداء باركتهم
بوصلة الريح، فضحك لهم الخطُّ، وابتسم لوجوههم القدر، وثمة أناس
أصيبوا بخيبة أملٍ، وخيبة هدفٍ، وخيبة حياةٍ.
في داخل كل منا سيزيف^(١) .. يجرُّ صخرةً سخرتها له ريحُ القدر.

بدأ عمر يُغالب ملامح الإعياء على وجهه . . . كان يعمل فتراتٍ
متواصلة هذه الأيام، فيما أخذتُ أنا إجازةً لترتيب البيت، وأبعدته عن
مساعدي، لأنه أرهق بشدة في نقل الأمتعة.

- ما الذي خطر لك يا سمر حتى بكيت؟ هل هناك مَنْ
أزعجك؟

نظرتُ إليه بحزن، وأمسكتُ بيده اليسرى التي تفقد إصبعاً مبتورة
قائلةً:

- تذكرت هيثم، تذكرت الحال ومآله ... لم أتمالك قلبي .. هل
سنكون مثل هيثم بعد حين؟

(١) واحدٌ من أكثر الشخصيات مكرًا بحسب الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع
أن ينجذع إله الموت ثاناتوس؛ مما أغضبَ كبيرَ الآلهة زيوس، فعاقبه بأن يحمل
صخرةً من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وَصَلَ القمة تدرجت إلى الوادي،
فيعود إلى رفعها إلى القمّة، ويظلُّ هكذا حتى الأبد، فأصبح رمزَ العذابِ
الأبدِيِّ.

- نعم يا سمر، هيثم ليس بخير، بالأمس خرج مودعًا، واليوم لا أخبار عنه.

تمتتُ بهدوءٍ لعمر:

- سيأخذ وقتًا في عرض البحر.

نظر لي بتأملٍ، بهدوءٍ وجهه، وملاحه الدقيقة، ثم قال وهو يتنهد:

- البحر الذي كرهناه يا حبيبتى.

عرفتُ أنه متأثرٌ جدًّا، فقد كان يعشق البحر، ويبقى ساعاتٍ جالسًا قُربه، كان يتخيله فقط للكلمات، للشعر، لفيض القلب، والخاطر، للحب، للعشق، للسباحة بفرح، لبثِّ الهموم، لفضفضة الروح، للسرَّحان، وللنسيان، كان البحر بالنسبة إليه مخلوقًا هلاميًّا من ماء، يتكتل في جهة من الأرض، يتماوج في ذبذبات مريحة، يتبادل معه الحب والحزن... كيفما يحلو له دون أن يؤرقه شيءٌ تجاهه، فالبحر بئرٌ، سرٌّ لا يُخيب الرجاء فيه، وها هو يستحيل مقبرةً كبيرة.

- عمر، في ليبيا بدأ بعض الناس يهاجر عبر البحر.

وقفَ عمر يحاول نزع الجاكيت الذي يرتديه، وقال وهو يسير نحو المشجب - القريب من الباب:

- نعم، في طرابلس خاصة، الأوضاع هناك لا تسرُّ، يهربون للبحث عن عمل، أو من الواقع الفظيع

- صحيح، هم يهربون من بحر لبحر، ونحن هنا نهرب من يابسة ليابسة... لا يختلف الأمر!

- سمر، يجب أن تحلل هذه العقد بطريقة منطقية، هنالك مبادئ أساسية يجب ألا نختلف عليها، وهناك أمور يمكن أن يقع الاختلاف فيها، ولهذا يجب مناقشتها.

- مثل ماذا يا عمر تلك المبادئ الأساسية؟

قلت هذا - وأنا أسير نحو المطبخ - لأبدأ في تجهيز المائدة.

- مثلاً الوطن مبدأ أساسي لا مساومة عليه، ترك السلاح من جميع الأطراف، توفير العيش الكريم للناس، والصراع على السلطة بمنطق النقد لا بمنطق ردود الأفعال.

- حسناً يا عمر... ألاحظ شيئاً مهماً في كلامك.

- وما هو يا سمر؟

- إنَّ ما تقوله حالة عمومية، تحتاجها كل الدول التي تتعقّد فيها

الحلول الآن، من أين لنا بعقل يسمع الآن؟

قلتُ هذا، وأنا أضع لنا الغذاء الذي يتكون من سلطة باذنجان، وسلطة زيتون وجزر وهريسة، وسلطة زبادي ونعناع، مع طبق من الأرز الأصفر. تناول عمر الغذاء، كنتُ أراقبه وأنا أتساءل: متى سيرتاح عمر؟، ومتى سيرتاح الذين يحلمون بدولة مستقلة؟ دولة أساسها العدل والقانون، دولة الدستور والإنسانية؟

كان عمر يتراءى لي كرحلة مضت في طريقها، نحو وجهة تريد الرسو عليها، لكنَّ هذه الرحلة بدأت تخلو من مسافريها، وتفقد وجهتها، رحلة تعثرت كثيرًا بمطبات هوائية، فأردتها للأسفل، وأحياناً للوراء.

بدأتُ مساءً في قراءة آخر صفحات المنسي في الصحراء، ويبدو أنَّ السؤال: متى سنرتاح؟ وافق دوران الريح في الزمن الماضي، فنحن أيضاً نتساءل في زمننا: متى سنرتاح؟ ومتى تنحل هذه العقد التي تراكمت فوق أكتاف المسافات - كي تزيل حاجزاً حال دون العبور نحو الأمام، نحو مستقبل زاهر وواعد.

بعض الأوقات تحملنا الذاكرة لعصور مضت، ومواقف خلت، نظنُّ أننا مررنا بها في زمن ما، يخبئ في تفاصيل حكاية ما، يصدمنا ذلك الشعور المُضْمَخ برائحة الماضي التليد.

في بعض الأحيان تمرُّ بنا لوحة بأحد المعارض، أو جملة مكتوبة عفواً على حائط، أو اسم شاهدناه مرسوماً بخط بدائي على جدار عابر، أو رقم هاتف كُتِب عفواً على باب محل، أو واجهة كراج مغلق، فنشعر أننا نعرف تلك الجمل، أو أصحاب تلك الأسماء، أو ذلك الرقم.

وكأن الزمن يدور بنا كل الوقت، فيحملنا إلى دائرة معينة، ثم يُعيدنا للوراء في دائرة أخرى، للتذكُّر والذكرى، يربطنا فيها بمواثيق أشخاص عرفناهم ولم نستحضرهم بعد، عندها يحصل رابط ما في الذاكرة الحالية، فتذكرهم فجأة، ونذكر أننا نعرفهم بطريقة ما، وفي زمن ما، لكن أين التقيناهم؟ هذا ما لا نستطيع أن نحده تماماً.

هكذا أنا حين التقيت بعمر، تهباً لي أنني قابلته فيما سبق، وعرفته فيما بعد، لا أستطيع أن أدرك كُنه هذا الترتيب، ولا كيف بقيت طوال هذه الفترة من عمري كأني شرقة عالقة في متاهات الفراغ، فوق غصن شجرة الوقت، أنتظر مرور الريح في اتجاهي، لتحملني إلى عالم فيس بوك، وتحمل عمر بذات مصادفة إلى صفحتي. الزمن لا يرتب البدايات والنهايات، وحدها الريح تفعل ذلك.

- متى سنرتاح؟

تتم أحد الجنود بإعياء وتعب، بعد أن نقلونا لمبنى قرب مطار جومو.

من جديد لم يصدقنا الموظف الأمريكي الذي في البعثة، عندما أبلغناه أن ثمة مَنْ يتبعنا، ويرصد خطواتنا، وأشار إلى أننا فقط في حالة تعب وتخوف زائد، فقلنا له إننا شاهدنا سيارات تقوم بتصويرنا، فيها شباب ليبون، وعرفنا فيما بعد أنهم يتبعون الجالية الليبية في كينيا، استمع إلينا مطوّلاً، ثم طلب لنا حراسة، وبعد ذلك خلدنا للراحة، وتناولنا عشاءنا في انتظار ساعة الصفر، وهي الساعة التي سترسل لنا فيها البعثة تأشيرات الدخول للولايات التي قررنا الإقامة فيها.

كانت المخاوف تتزايد لدينا، فالنظام أقسم على نفسه أن يُعيدنا بأي طريقة، أو يحاول قتلنا، وقد كان وزير خارجية النظام يجوب الدول الأفريقية، في محاولة منع سفرنا، أو إيوائنا، أو ترحيلنا.

الساعة الثانية صباحًا، اليوم الخميس... الشهر مايو...

- حسين.. يا حسين.. انهض يا خوي.

نهض حسين وهو يحدق إلى وجهي، ثم قال ببطء:

- خيرك يا نبيل يا خوي؟ شنو في؟

- حسين تعال انظر من النافذة، في أشخاص يصوروا.

نهض حسين بسرعة، ونهض معه الذين يقيمون معنا - في هذا المبنى المؤقت، شاهدناهم يصورون المبنى، في ذلك الوقت دلف أشخاص آخرون للمبنى ودخلوه، سمعنا صراخًا في الطابق الأسفل، بقي بعضنا يحدق إلى بعض، حتى هدا الصراخ، وقررنا اختراق الصمت، والنزول لمعرفة مصدر الصراخ، نزلنا فوجدنا مجموعة ضباط من كينيا يقبضون على عدد من الأشخاص. ووجدنا معهم الموظف الأمريكي الذي أبلغناه بهاجسنا ذلك اليوم، نظر إلينا الموظف وهو يشير إليهم، ويقول لنا بالعربية المتكسرة:

- في ناس ليبي جاء إلى هنا للتصوير.... ممكن نظام أرسلهم؟

نظرنا إليهم، وكانوا خمسة شباب، ينظرون إلينا في صمتٍ مهيب، ولم نعرف كيف نتصرف معهم؟ فهم لا بد مأمورون من النظام، ثم إن قتلهم أو القضاء عليهم، أو سجنهم، لا يجعلنا مرتاحين؛ لأن الدم واحد، ولأن المأساة واحدة، ولأن لهم أمهاتٍ كأمهاتنا ينتظرن.

قال حسين لأحدهم:

- منهو اللي باعثك لنا يا شاب؟

نظر إليه الشاب قائلاً:

- ما بعثني حد، أني نصور عادي في المبني.

ونظرتُ إلى الآخرين، فيما طوقنا نحن المجموعة، وبقي الموظف الأمريكي يراقب المشهد، مع القوة الكينية التي ضبطت هذا العدد، وقلتُ بصوتٍ واثق:

- أني ورفقائي خايفين عليكم، يعني لو ما تتكلموا، ستأخذكم القوة إلى سجن الحكومة.

ونظر بعضهم إلى بعض، ثم صاح شابٌ يرتدي جاكيتاً رمادياً مُقلِّماً، وقبعة سوداء:

- قالوا لنا نصوروكم، ونحسبوا عددكم كم واحد.

- من قال لكم؟

- مكتب السفارة، والخارجية، الأوامر من الخارجية.

- باهي....توا شنو رايكم عاد؟ أحنني مطرودين من ليبيا،

وأسرونا في تشاد، والنظام رفضنا، في رأيكم وين نولوا؟

خيّم صمتٌ مهيب في ردهة المبني، ثم نظرت إليهم في شفقة، لا بد أنهم شباب يدرسون، ولا بد أن هناك مَنْ مارسَ ضغوطاً عليهم، فقلت للموظف الأمريكي في البعثة: إذا سافرنا غداً صباحاً، فأرجو أن تطلق سراحهم، أما الليلة اتركهم معنا.

اندهش الموظف، وتساءل:

- كيف يمكن تركهم؟

فقلت له، سوف نجلس معهم حتى الصباح، ثم نتمنى أن تتركهم يذهبون، لأنهم بعد سفرنا لن يجدوا ما سيفعلونه، علاوة على أن النظام سوف يتوسَّط لهم ويخرجهم عاجلاً أم آجلاً.

واقنع الأمريكي، فتركنا معهم، ووجدتها فرصة للسؤال عن سبب حضورهم... جلسنا نطوقهم بأجسادنا، اتخذنا وضع القرفصاء في الجلوس، ثم بادر حسين إلى أحدهم قائلاً في هدوء:

- أحنى إخوة، وعيب عليكم تسلموا في أعمارنا للنظام، أحنى ما درنا شي، النظام تحلى عنا، وحرمتنا من دخول ليبيا.

قال أحدهم:

- حتى أحنى طلبوا منا تصويركم، والإخبار عن عددكم، وإلا حرمونا من الدراسة في كينيا.

نظرت إليه، وكان شاباً وسيماً، أسمر اللون، طويل القامة، كأنه من جنوب ليبيا، فسألته:

- أنت من سبها؟

رد قائلاً:

- أني من براك الشاطيء... والله ما نقصد نبلغ عليكم.

- باهي أنتم شنو تعرفوا علينا؟
- أني اسمي مبارك، وقالوا لنا صوروا الأشخاص الي في المبنى
هذا، عشان عندنا ليهم مفاجأة للعودة للديار.
نظر بعضنا لبعض، وكنا حوالي خمسة وعشرين شخصاً، عدا الذين
في أماكن ومبانٍ أخرى... مفاجأة للعودة للديار؟ أي ديار؟
قلت له:

- يا خوي مبارك، والله لا عودة ولا شيء، النظام ناوي على
قتلنا، عاجلاً أو آجلاً.
- باهي وأنا شنو يصير فيا مع أصحابي؟
رد عليه حسين قائلاً:
- سنترككم، لأننا غداً سنغير مكاننا، ولن نسلمكم للقوة
الكينية.

هدأ الشباب، ثم اعتذروا منا قائلين إنهم لم يقصدوا الإضرار بنا.
لقد أحسنَ حسين القول عندما قال لهم إننا غداً سنُغيّر مكاننا، ولم يقل
لهم سنسافر لدولة أخرى تحميننا منكم، ومن النظام.
بقينا في مكاننا إلى الصباح، ثم جاء الموظف الأمريكي وسألنا:
كيف سيتصرف؟، فقلنا له:

- اطلب من القوة الكينية أن تخرجهم إلى حيث يقيمون، ولا
تخبرهم أي شيء، عدا أننا سنغير المكان.

فعلَ ذلك، وشاهدناهم من النافذة يغادرون. صعدنا للغرف،
جمعنا الأمتعة في انتظار السيارات التي تُقلُّنا إلى المطار، للمغادرة إلى
الولايات المتحدة الأمريكية.

في العاشرة غادرنا، ووصلنا للمطار بعد قرابة ساعة، بقينا هنالك
حتى الثانية عشرة ظهرًا، حين أبلغونا أن الطائرة التي ستسافر بنا تصل
بعد نصف ساعة من الآن. قال حسين مُعلِّقًا على بقائنا وحدنا في المطار:

- هذه رحلة خلت من مسافرين غيرنا.

نظرتُ إليه قائلاً:

- رحلة بلا قائمة يا صديقي.

- وحقائبها تائهة منذ سنين.

قالها حسين بمرارة، ثم أردف باكياً:

- انتهت الرحلة إلى نقطة اللا عودة يا نبيل.

- نعم انتهت يا حسين إلى هنا، إلى اللا عودة ... لا شيء تغير،

ولا شيء يُغيّر قدرنا، سوى اتجاه الريح.

- إيه يا صديقي، وأي ريح ألقنا من زمان ليبيا، إلى زمان قارة

أفريقيا؟ عبر سنوات ضياع في أزمنة تشادية؟

- هوّن عليك يا صديقي، الريح التي حذفنا في أزمنة الضياع في

تشاد، ها هي تُلقينا هذه المرة لبلد ثالث، لكنها تعدنا بالأمان ...

وشدَّ حسين على يدي، وضاعَ في تأملاته.

هناك رحلاتٌ تختار مسافريها وتتهياً لها الحقائق بسعادة غامرة،
وهناك رحلات لا تملك أن تختار قائمة مسافريها لأنها بدون حقائق
السفر . . . هنالك رحلات بأرقام لا تُنسى في التاريخ، وهنالك
رحلات سقطت سهوًا من أنظمة الاستعداد، فغادرت بلا هوية. هناك
رحلات تفرح بها المطارات، وهنالك رحلات تتحملها المطارات قسرًا،
وتتقبل قدميها كرهاً. رحلات بوجوه سعيدة، ورحلات بوجوه هاربة
من أماكنها وبيوتها، رحلات تفتح الآفاق بعد حصولها، ورحلات تقفل
دفاتر ذكرياتها بعد مغادرتها... رحلات تتذكر تواريخ رحيلها،
ورحلات تتمنى لو أنها تسقط من ذاكرة التاريخ.

كنتُ أظن أن الإنسان فقط يشعر بما يدور حوله، لكنني مع تزايد
خبرتي في الحياة، اكتشفتُ أن هناك أشياء مُكمّلة لنا، بدونها نحن لا
نوجد ولا نتوفر في أي مكان. هنالك أشياء حين نتذكر أنفسنا نتذكرها
بها، وهناك أشياء تشدُّنا إليها، وتعدُّ حبلًا رابطًا بيننا وبين ذكرياتنا،
وحينًا للماضي؛ فالماضي ليس مجرد فعلٍ عشناه، الماضي رائحة، ولون،
وصوت، وصورة، رتم من الأفعال، بعضها يأتي بألوانه، وبعضها يأتي
برائحته، وبعضها يأتي بصوته، وبعضها يأتي بصورٍ مُكتظة بالوجوه.

الماضي ليس مرحلة مُنتهية، فهناك حاضر لا يتجسّد دون ماضٍ
يسير معه، وهنالك تواريخ قدرها أن يتصل بعضها ببعض لتستمر،
الماضي ليس حقبةً زمنية فقط، إنه ذاكرة الوجود، وذاكرة الأشياء،
وذاكرة الجوارح، قد يطمس الزمن المكان، ويُخفي معالمه، لكن ذاكرة

الزمن كفيّلة بأن تحتفظ بالصور المُخبّأة، كأنها بنظام النانو تروي لنا فيما بعد ما خبّأته عنا الأزمنة بفعلها. ما يفعله بنا الزمن أنه يكرس لكثير من الأفعال فينا، وداخلنا بطريقة لا شعورية.

ففي الحرب يعيش الجندي على رتمٍ معين من الأوامر، التي تجعل الأفعال تبدو في حالة هُلامية متناهية مع فعل الزمن، لتنساب في إناء زمني تخوض فيه حقبة إلى حين انتهاء الحرب، يسمع الجندي تلك الأفعال، يتعوّدها، ينغمس في الشعور بها، إلى أن تتحوّل من حالة وجدانية شعورية، إلى حالة لا شعورية، فتنقل إلى اللاوعي، وترتع في تصرفاتنا، وترسب داخلها، حتى أنّ بعض الجنود حين ييارسون حياتهم العادية، تتسلل مفرداتهم إليها دون شعور.

في السجن، تنام، تأكل، وتخرج، وتكتب، تبكي، وتتوحّد، تشكو، وتتألم، هذه كلها أفعال لا تُشرق، كلها أفعال لا تنبت بذرة أمل - كلها أفعال تسير بك متوقفاً في عجلة زمن الورا، تجعلك في حالة الجمود إلى أن يتقرّر مصيرك.

في الأسر، أنت مُقيّد، أنت محروم، أنت وحيد، أنت غريب، أنت غير صالح لتعاطي الحياة، أنت عاطل عن العمل، لكنك في داخلك لست عاطلاً عن الأمل، وهذا ما يُميّزك عن الأموات.

وحدها الحرب تفصلنا عن رتم الحياة، عن رتم فعل الاستنبات، عن الإزهار، عن النمو، عن التكاثر، فالحرب قطب سالب، لا يمنح الأرواح حياة، بل يحصدها ويأخذها في الاتجاه الخاطئ من الحياة.

طارت بنا الطائرة نحو الولايات المتحدة الأمريكية، طويت مفكرتي، ووضعت القلم في منتصف مدونتي، وكأني أشقُّ تاريخي إلى نصفين، الجزء الأول منه قضيته في تتبُّع ألم أهلي ومعاناتهم من الفاشية الطليانية، للحرب العالمية الثانية، ثم حرب تشاد، والجزء الثاني سيبدأ بعد هذا الفيلم السينمائي الموجه حدَّ النزف، عن زمن اسمه الربيع الذي خرف. الزمن الذي أخذَ نهارنا معه ولم يعد.

مراحلُ ألم إنسانٍ يطأُ بقدميه الجمر، وحين يستحيل رمادًا، تذروه الريح لتحمله لأزمة أخرى، لم يكن مستعدًّا لها... فإلى أين يا منافي الألم وأنت تعلقين في ذاكرة الزمن، دون أن تتخلي عن شرائق معاناتك، ورحم توحُّدك بنا؟ يا الله!



مساء الخميس حطَّت بنا الطائرة في مطار طُبرق.

كنا قد سافرنا صباحًا أنا وعمر نحو الأبرق، ومن هنالك إلى طبرق في رحلة لقاء بالهلال الأحمر الطرابلسي، كانوا قد أرسلوا لنا أدوية سكري، ومعدات لغسيل الكلى، وأجهزة أخرى لقياس الضغط، المستشفيات لدينا في حالة عُسر، بقينا هناك يومين كاملين، ونحن نتحدَّثُ عن الخطوات اللازمة للتعاون بين الهلالين، كانوا يعانون الهجرة غير الشرعية، ومن كثرة انتشار الجثث الملقاة على شواطئ طرابلس، وكنا بالمقابل نعاني بُعد البحر عنا، فالطريق إليه مُغلق، بسبب سيطرة الجماعات الخارجة عن الدولة عليه.

عُدنا مساء الإثنين من الأسبوع التالي، وقضينا ثلاثة أيام ونحن نتنقل بين المستشفيات لنقوم بالتبرع بالأجهزة الممنوحة لنا من الهلال الأحمر الطرابلسي، كنت أقول لنفسي كم يبدو شعبنا رحيماً ببعضه، مُتآزراً مُتعاضداً، لولا خلافات الساسة، الذين يزجون بأبناء المدن في صراعاتهم؛ لتبدو حرباً أهلية، أو طائفية، أو جهوية.

يوم الجمعة كان حافلاً، وجميلاً بقدر الاختلافات التي جرت فيه، كان المنفور ضيقاً على الغذاء، استقدمناه بعد أحلاف طويلة دارت بينه وبين عمر، لم يكن عمر من أصحاب الحلف، لكنه تعلّم حيلتها عند الضرورة، أعددت الكسكسي بالخضار مع بعض اللحم، إكراماً للضيف، وكان عمر قد طلب من المنفور أن يُحضّر معه أبناءه وزوجته، فحضر الابن والابنة والزوجة التي كانت تعاني كما يبدو معاناة زوجها، التخوّف والشعور بالتمييز.

كان المنفور يتألم مما يحصل له، حين ردّ عليه عمر قائلاً:

- هل تذكر يا منفور ذات حوار بيننا حين قلت لك إنني لا أضع يدي في يد حاكم، أو سلطة، بل أكتفي بأن أكون مواطناً يمارس واجباته وحقوقه؟

ردّ المنفور:

- نعم، أذكر هذا الحديث، ولكن ما لا يتوقعه إنسان سقوط النظام، وموت القائد... لهذا السبب كنا نظن ديمومة النظام.

- أعلم أنك تتألم لموت قائدك يا المنفور، ولكن قدر الله وما شاء فعل، رحمه الله وغفر له.
- هل تترحم عليه يا عمر؟ تترحم على القذافي وأنت لا تُحبه؟! رَدَّ عمر بهدوء:
- الحب والكره مسألة عاطفية، الرحمة والترحم مسألة أخلاقية، ثم إني أحترم حبك له.
- من يومك تقول لي إنَّ حبنا لقائد أو حاكم ما يعني تكريس أرواحنا له.
- صحيح، أي راهو تألمت لموته بهذه الطريقة ... لا يقبل إنسان بذلك أبداً!

شدَّ المنفور في يد عمر قائلاً له بتوسُّل:

- باهي أحني أولاد اليوم، والقائد الله يرحمه، لكن لما نطلع من البيت في مسألة تضايقني لما نسمع شخص يقول قدامي: المهم الطاغية مات، ويبدأ في تمرير كلام مقصود منه أننا دعاة فتنة وحرب.
- يا المنفور، ما تعطي سمعك لأي شخص، لازم أن نتحملوا بعضنا، هذه مرحلة ستزول بإذن الله .. وبعدين أنت إنسان ليبي، لازم يتجه شعبنا لقيم التسامح والحب، إذا كنا نبو نبو الدولة ونعمروها.
- يا ريت يا عمر منك واجد، والله ليبييا تكون في خير.
- هي مسألة وقت، وفي إرهابات، وزى ما أنت تبحث عن العدالة في صدور الأحكام ضدك، في ناس هلبا مظلومة، ثارت ضد النظام، وتبحث عن العدالة، لا يجوز أن نلومهم على خيارهم.

سكت المنفور، ويبدو أنه فكّر في الأمر، ثم قال له:

- أي والله صدقت يا عمر.

قضيتُ أنا يومًا لا بأس مع زوجة المنفور، كنتُ قد جهّزت لها أشياء من أمتعتي الزائدة عن حاجتي، وأهديتها قارورة عطر، وللفتى والفتاة اخترتُ أن أجلب لهما أقلامًا، ودفاتر جامعية للكتابة بها، فقد كانت غير متوفرة، وكنتُ أعرفُ أنهم لا يملكون الكثير من المدخرات.

- ولو حدث هذا في مجتمع أوروبي ماذا كان سيحصل؟

سألت عمر وأنا أجمع الأواني، بعد ذهاب الضيوف.

- سمر، الأوروبيون غير مترابطين يا عزيزتي، لا وقت لديهم للمناوشات، وقتلتم وقلنا، هم أكثر تنظيمًا منا.

- هل تقصد أننا مجتمعات اجتماعية جدًا؟

- ليت الأمر يتوقف عن كونها اجتماعية، فكل المجتمعات اجتماعية بطريقة ما، لكن مجتمعاتنا عاطفية جدًا، نغلبُ عاطفتنا على الأحكام، فتأتي انفعالية غير مدروسة.

كان عمر يرفع معي الأواني، ويحملها للمطبخ، وكان ينظمها فوق الطاولة، يزيل بعض الملاعق وكؤوس الشاي ويعزلها عنها في صينية وحدها، كان يتحدث، مرة ينظر لي، ومرة يرفع شيئًا، وكل شيء يمرّ معه جميلًا، تلقائيًا، عفويًا وسريعًا.

- صحيح، أما الدولة فهناك أشياء لا يمكن الاختلاف عليها، وأمّا البلد هناك منطق مهم.

- ماذا تقصدين يا سمر؟ كلامك يشغل بالي!
- يا عمر هناك شيء اسمه منطق البلد، أسلوب أهل البلد هذا يلخصه لك القادم من خارجها، يرى كيف تكون شوارعها؟ كيف تكون معاملة أناسها؟ كيف تكون أخلاقهم؟ كيف تكون ضيافتهم؟ كيف تكون نظافتهم؟ كيف يحكون معك؟ كيف يعاملون بناتهم؟ كيف يعاملون بعضهم بعضاً؟ هذا كله اسمه منطق البلد... ونحن نفتقده تماماً.
- حسنا يا سمر... هل تعلمين أنني اشتقتُ لشيء لا يخطر على بالك؟

جلستُ إلى طاولة المطبخ مُرهقةً ومُتعبة، وقلت له وهو واقف:

- وما هو؟

أحاطني عمر بيديه قائلاً بهمس:

- اشتقتُ إلى إناث، تلك السيدة الكادحة، التي تحمل هموم غيرها، ومعاناة نساء بلدها، تلخصها في شخصها، ثم تحاول أن تثبت وجودها من خلالها.
- ههههه أنت اشتقت فقط للحديث الجميل مع إناث.
- وهذه نقطة يا حبيبتي.... ما صَرَّه الاشتياق إذا كان يحمل في معناه لغة شخص عالية التفكير.

: صحيح وما صَرَّه؟ يا سيد بيللو، رأيك تتعاطف مع المنفور..
يظل صديقك!

التقط عمر إشارة مسرحية في حديثي، فقال بلهجةٍ واثقةٍ:

- ولم لا .. المنفور رجل ذنبه أنه عاش معنا حقبة النظام .. أي ذنبه هو ذنبنا أيضًا.

- نحن نختلف مع المنفور في أننا نريد العبور أمامًا بالدولة، المنفور مُصر على جذبنا للخلف، الزمن يسير أمامًا لا للوراء.

- لا تنسي يا إناث، أننا أيضًا، لا يمكن أن نتقدم دون أن نعرف بعيوبنا.

- وما قصدك يا بيللو؟

- قصدي واضح يا سيدتي، نحن لسنا بشرًا جددًا، خرجنا فجأة من كرتونة جديدة، وقمنا بثورة فبراير، ثم نريد أن نصبح أحسن شعب في العالم؟

في هذه الأثناء اشتقت أن أراقص زوجي عمر القاسم بهدوء، لا أعرف أي رقصة، لكنها سلو أو فلامنجو أو حتى دبكة شامية - أو أن أدور وأنا بين يديه، الحوار شائق، مغموس بلذة التعاطي، ربما شيء أريد لشعبي أن يراه، ويتعلمه، فأنا حاملة، حاملة جدًّا، أريد أن يتغير كل شيء، للأجمل، للأحلى، نتجاوز معه كل الخلافات، لنبدأ في عقد الاتفاقات والتسامح .. واو هذا جميل جدًّا!

وسرحت بعيدًا وأنا بين يدي زوجي، تُهتُّ في متاهات بعيدة، ماذا لو استمررنا في عصر المملكة الليبية المتحدة؟ ماذا لو لم تكن حقبة سبتمبر قط؟ ماذا لو كنا من الشعوب التي يُقتدى بها في السلوك، وفي

الممارسات الأخلاقية؟ ماذا لو...؟ ماذا لو كل هذا أشعره ثقیلاً فوق رأسي، عبثاً يبدو حملاً في شكل جبل تصلب فوق كياني، فأشعر بثقله، وإرثه الثقيل، وبالمقابل هذه معاناة شعبي، معاناة إنسان، يحاول الوصول لحياة كريمة، وعيشٍ يليق به.

تذكرت فيها بعد فقرة كتبها عمر في روايته المنسي، كانت تقول:

مراحل ألم إنسانٍ يطأً بقدميه الجمر، وحين يستحيل رماداً، تذروه الريح لتحمله لأزمة أخرى، لم يكن مستعداً لها... فإلى أين يا منافي الألم، وأنت تعلقين في ذاكرة الزمن، دون أن تتخلي عن شرائق معاناتك، ورحم توحدك بنا؟ ... يا الله!

ألم يمكننا أن ننفيه في منافي الحزن، فلا نستطيع أن نهرب به إلا إلى هناك، وألم نهرب به لمراتع فرح، فيذهب ويندثر بمجرد سماعه لأول ضحكة أو ابتسامة من شخص نجبه، ونكنُّ له مشاعر جميلة.

ثمّة أشخاص يمحقون الحزن بمجرد رؤية وجوههم، كأنهم رُسل النور أو سفراء الفرح، وثمّة أشخاص يزيدون في أحزاننا، وجرات ألمنا، ففي حضورهم يُعيد الألم تشكيل قدراته، وقوته فينا.. هؤلاء لديهم تلك القدرة الغريبة على خلق الحزن لغيرهم، ولديهم تلك المعجزة الرهيبة، على تعكير مزاج الحياة.

أذكرُ كلمات أُمي - رحمها الله - حين كانت تقول لي:

هناك وجوه مثل باب الفرج، تراها فيفتحها الله عليك من حيث لا تدري. هناك وجوه تسرد في ملامحها تاريخاً لا يمكنك أن تلملمه من

نظرة حزينة. هناك وجوه سعيدة، تكاد ترى نظراتها تتقافز فوق الأشياء - لتسعدنا بما في قلبها. هناك وجوه مهما تحاول أن تجعلها تبترسم، تظل عالقة في حزنها، لا تعرف كيف تتجاوزه. هناك وجوه، تتمنى ألا تفر من بين يديك من جمالها. هناك وجوه تشبه القارئ، الذي يبحث عن ضالته في القراءة الشائقة، إنها وجوه تصطاد الملامح الثمينة، فقط دون غيرها. هناك وجوه تُهدئُ روحك أكثر، كلما أطلت النظر إليها، تشبه وجه أمي، وتذكرني به. هناك وجوه حين تذهبُ عنا.. نضيع نحن بين متاهات الوجوه. هناك وجوه نعيش بسببها ضياعاً أبدياً. هناك وجوه تقولنا بإيجاز شديد. لا تستهيني يا سمر بقبح الوجوه.

فهناك وجوه تُشبه قُبْح أرواحنا، نتذكر فيها بشاعة ما فعلناه بغيرنا ذات مرة.... وبقدر ما هي وجوه قبيحة، سنظل نشكرها لها، لأنها الوحيدة التي تذكرنا بنا... وبحقيقة أفعالنا... هذه الوجوه يجب أن نقبلها، ونحبها... فهي نعمة الله، في الاعتراف بحقيقة اختلافنا الخارجي عن جوهرنا الداخلي.

قال عمر:

- لدينا جولة لجلب أدوية من بعض المخازن التابعة للهلال الأحمر، ولأننا قد نتأخر علينا أن نحمل معنا بعض الطعام المغلف.

كان رفيقنا السيد طارق الككلي، وهو شابُّ أربعيني العمر، معتدل القامة، بشوش الوجه، ملامحه هادئة، والسيدة بهيجة حسَّان، خمسينية

العمر، طيبة، ومتوازنة في شخصيتها، كانت تعمل معلمة، وكرست نفسها للهلال الأحمر، صعبة زوجها الذي تُوفي في إحدى عمليات النقل، في أثناء إسعاف عدد من العائلات العالقة.

سمحت لنا نقطة تابعة للجيش بالدخول لمنطقة المخازن، قاد السيد طارق الحافلة الخاصة بالهلال الأحمر، وجلس عمر بجانبه، فيما جلستُ مع السيدة بهيجة حسان، اصطحبنا كاميرا لتصوير المخازن، واصطحبنا أكياساً، وصناديق فارغة، موثقة بختم الهلال الأحمر الليبي، أحضرنا معنا شاي، وقهوة، وبسكويتاً، وصندوقاً صغيراً جلبته السيدة بهيجة، يحتوي على ساندويتشات، وخبز أسمر، وعصير، وأكواب ماء مغلقة بالقصدير.

يقتضي وجودنا أن نقوم بإحضار أدوية أنسولين، وأدوية كيمياوية يحتاجها قسم الأطفال المصابين بالأورام، وأدوية تخدير وما يتبع العمليات الجراحية، من إجراءات وقائية للمريض في غرف العمليات.

تقع المخازن في سلسلة متتابعة، لأنها قريبة من المستشفى الكبير، وهو يبعد عنها مسافة نصف كيلومتر، يُقال إن الجماعات الخارجة عن سلطة الدولة، ما زالت تستولي على المستشفى، ولم تغادره بعد.

في الحادية عشرة صباحاً، توقفت بنا السيارة في شارع واسع، يصل عرضه إلى حوالي عشرة أمتار، كان ممتداً وطويلاً، تتراصف فيه فيلات ضخمة، حديثة البناء، وينتهي بمدرسة خاصة، كُتب عليها: حدائق الياسمين.

أخرج عمر المفاتيح، وبدأ في فتح الباب، كنا ننتظر ونتفحص المنطقة، حيث تطل من أسوار القيلات بعض أشجار الليمون والبرتقال، مرَّ عليها الموسم دون قطاف، كما خلا الشارع من السيارات تمامًا، فالمنطقة غير مأهولة، وللتوّ بدأ الجيش عمليات التمشيط.

تفحصنا المبنى من الداخل، الأثاث الغائب في الغبار، بعض الصالونات - عند صالة الدخول، بدت مترهلة، وباهتة، الباب المؤدي للردهة الكبيرة مفتوح، ويقود لمطبخ صغير يستخدمه العاملون بالمخزن، المكيفات لا تعمل، والثلاجات مطفأة تمامًا، لا بد أن كثيرًا من الأدوية التي تحتاج درجة حرارة معينة، قد أُتلفت تمامًا.

الأرض مليئة بالحشرات ...

صاحت بهيجة بأسف:

- يا لله! انظروا تحتكم.

كانت هنالك أسراب من النمل الكبير، صحبة زواحف صغيرة، ودواب زاحفة سوداء فاض بها المكان، تكاثرت قُرب بعض النباتات المتسلقة ونباتات الظلّ.

سنضطر لغسل الكراسي، والطاولة التي في باحة المخزن .. جلبها طارق، غسلناها وقمنا بتنظيفها جيدًا، وجلسنا نتشاور فيما كانت بهيجة تسكب الشاي .. أخرج عمر من حقيبته قائمة الأدوية - التي علينا إحضارها، والنظر في صلاحيتها، أظنُّ بشدة أن المخزن الأول كان

للأدوية التي تقبل درجة حرارة معينة، وتحتاج لثلاجات مُعدّة ومجهزة، قلتُ ذلك وأنا أُشيرُ لهم، إلى الثلاجات الكثيرة، المنتشرة والمطفأة؛ بسبب غياب التيار الكهربائي.

أوماً الجميع بإيجاب، متفقين على إشارتي، ثم قالت بهيجة:

- هنالك أدوية تتحمل درجة حرارة الغرفة، ومع ذلك يمكن أن نفكر في بدائل أفضل، مثل أن نجلب الشاش، غرز خياطة، نحصر عدد الأسرّة الطبية، وبالمقابل نسحب عيناتٍ من الأدوية، المتوفرة في الثلاجات، ونحملها للمختبر، للاطلاع على صلاحية استعمالها من عدمه.

طارق:

- هذا هو الصواب.

عمر:

- سوف نقسم إلى فريقين، نحن سنذهب لتلك الجهة، وأنت يا طارق، مع بهيجة، سوف تخرجان عينات من الثلاجات ..

نهضنا جميعاً، ودُرنّا داخل المكان، فقابلنا أنا وعمر بابّ كبيرٍ آخر، حاولنا فتحه، فانفتح الباب وحده، كان القفل مكسوراً، نظر بعضُنا لبعضٍ في رهبةٍ، كان هنالك ممر طويل، يؤدي لصالة واسعة، تراصفت فيها حاويات مرتبة، بطريقة منظمة، لا ملامح فيها بسبب الغبار ...

بدأ عمر في فتح بعض الكرتونات، بحسب أرقام الحاويات، التي أرفقوها لنا.

- سمر، انظري لتاريخ الصلاحية، واستخدمي كاميرا هاتفك في التوثيق.

أخرجتُ هاتفي من حقيبتني، وبدأت في تصوير عمر وهو يتفحص الأدوية. يتطلب عملنا توثيق كل شيء، لإبراز دور هذه الفئة إنسانياً، وللحفاظ على أرشيف عملنا، في أثناء المساهمة في إدارة الكوارث والأزمات بالحروب.

كنتُ أتفحص مدة الصلاحية، واسم الدواء المطلوب، ألني حال مرضى السكري، فقد عاشوا فترات عصيبة، اضطروا فيها للصيام مدة أيام متواصلة، لتعديل نسبة السكري لديهم، دون الحاجة لجرعات الأنسولين. كنتُ أنجز عملي بهدوء، وأتساءل:

- هل ثمة أناس فقدوا حياتهم بدون الأنسولين؟

ابتسم لي عمر، وكأنه يقول لي: لا يأس مع الحياة.

أنزل عمر بعض الصناديق الثقيلة على الأرض، وبدأت ملامح الأجهزة التي بداخلها تلوح لنا، من الصعب تسير غرف العمليات دون أجهزة فحص القلب، وقياس الضغط.

انتهينا من جمع الأدوية، والصناديق المطلوبة، كان يجب علينا أن نُعيد إغلاق الأبواب، وإحكام إغلاق الثلاجات، وجدنا طارق،

وبهيجة قد قاما بملء أحد الصناديق، بعدة أدوية سحبها من
الثلاجات. أخرجت بهيجة ضاحكة زجاجات حليب الأطفال المواليد،
قائلة:

- مستشفى الولادة يعاني نقصها.

ابتسمنا جميعا لهذا المشهد الجميل، كان شكلها لطيفًا، وباعثًا على
الأمل. سرحتُ بعيدًا في أثناء قيادة طارق للسيارة، فكرتُ بي وبعمري،
كنتُ أريد طفلًا، بعد أن فقدتُ طفلي، بحادثة التفجير الإرهابي، أحلم
كأي أم أن أربي طفلًا، سعيدًا، هائنًا في بلاده، يحصل على الأمن الكافي؛
لا استمرار حياتي وحياته، لا أعرف كم سيطول بنا الأمر ونحن ننتظر
الحل، والتفاهات بين الجهات المختلفة.

هنا في بنغازي، رأيتُ بعض الأمهات يفقدن أبناءهن في أثناء
وضعهن، رأيتُ إحداهن كانت في المخاض، وحصل تفجير قُرب
المستشفى، فصدمت في أثناء الولادة، وتوفيت مع طفلها، رأيتُ أخرى
تضع طفلتها، وتخرج بها فورًا من المستشفى دون خياطة جراحها، رأيتُ
جارتنا أم فوزي، تجمع عجائز الحي ليقمن بتوليد سيدة لم تتمكن من
الوصول للمستشفى.

نساء قضين أعمارهن، وهن يربين أبناءهن وبناتهن، ينتظرن الحلم
أن يكبر، وبالغد أن يشرق، وبالعمر أن يزهر في وجوههم، يتمنين أن
يحصدن سنوات التعب والشقاء، كي يصلن لنهايات الفرح، بعد
رحلات طويلة لأجسادهن، استغرقت الحمل والرضاعة والسهر،

والإرهاق في توفير الأمن لأبنائهن... لكنهن في الحرب سقطن
مصدومات، من رصاصة طائشة أنهت بصراخها في الأجساد كل
رحلاتهن.

لهذا كنتُ - وما زلتُ - أضعُ يدي في يد عمر ما حييت، سأحاول
أن أبعثَ ابتسامة، تضيء هذا الظلام الكبير الممتد، من غربها لشرقها،
ومن شمالها لجنوبها، أحاولُ أن أزرع الأمل بأي طريقة، فإن كان معي
من سيحاول، حتمًا سيأتي الضوء، وسوف تشرق شمس غده.

قال طارق:

- الساعة الآن الثالثة ظهرًا، نتغذى هنا ونتجه للمخزن الثالث،
فما رأيكم؟

قال عمر:

- أنا موافق إذا وافقت الأنثيان.

هههههه... ضحكُ منه.

- ها قد بدأنا في حكاية ذكرٍ مقابل أنثيين.

ضحك عمر، وهو يقول:

- أنا أناوش السيدة بهيجة.

كانت السيدة بهيجة امرأة هادئة، ليس لديها أولاد، تأثرت جدًا
بفقدان زوجها في أثناء إسعاف العائلات العالقة في محور الليثي، ليس

لديها أقارب أيضًا، فهي من أصل جنوبي، عاشت في بنغازي طوال حياتها، وفقدت والديها فيها، ولم تشأ أن تغادرها بعد الحرب رغم وجود فرص عديدة لتخرج للجنوب.

في بعض الأحيان، تنساب دموعي رغماً عني، عندما أرى بهيجة، تقوم بعملين من جنس العمل نفسه، فأعرف أنها تعمل عن زوجها، وكأن روحه حاضرة معنا.

تناولنا ساندويتشات خفيفة، وشربنا شايًا أخضر، نمتُ قليلاً في ردهة المخزن، الذي بقينا فيه للغداء، كان مرتّبًا، وقد برعت إدارته في وضع أغذية وشراف فوق حاويات الأدوية، فأزحناها، لتظهر لنا الصناديق نظيفةً إلى حدٍّ كبير.

هذه الجلسة من الجلسات القليلة التي يفرح بها قلبي، حميمة، ونقية، الأشخاص فيها زملاء عمل، أرواحهم جميلة، والعمل الذي يجمعني بهم هو وطن نريده أن يكون. سأظلُّ أتذكر هذه الروح العفوية التي أنجزنا بها هذا العمل.. سأظلُّ أتذكر كم يبدو جميلًا أن نعمل من أجل الإنسان، وهو أمر ليس باليسير، فهناك مَنْ يفقد قيمة الأشياء بسبب عدم إحساسه بروحها، وهناك مَنْ يُسبغ عليها جمالاً فوق جمالها، فتغدو محاكاة شديدة الترف، فارهة المعنى، عظيمة الأثر. إنَّ الأشياء تكتسب قيمتها ليس بثمانها أو جمالها، بل بما نسبغه عليها من إحساسنا.

في الحياة أيضًا نُقابلُ أشخاصًا يحبون أشياء، نتفاجأ نحن بشده تعلقهم بها، قد لا تبدو في نظرنا ذات قيمة، لكنها في نظرهم يمكن أن

تساوي الحياة، السبب نظرتنا للأمور من زاوية تفكيرنا، فكل عقل مُبرَّج على زاوية، وثمة عقول فَقَدَتْ برمجتها على تذوق الجمال.. لا ذكريات سعيدة يمكن أن تتذكرها، ولا أفراح يمكن أن تسعد بها غيرها.

دائمًا الأشخاص الذين يغيرون من مزاجنا، ويحلون مرارة أرواحنا بسكر حضورهم، يليق أن نَهَبَهُم القلب والروح بلا تردد، ذلك لأن الحزن رائج، ويسهل أن يعدينا الآخرون به، أما الفرح فهو أمر يحتاج لقلب يهبه لك - دون بخل - وآخرون يقبلون عدوى الفرح، لأنها مختلفة عن عدوى الحزن. عدوى الفرح تحتاج روحًا نقية، وقلبًا سخياً يقبلها، وهو سعيد بك، يشاركك مشاعرها من نقاء روح، تعرف مذاق السعادة من أجل غيرها. وكم أشتاق إلى الفرح، بل أريد الفرح.

كأي مواطنة عادية من مواطني هذا الشعب الليبي، ومن العوام الذين يقفون يوميًا، وهم يسطرون ملحمة الطواير اللا متتهية، لا أريد فزاعاتٍ سياسية تتظاهرُ بأنها تحمي حقولنا، وزرعنا، وخيرنا، تلتصق مؤخراتها بالكراسي للأبد، وتربط أعمدتها أوتادًا في أرضنا، حتى لا تتزحزح من مكانها... أريدُ رئيسًا، وحكومة، ودستورًا، وقانونًا، ودولة.

أفقتُ على صوت عمر يُناديني بهدوء، ويدهُ تهزُّني بلطف، هكذا يوقظني عمر، حين يراني غارقة في النوم، فهذا يعني أنني غارقة في الحلم، أنني مدني كما يحلو لي، لأستيقظ وأنا أتشدُّقُ بها أمامه.

- كم الساعة؟ مساء الخير.
- الساعة الرابعة والنصف، سمر تناولي قهوتك بسرعة.
- هل تناولتم القهوة؟
- نظرتُ حولي، المكان هادئ، بهيجة جالسة قرب إبريق القهوة،
ويبدو أنهم تناولوا قهوتهم، ولم يوقظوني.
- لماذا لم توقظوني؟ هل حكيتكم حكايات؟
- انفجر عمر ضاحكًا:
- لا، لمْ نحكِ حكاياتٍ، كنا نخطط لدخول المخزن الأخير،
فالوقت يداهمنا، وفي ديسمبر سرعان ما ينزل الظلام.
- آه حسنًا، سأصلي، وأخذ قهوتي في السيارة هناك.
- صعدت السيارة، وقهوتي في يدي، جميعنا طَلَقُ الوجه، للمهمة
الأخيرة، حيث أكبر المخازن، ويقبع بآخر الشارع، تحاذيه المدرسة التي
شاهدناها في الشارع الذي قبله، إذ كانت تطلُّ في صدارة الشارع
العريض، ويبدو أنَّ لها بابين، كعادة الفيلات في هذه المنطقة.
- توقَّفت سيارة الهلال الأحمر، نزلنا وبَقِيَ طارق، فأشار بأن نفتح له
الباب على مصراعيه، حتى يتسنى له إدخال السيارة في المخزن، وافقنا،
ودلفنا للبواب الكبير الذي فتحه عمر بسهولة، كان المبنى كبيرًا وضخمًا،
يديره السيد حسن الفيل، ويدير معه مجموعة هلام لتصنيع مواد
التنظيف، ذكر لنا أنه تبرع بنصف المكان للأجهزة والمعدات الطَّبية

فقط، عندما احتاجت إدارة المخازن، لمكان تحفظ فيه الأدوية، فأعطاهم البدروم الخاص به، إلى حين إشعار آخر.

قطع الهدوء المتصل اتصالاً هاتفيّاً لعمر، كان من نقطة الهلال الأحمر يسألون عنا، فرد عليهم أنهم على وشك الانتهاء، دخلنا للمبنى الكبير الرابض كأبي الهول، فوق أرض طولها في عرضها تبدو مُربَّعة، مُطَوَّقة بسور عُشبي أخضر، تطفح فوقه قطرات الندى، فالمغرب يكاد يؤذن، والساعة تقترب من الخامسة مساءً، كان منظر النباتات الزاحفة يومئذٍ لي بحياة الغابات، الغابات الخالية، البعيدة، التي تحمل رائحة الرطوبة والتاريخ في عقب أشجارها العطرية، بدأت بعض زخات المطر تنزل من السماء، مشهد خرافي، مع لون المبنى الأبيض، المطعم باللون الزرعي، والذي نقول عنه في ليبيا لون بازلائي، نسبة للبازلاء.

دخلنا للباب الداخلي، سارعتُ بالمبادرة، وأدرتُ مفتاح الكهرباء، فأضاء المكان بنور قوي، يبدو لي هذا الشارع يختلف بشكل عرضي عن سابقه، ويبدو أنه يتمتع بقربه من محطة تغذية كهرباء محاذية له تماماً.. كان المكان دافئاً، وباعثاً على الحميمية، بناه صاحبه لإدارة مجموعته، بحيث يبدو ملهماً، وباعثاً على الإبداع، والراحة للموظفين. تصورت نفسي لو قالوا لي سنبِت هنا، فإنني سأوافق ما دام عمر معي، لأنه لن يقلق عليّ، بدا لي المكان مُرتَّباً ومنظماً، المطبخ كذلك، السلام المؤدية للدور العلوي، علاها الغبار، وقد استشهدت بعض نباتات الظل المنتورة الأصص على جوانب الدرج، لا بد أنها صمدت طويلاً، قمتُ

بتحريكها من مكانها، تفحصتها، نظروا إليَّ وهم يتسمون، قال عمر
وهو يضحك:

- هل هي حية؟

نظرتُ إليه بأسف:

- لا، المسكينة تحملت طويلاً، وهذا الأصيل نبتته مقتلعة تماماً
..انظر إليه.

نظر عمر، تفحص طارق، فيما كانت بهيجة تعدل كاميراتها
للتصوير قائلة:

- مقتلعة؟ ربما دخل شخص؟

تابعنا صعودنا للأعلى حيث تبدو القاعة واسعة ورحبة.

هنا ليس ثمة شيء نريده، لكن بحسب وصف السيد حسن
سيكون علينا للنزول إلى البدروم، أن نصعد الدور العلوي، سندخل
للشُرْفَة، ثم من الشُرْفَة يوجد سلم جانبي مُحاط بحائط طولي مسقوف،
ندور على السُّلم نزولاً، سنجد أنفسنا في فسحة مربعة الشَّكل، تُشكل
حجرة مكتب، وملعباً صغيراً للتنس، وطاولة بلياردو، وباراً صغيراً
يحتوي على فنجانين مُذهَّبة للْبُن، وكؤوس طويلة العنق للعصير، فيما
تراصفت زجاجات ملونة من العصير، بدا لي كأن صاحب البار أراد
على طريقة الأجانب في تخزين الخمر، لكنه طبقه بأخلاق إسلامية. كان
المكان حالمًا، في وطن يشكو واقعاً مقيتاً.

كُلُّ هذه الأماكن أكلها الصمت، تجرعت كأس فراق أهلها،
وموظفيها في مرارة وصبر، ذاقت وبال الغياب في سكينة خانعة
لمصطلحات لم تألفها ثرثرة البيوت، ولا صخب صباحاتها، ولا ضجيج
مساءاتها العذبة الشهية، بيوت تشكو الغياب، وغياب يئنُّ تحت وطأة
لهجات الحوار الجافة، التي تترجم بكل أسف خواء عقولنا، وكساد
أخلاقنا، وعُرِينا الفكري.

بيوت صامدة، وبيوت تم اغتصابها، بيوت ترهلت من شيخوخة
نباتاتها، وبيوت شاخت من الحنين، بيوت لم تقدر على الفراق فخرَّت
ساجدة؛ لتساوى بالأرض، بكت وتلاشت كدخان تسربل نحو
السماء.

بيوتُ أبوابها مكسورة خاطر، فاعرة الفاه تُشبهُ أصحابها الذين
ينزوون في زاوية بعيدة، يحاولون الصُّراخ للسلاسة الذين ملكوا زمام
أمرنا، ربما لإيصال أنينهم للقلوب التي اكتسح الجفاء بقايا عقولها.
بيوت احتفظت بأشياءها، بالوسائد والأواني الفارغة، بمنفضات
سجائرها، بأحاديثها الشائقة المتسربة من شقوق الجدران، ببوح
أصحابها، بأسرار أهلها، بضحكاتهم، بدموعهم، بضمايمهم لبعضهم
البعض، لتقول للسلاسة الذين يتشدقون علينا من شرفاتهم، بأحاديثهم
ووعيدهم: ما زلنا في هذا الوطن، نسكنه في كل حانة وشارع، بيوت لا
تتخلّى عن هويتها.

آآآه يا ليبيا. يا صديقتي الأزلية القديمة، يا بيتي، ويا شارعي، يا
زاويتي وحاتتي، يا مدينتي الكبيرة، يا قلبي الصغير، أينك؟ أينك مني

ومن كل محبيك؟ أين المدن الفارهة؟ والقرى الضاحكة؟، أشتاقُ إليك،
أشتاقُ إلى رائحة الكسكسي في ردهات بيوتك، أشتاقُ إلى حوارات
النميمة الجميلة، وثرثرة الصباحات الشائقة، التي تضجُّ بأحاديث
البيوت، أشتاق إلى هاتفي حين يرُنُّ ويلوح لي منه اسم عزيز على قلبي،
أُمُّ تسأل عني، أو صديقة تتذكرني، أو صديق يدعوني لأمسية شعرية، أو
جارة تستدعيني من أجل حديث مسائي معها، أو أخت تدعوني للغذاء
عندها.

أين تختبئين يا بلادًا ضيَّعها الحمقى بنزقهم، اخرجني بالله عليك من
هذا القُـمـم، واخـلـعـي عـنـك ثوب الحرب الذي لازمَ جسدك الطاهر،
اخرجني من الحزن، ومن محطات الانتظار، اخرجني من العتمة، من بحر
الرمال، اخرجني عن صمتك، ومن سجنك، من أبجديات الغياب
والفراق، وغـبـش الضباب، ودخان الرماد الذي تسرّبـل مُتـمـاهـيـاً في
السماء.



انسابت دموعي كنهـرٍ جارٍ وحارٍّ فوق خدي، عبرت أخذودها إلى
شفتي، أعرف هذا المذاق جيـداً في بنغازي، تذوقته حتى الثمالة، شربته
وصار جزءاً مني. أعرف مصدر هذه الدموع .. مثلي جرَّب كيف
تتحول العيون إلى بئر ماء؟

كيف تتكحل بحزن الثكالي من النساء؟

كيف تغدو لغتها لحنا يحاكي قصائد المساء؟

كيف يتسرب الوجود كعامود دخان يترشح في السماء ...

مثلي كثيرات يقضين أيامهن وهنَّ يتجرعن مرارة الكأس، يعانين
ذكورية المجتمع نحوهنَّ، يحاولن شقَّ طريقهن نحو النور بأنفاس
مختنقة، يكابدن العناء، ويتكبدن خسائر فادحة في الأرواح، كي يكون
الوطن لنا .. أمهات وحيدات .. كيبوت غارقة في العزلة، ربَّات قلق،
وينابيع من فيض مالح، تاهَ عن تعابير الفرح.

شعرت بيد عمر تمتدُّ لي، وتمسح دموعاً كانت تعرف أصابعه،
نظرت إليه في شكر، وبقيت كفي في يده. كانت الفسحة المربعة جميلة،
تأملناها كثيراً، وعابنها طارق أولاً .. ثم أردف يقول:

- بحسب وصف السيد حسن الفيل فإن هناك باب يؤدي لغرفة
تعدُّ هي البدروم.

نظرنا للباب الوحيد في الفسحة المربعة، دلف إليه عمر وطارق،
وبقيت السيدة بهيجة تصور المكان، كان شكلها جذاباً بملابسها
الكتانية الأنيقة، وبنطلونها البني الغامق، أما أنا فأفكر: كيف هدى الله
صاحب المبنى، لأن يبني هذه الفسحة؟ فحتى السلام تبدأ من الشُّرفة
المطلّة على الخارج، لكنه أحاطها بحائط مربع وطويل، لتبدو من الخارج
كأنها عمود عريض وطويل، يُشبه المدخنة .. نظرت لفوق فإذا بالحائط
ينتهي بسقف يبدو كصومعة مسجد، على حجم أقل.

لحقنا بعمر وطارق، للباب المؤدي للغرفة .. كان البدروم فسيحاً
ومفروشاً ... يحتوي على مكتبة كبيرة جداً، وجدارية للوحة العشاء

الأخير، وأريكة بنية قائمة طويلة، وثلاجة صغيرة، ثم طاولة اصطفت فوقها كتب وبعض الروايات ... جلستُ إليها فقد جذبتني العناوين، تصفحتها: شجرة الصفصاف، بيت وحيد، فلسفة أرسطو، الحوليات، فستان الدانتيل، أحذب نوتردام، المجوس.

أشار عمر للأجهزة التي اصطفت في أناقفة، ووضعت بطريقة يمكن لأي شخص، أن يشحنها فوراً للسيارة، بدون أن يرهق في حملها، فقد كان كل جهاز موضوعاً فوق حاوية تحمله فوراً، دون التعرُّض لإفساده، أو تحريكه، ووقف طارق يتأمل الأجهزة، كانت تصطف قُرب الجدار، وكنتُ جالسة على الطاولة أشاهدُ الكتب، فيما بقي الاثنان يفتحان الغلاف الخارجي لأحد الأجهزة لتفحصه، ومقارنته بالمعلومات التي تتوفر في هاتف عمر، بحسب ما ذكرها المصدر الطبي تماماً ... وثقتُ بهيجة المشهد الذي حصل من أجله كل هذا الزحف، والتوارد في الخواطر .. إنه فيلم أكشن ينقصه ممثل سعيد، وليس بطله حزينة مثلي.

نظرتُ إلى ساعتني كانت السادسة مساءً، ويبدو أن ستار الليل في الخارج قد بدأ ينزل .. عندما علا دويٌّ انفجارٍ هزَّ أركان المكان .. ودون سابق إنذار انقطع التيار الكهربائي بالغرفة، وغابت الرؤية تماماً عنا، فنحن تقريباً تحت الأرض بطول سلام ارتفاعها خمسة أمتار تصاعدياً. كان الانفجار صادماً جداً، لدرجة فقداننا توازننا، شعرتُ أنني عدتُ إلى عصور قديمة أخذني فيها السرحان، دوامة دارت بي فجأةً، وزوبعة ريح غيّرت اتجاه المساء الماطر، والمتسلح بالهدوء.

لا أعرف لماذا أحياناً يكون كل شيء جميلاً؟ ورياحه هادئة ذات
نسيم شاعري، ثم على حين بغتة يعلو صفيرها؟ لا أفهم كيف يبدو
الأمر كالربيع، في سيره، ومناخه، وجماله، وبلوغه شدة الاخضرار، ثم
يستحيل خريفاً يتحرش بعذرية الوقت؟

صددمات .. صدمات ..

دار رأسي بشدة... شعرتُ بالألم يعصرني .. بكهفٍ طويل يُشبه
النفق .. وضعتُ يدي على أذني، غطيتُ رأسي بمرتبة الصالون من شدة
الصوت العالي.

كنت أصرخ، أبكي بشدة، وأنا أقول بالليبي:

مش عارفة لعند امتي يا ربي ..

لعند امتي ونحن هكي حالنا

معش نقدر نتحمل... معش فيني روح نتحمل.

أصوات تصرخ .. سمر .. سمر .. ركض بالقرب . مصباح هاتف
يتسلط على وجهي . فقدتُ الوعي، وغبتُ عن الوجود.

بعد خمس ساعات كنتُ جالسة القرفصاء، فوق الصالون الفسيح
.. كان عمر وطارق يوفران بطاريات الشحن الخاصة بالهاتف، فيما
طلب مني ومن بهيجة، أن نطفئ هواتفنا ؛ تحسباً لأي طارئ. ظلت

المنطقة تهتزُّ بالانفجارات، وهذا هو الثالث مع تبادل مكثف لإطلاق النار، يبدو أنَّ الجيش يحاول دفع مجموعة ما للخروج - من نقطة تجمع لها، وكما يشير طارق أنها قد تكون المستشفى الكبير بالمنطقة، وهو متخصص بأمراض القلب والشرابين.

قالت بهيجة متسائلة

- لا نستطيع الخروج الآن؟

رد طارق:

- وكيف سنخرج؟ قد نتعرض للخطر، بإطلاق الرصاص مُتبادل بحسب ما نسمعه.

ارتعشت بهيجة بشدة، فنحن بمكان مُنعزل عن النقاط الحيوية في بنغازي، ويعتبر نقطة تماسٍ مع الجماعات التي تتخفَّى هنا، ولهذا كان الجيش يُؤخِّر عودة الأهالي للمنطقة حين تمشيها تمامًا .. يا الله!

- هل كانت حساباتنا خاطئة يا عمر؟

نظرتُ إليه بخوف وكان جالسًا يتأمل بصمتٍ عميق.

- إنه موقف غير متوقع يا سمر، ونسأل الله أن تكون عواقبه غير وخيمة.

كان طارق يروح، ويحيي بالغرفة، ثم قال فجأة لعمر:

- السيارة يا عمر .. السيارة!

حدّق إليه عمر بدهشة، ثم فهم المقصود، فقال لطارق:

- ماذا تقترح؟

ردّ طارق بسرعة:

- الأدوية المكلفة؟! إنها مسؤولية يا عمر، علينا أن نعود للدور العلوي أنا وأنت ونحاول إدخالها للمبنى.

خيّم صمتٌ ثقيل، قطعه عمر بقوله:

- أربعة صناديق كبيرة، وصندوقان شبه فارغين من الطعام... نحتاج يا طارق إلى عشر دقائق إذا كنا سنعمل على إدخالها بسرعة للداخل.

وافق طارق، ثم سمعناه يقول:

- ابقيا هنا، فالمكان آمن يا سمر، وبهيجة.. اجلسا فقط على الصالون؛ لترتاحا جيّدًا.

صعد الرجلان للأعلى على ضوء مصباح الهاتف، فيما ظلت بهيجة على الصالون الوثير، فكرتُ قليلاً فيما حصل وما سيحصل، لقد أفقدني الانفجار صوابي، وتذكرت فوراً الحادث الأول، الانفجار الذي أفقدني طفلي، وقتل فيه أطفال بالمدرسة التي كنتُ بها. لا أعرف لماذا الانفجار في منطقة خالية كهذه؟ ربما كان صادراً من المستشفى كما أشار طارق، فإن كان هو فهو يبعد عن هنا مسافة نصف كيلومتر تقريباً، ربما تكون

الجماعات المتحصنة فيه قد هربت بعدما باغتها الجيش، أو يكون الأمر العكس، فربما يكون الجيش هو ضحية الانفجار.... يا الله! لو كان هذا سيحصل سنُحاصر هنا بلا شك. يجب أن أتخلّى بالصبر، وأفكر بالأهم.. هذا هو الأكثر حكمة الآن، التعامل مع معطيات الموقف الذي يحدث. نحتاج بطاريات شحن، نحتاج شيئاً للأكل، نحتاج ماء، بطانيات إن وُجدت، دورة مياه، لا بد من اكتشاف مكانها، ولاعة، بوتاجاز وهذا مستحيل، فالمبنى وإن كان مجهزاً، لكنه مهجورٌ، ولا يمكن أن يتوفّر فيه الغاز لتشغيل البوتاجاز.. الغاز الذي صنع لنا فلسفة الانتظار الواقف على عقارب التوقيت.

أشعلتُ مصباح هاتفي.....

بدأتُ في البحث داخل أدراج المكتبة الموجودة أمامي، ثمة مناشف، مناديل للمائدة، آه سجائر وولاعة.. هذا جيّد لعمر، فهو حين يقلق يدخن ليهدأ... تذكرت البار الذي يوجد به عصير وفناجين قهوة.. لا بد أن صاحب المبنى السيد حسن الفيل، جهّز فيه ما يصلح لعقد جلسة عمل، واجتماعات لصفقاته التجارية، فهناك ما يساعد على إعداد القهوة، خرجتُ من الباب إلى البار، فتشت داخل البار... كان يعجُّ بالبن، والعصير المتنوع، حسناً هذا جيد مؤقتاً.

بحثتُ عن مكان يصلح لغاز طهو، كان هنالك موقد صغير، مصنوع من القرميد يتوسط البار، به بعض الخطب، أظنه صُنع كمنظر مكمل لديكور المكان.. آه هذا بوتاجاز يدوي صغير... رفعته

لأتحسس ما إذا كان ممتلئًا بالغاز أم لا، كان جزئيًا معبأ... به ما يكفي إلى حدٍّ ما، حملته للغرفة، وعدتُ لجلب بعض العصير والبن، وأكواب وفناجين.

بدا لي الضوء ضعيفًا ومُرتبًا .. حتى أنني توجستُ أن يكون هاتفي خائفًا معي أيضًا. إذا كان صاحب البار قد وضع البن والبوتاجاز هنا، فلا بد أن ثمة صنوبرًا للماء، أو مكانًا يسهل الوصول إليه لصناعة القهوة، كنتُ أبحث عن مصدر للماء، عندما سمعتُ ضوضاء تأتي من أعلى الدرج، نظرتُ لأعلى متوجسة، كان عمر وطارق يُنزِلان الصناديق من الدرج، ويعودان لفوق.

آه هذا ما آل إليه حالنا في هبة ريح. يا لعمر المسكين... يا حبيبي الشقي ... متى يفرح قلبك، ويهنأ بالك؟ جلستُ .. لم أقوَ على الوقوف ... ذرفت دموعي بحرارة .. تشهد على بكائي هذه العتمة الضئيلة، التي لم تتوقع أن تكسوها أربع هامات بالضوء .. نعم بالضوء، فنحن الهلاليون شموع هذا الظلام الدامس.

اكتشفت مكان صنوبر الماء، كان الصنوبر مخفيًا في جهة الحائط المرصوفة عليه رفوف الأكواب والفناجين، يمكنك أن تفتح ذلك الغطاء المربع الشكل، والذي يبدو كغطاء مفاتيح الكهرباء الرئيسية، لكنك تُفاجأ بأنه عبارة عن صنوبر ماء، تحته حوض صغير جدًّا، يكفي لتمرير اليد، وغسل الأكواب فقط .. كان ذكاء معماريًا من مهندس المكان.

حسنًا .. بانتظار نزول عمر وطارق، فهنا في الطابق الأرضي لا توجد أغذية، ومعلبات، أي شيء يمكن توفيره تحسبًا لأي طارئ.

دلفتُ للغرفة الداخلية، خلعت حذائي الشتوي، البرد قارس، وكانت بهيجة قد نامت بمكانها، الليل شديد العتمة، والحديث فيه يطول، جلست قرب بهيجة، يجب أن تحصل على غطاء، فأنا أكادُ أستشعر رعشتها..

نزل عمر وطارق، دلفا للغرفة في وجوم، شاهدت ملامحهما وقد ارتسمت بالقلق والعبوس، دارت في ذهني أسئلة لو كانت لها أعناق لذبحتها، لكن الأسئلة تتخلق في عقولنا، لها أرجل تمشي بها فقط، تمتدُّ وتكبر وتتطاوّل، فإذا حصلنا على إجابتها قُطعت رجل السؤال.

قال عمر:

- المكان فيه حركة كبيرة، لا نستطيع الخروج الليلة.

قلتُ في هدوء:

- لو كان الأمر الليلة ستتحمل، ماذا شاهدتما فوق يا عمر؟

صمت عمر ولم يرد.

كررت السؤال ..

ردَّ طارق في تراخٍ غريب:

- في الحقيقة يا سمر .. شاهدنا مجموعة مسلحة تتجول في الشارع المقابل .. نظرنا من فتحة السور .. رأينا سيارات بها مسلحين.

- ربما الجيش يا طارق.

نفى طارق قائلاً:

- ليس الجيش. الجيش يا سمر متمركز عند البوابة التي عبرناها.. السيارات التي رأيناها عليها أعلام.

أكلني الصمت .. بل ابتلعني ... مضغني في قسوة و شراسة،
رمانى لذئاب الظنون، وسباع الخيال الخصب، وتماسيح البر ماء الجائعة.
مضت ساعة وأكثر، الظلام يشتدُّ في قوته و ضراوته، يتسرب شيئاً
فشيئاً، يكتسح بلونه كل شيء، يمرر سواده فوقنا، نخنع له باستسلام
تامٍّ، وكأننا ضحايا الطريدة، التي تمضي النهار وهي تتحرك تحت
الضوء، ويحلق إليها الليل بانتظار افتراسها بالنوم.

ليت النوم يأتي!

فكرتُ في إعداد قهوة، فنهضتُ وبدأتُ في إعدادها بما جلبته،
أقترُبُ عمر، وبدأ في مساعدتي، كنتُ أعرف أنه قلق عليَّ بشدة، وأنه
يكره العنف، يبغض الأذية. أعددتنا القهوة معاً، سكبناها في أكواب،
تركنا بهيجة لأنفها فربما سيلتقط الرائحة، وسيحلوا لها أن تشاركنا.

لا أعرف كم سنبقى، وأنا التي تفاءلت بأننا سنغادر في الصباح،
الوجوم لا يغادر وجه عمر ووجه طارق، فلا بد أنهما شاهدا أكثر مما
قالاه لي، ولا بد أن الجماعة المسلحة ذات عدد كبير، أو هي فرقة كاملة
..يا الله! لو صحَّ ذلك فنحن في خطر.

الثالثة صباحًا.

نمتُ على الصالون قُرب بهيجة، ونام عمر وطارق على الصالون
المقابل ..تلملتُ، غادرتي النوم، فقدتُ قُدرتي على التركيز، حاصرني
جيوش القلق، أدركتُ شدة معاناة الآخرين، الذين نراهم في سوريا، في
أتون القهر والاعتداء، وتحت رزح التهجير والاعتصاب، والرغبة
الشرهة للقتل والذبح، والأسر والاستغلال في السجون.

تذكرت الموصل التي تعاني تحت رحمة الإرهاب - تذكرت
الايديديات المسكينات، هن نساء حملن غصن الزيتون كنحن،
مسالمات، ربات بيوت وحقول، ملكات بساتين، وحدائق، وفارسات
خيول، وميادين، باعوهن في أسواق النخاسة، وضعوا تسعيرة على
أجسادهن، اغتصبوهن، جردوهن من قيمهن، انتهى تعليمهن،
وسنوات الجامعة التي تعبن فيها، بكلمة مختصرة، وموجزة جدًا هي
كلمة ... سبية.

لا يفرق الإرهاب بين دين ودين، ولا طائفة وطائفة، إنه أعمى لا
يرى ضحاياه.

ما معنى كلمة سبية؟ من أين أتت؟ مَنْ أيقظها مِنَ المعاجم القديمة؟ مَنْ نفخ في تراب عصرها؟ مَنْ أثار الريح، وأعاد عصرنا لأزمنة الغبار القديم؟

السَّبِيَّةُ تُسبَى في الحروب، وتُباع وتُشتري، تعمل خادمة أو وصيفة من وصفات زوجات الأرباب. السَّبِيَّةُ الآن سلعة رخيصة، بعد هذا التشيُّؤ المقيت الذي استفحلت فيها الذكورية قوتها، وتزايد تعنتها، واستقوت بالشر ضد خصوبة هذه الأرض.

لقد كرهتُ سماع الخطب التي يكرسها شيوخنا في دروس العقل، حين اكتشفت أن الإسلام يُضرب في قيمه، ومعايره السلمية، وتُبل أخلاقه، حين عرفت أن هنالك انزياحًا كبيرًا في المعاني، وتغير عظيم في تعريفاتنا القديمة.. أدركت أن شيوخنا مجرد أشخاص يكررون علينا النصوص القديمة، بدون أن ينتبهوا لما يحصل لنا في إسلامنا.

أسئلة... حصار.. أسوار.. أنثى تريد الأمن... ليل طويل.. زوج يتوجس خيفة.. مدينة تقاوم وتعاني دولة كلما أرادت القيام، عرقلوها عن النهوض.

آآه.. أسدلت ستار عيني، وأسبلت جفوني؛ لاجتياح جيش الظلام الهادر.. نمتُ، ونام تعبي في قلبي. كانت الساعة تشير للسادسة صباحًا، عندما فتحتُ عيني، ونظرتُ حولي، المكان غريب....وقد بدأ الضوء يتسرب من فتحات تهوية علوية جرت على الحائط المستدير الذي يُخفي السلام من الخارج.

نهضتُ وبقيتُ جالسةً مكاني، نظرتُ لعمر، لطارق، لبهيجة، كانوا نائمين، بقيتُ أتأمل وأنا جالسة، لا أعرف أين كان نخباً هذا اليوم، سارت الأمور على ما يُرام لولا ما حصل أمس، وهذه الصناديق التي معنا، أصبحت عبئاً، ويجب أن نُعيد تخزينها — إذا طال البقاء هنا.

اقشعراً جلدي، من فكرة طول البقاء هنا، فسواء بقينا أو انتبهوا لنا، نحن عالقون في المكان، لحين رؤية دورية للجيش الليبي، عندها يمكننا إظهار أنفسنا لهم.. فكرتُ في الانتقال للدور العلوي، ربما أستطيع جلب شيء للإفطار. تسربتُ بهدوء من مكاني، وبدأتُ في صعود الدرج، بهدوء وحذر، أخيراً ظهرت لي الشُرْفة.. ولجْتُ من الشُرْفة لداخل المبنى، ومنها نزلت للدور الأرضي، حيثُ يمكن أن يكون المطبخ، ودورة المياه. في الحقيقة حاجتي لدورة المياه أقوى، دخلتُ للحمام، اغتسلتُ بعد أن خلعتُ ملابسِي، انتظرتُ قليلاً ليجف جلدي بدون منشفة، كنتُ أرتعشُ من برودة الهواء، لبستُ ثيابي وشعرتُ بالراحة قليلاً، هذه المنطقة تعتبر منطقة أرضية، ومياهها تأتي من الخزانات مباشرة، دافئة نوعاً ما وليس كثيراً.

خرجتُ فوراً للمطبخ، بحثتُ عن مُعلّبات، هنا كانت المجموعات المسلحة، منذ عامين، ويبدو المكان خالياً من أي تموين غذائي، بعض علب الحليب، ما زالت صالحةً لم تنتهِ، عُلبتا تونة كبيرتان، بسكويت، وعلبة صلصة طماطم، لو أحصل فقط على أرز أو معكرونة.. نعم هنالك أكياس دقيق وزيت وقشدة، وبعض الزبيب واللوز، لا

بد أن صاحبة المنزل كانت تُدبّر لظهو أرز بالمكسرات... جمعتُ الأشياء، وبسرعة البرق وضعتها في وعاء كبير، وألحقتُ بها بعض الصحنون والملاعق، وسكينًا وحيدًا، صعدتُ للدور العلوي، ورأسًا إلى الشُّرفة ثم نزلتُ. كان الجميع نائمين... حين دخلتُ قمتُ بتشغيل البوتاجاز المحمول، وبدأتُ في صنع قهوة.. سوف يستيقظون من تلقاء أنفسهم، نهضتُ بهيجة أولاً، نظرتُ لي وهي تبتسم قائلة:

- صباح الخير سمر...أأنتِ بخير؟

ابتسمتُ لها:

- أنا بخير، كيف كان نومك؟

اعتدلتُ بهيجة في جلستها وردت قائلة:

- كوابيس، نوم متقطع في الساعات السابقة، برد يا سمر.

- آه على ذكر البرد، نسيْتُ أن أجلب بطانيات من فوق.

- هل كنت فوق يا سمر؟ كيف صعدتِ بنفسك؟

- لا أحد هناك يا بهيجة، حصلت على بعض التموين، سأطلب

من طارق وعمر أن يصعدا معنا بعد قليل؛ لجلب أشياء أخرى.

نهض طارق وعمر معًا.. ألقيا التحية، صمت دافئ، ورائحة خوف

هادئة تُحيي على الغرفة.

- خذ قهوتك يا عمر، صباحك طيب يا غالي.

قلتُ له ذلك بابتسام، حتى يطمئنَ أنني بخير، مددت قهوة لطارق
وبهيجة، جلسنا في صمت، نرتشف الوقت أكثر من البن، نظرت
لساعتي كانت تُشير إلى الثامنة إلا ربعاً... قال طارق:

- ما الخطوة القادمة يا عمر؟

نظر عمر بهدوء ثم قال في ثقة:

- الخطوة القادمة يجب أن نصعد كلنا، أنا وأنت نراقب الشارع
من الاتجاهات الأربعة لنعرف موطن قدمنا؟ وبهيجة وسمر ستجلبان
أي شيء يصلح للوضع الذي نحن فيه.

قالت بهيجة:

- سمر جلبت تمويناً غذائياً، وجدته فوق.

نظر عمر في لهجة تحذير لي:

- سمر حبيبتى، لا تُكرريها رجاءً منك، اصعدي مع المجموعة،
افعلي ما نقوله لك.

نظرت إليه في خجل أمام طارق: لم أقصد الانفراد بالتصرف،
ولكن كنت قلقة، متضايقة من نفسي، فاغتسلت وجلبت الأشياء.

: هل هناك ماء؟؟

رديت على طارق: نعم هناك ماء، من الخزانات الطبيعية المعروفة
في المنطقة، هو دافئ قليلاً

قال طارق: نحن نحتاج لدورة المياه، ويجب أن نصعد جميعنا
مادامت المنطقة هادئة الآن

جمعتُ فنجانين القهوة والصينية، وضعتها جانباً، وأنا أجهّز نفسي
لالصعود، أحكمت غطاء الرأس، ثم ارتديتُ الجاكرت وبدأنا في
الصعود للطابق العلوي.

في تقييمي للوضع الذي نحن فيه .. نحن في خطر، فبعد أيام
سنفقد مصادر الغذاء، بهيجة امرأة خمسينية، قد لا تحمل هذه الظروف،
طارق شاب أربعيني غير متزوج، يحلم بالاستقرار، والحصول على
فرصة عمل، هو خريج كلية الاقتصاد، لم يستطع البقاء في البيت، ولا
توجد فرص عمل، فخرج للהלّال الأحمر متطوعاً، يقتل الوقت بيديه،
على حد تعبيره لنا ذات مرة، عمر تجربته قاسية ومحنة.

فإذا علقنا هنا، سيعود ويتذكر أيام سجون تشاد والأسر، والبقاء
في متاهات الفراغ، أنا أصبر على أي شيء إلا أن أشعر بالرعب أو
الإرهاب، أقبل أن أموت هنا، ولا أقبل أن أقع أسيرة لدى الجماعات
المسلحة، في الحقيقة مجرد تذكر مشاهد الرعب، والاعتصابات، يجعل
الدم يفرّ من عروقي، وحتى بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين معي، خوفهم
لا يقلُّ عني، لأن هذه المجموعات بأفعالها تعتبر شرسة، وقد تقوم
بالقتل والذبح.

عندما أتذكر ذلك، أشعر بالدونية... شعرت بدموعي تذرف
ساخنة على وجهي .. نعم أشعر بالدونية . كبرتُ وأنا أعرف أن الذبح

للحيوانات، وكان أبي - رحمه الله - أيام عيد الأضحى يذبح الكبش،
ويقيم طقوس الذبح باتجاه القبلة على سنة إسلامنا، كان الخروف
يستسلم لقدره، في سكينه وسلام، ثم شاهدت في محل الجزار كيف
تُذبح الطيور، وكيف يتم نتفُ ريشها، كان الذبح مرتبطًا بالحيوان، في
مخيلتي الخصبة التي لم تسرح يومًا بخيال يشطح بها؛ لتخيل الإنسان
مذبوحًا، وحين صدمني واقعنا المقيت، وشاهدتُ عبر التلفاز عمليات
ذبح، يحزها السكين بكل سباحة، ذهبُ للتاريخ وفتشتُ في مناقب
الكتب، وطرحت أسئلتي على العمّ جوجل، ففتح لي صدره، وأُشعر لي
نافذته على ذاكرة يوتيوب، وهو يُوثّق فيها كيف يتم ذبح الإنسان
كالحيوان!

شعرتُ أنه مريض عقلي اجتاح البشر، وانتشر في عدة دول، ومثلما
يمرض الإنسان، تمرض الدول كذلك بهذا الداء العضال الذي تفشى
وانتشر بسرعة الهشيم في جسد العالم.

بعد قليل اتصل بنا الهلال الأحمر فأبلغهم عمر عن مكاننا، وعرف
منهم أن المجموعة التي شاهدناها تتبع المجموعات التي يطاردها
الجيش، وهي فارة من المستشفى، بعد تقدّم صنف الهندسة العسكرية
هناك، لكنهم لم يصطدموا بها بعد فرارها ولا يعرفون مكانها بعد.

نقلنا الأغراض للبدروم، من أغطية ووسائد، ووجدنا ولاعتين،
ومُسخنًا كهربائيًا، وإبريقًا حراريًا حافظًا لحرارة السوائل، وهاتفًا بدون

شريجة كان بأحد أدراج غرفة النوم، مع بعض الملابس التي أخذناها للضرورة بما يُناسبُ كُلاً منا.

قلتُ لعمر:

- حتى إذا فكرنا في تناول شيء من التونة، لا نملك الخبز.

ردَّ عمر:

- عزيزتي سنأكلها بدون خبز حتى ينظر الله في أمرنا.

قالت بهيجة:

- لو وجدنا فرنًا صغيرًا، يمكننا صناعة خبز بالدقيق المتوفر.

ردَّ طارق:

- وأين الكهرباء يا بهيجة؟ الانفجار تسبَّب في قطعها؟

سكتت بهيجة.. قائلةً:

- صحيح.. حتى لو وجدنا الفرن لا فائدة منه.

جلسنا القرفصاء جميعًا على الأرض، إلى أن تُمَشِّطَ فِرْقُ التمشيط المنطقة، والهندسة العسكرية للجيش، سنكون قد قضينا أيامًا ونحن نخاف الظهور في المنطقة، وقد يمسكون بنا. تذكرتُ السيارة، فقلتُ بصوتٍ عالٍ:

- ماذا بشأن السيارة يا عمر؟ هل ستبقى هناك مكانها مكشوفة؟

نظر عمر لطارق متسائلاً.. فلم يُجِبْ طارق.

قال عمر:

- فكرنا في إخفائها، لكن نحن نخاف تشغيلها فيسمعنا أحد.
يجب أن نُخفيها مبكراً، ربما نفعل ذلك بعد قليل.

خِفتُ أن أقول لهم لنحاول الخروج؛ فنقع في الأسر وأكون أنا
السبب، خِفتُ أن أغامر مع عمر، ونخرج، فنضيع معاً. بقينا حتى
الثانية بعد الظهر في نقاشات، وحوارات عن تقدم الجيش، كنا نسمع
بين حين، وآخر دوي انفجارات بعيدة عنا، وأصوات رصاص قريبة
نوعاً ما، مما جعل عمر وطارق يجزمان أن منطقتنا تحتوي على مسلحين
لم يغادروا بعد.

تناولنا بعض الطعام، اقتسمنا علبة تونة، لسدّ جوعنا، ثم تناولنا
شايًا أحمر، وبسكويتًا، وبعد نصف ساعة تقوَّع كل شخص، في جهة
محاولاً النوم.

جلبتُ بعض الروايات من الطاولة التي تتوسط الغرفة، راق لي
عنوان رواية (فستان الدانتيل) تحكي الرواية قصة بطلة فقيرة، تعيش في
أحياء متشردة، يُعجب بها شخصٌ غني، ويشترى لها ثوباً من قماش
الدانتيل، مع حذاء ذي كعبٍ عالٍ، وحقيبة، وقُبعة، ومروحة، يُقرّر
لقاءها، فيبعثها للمزين، لتُصلح من شكلها، وتتغير تماماً، وعند
خروجها للقاءه، يحدث أن تنقطع أخبار الرجل في ذلك اليوم، ويغيب

عنها السائق، فتعود للمزين؛ لتشاهد مباشرة على التلفاز نبأ مقتله في حادث إرهابي، تُقرّر الخروج من المزين وتتمشّى في الشارع، إلى أن تدخل مطعمًا؛ لتفرح قلبها بما تبقى لها من مال، تبقى على طاولة وحيدة، فيأتي البطل الذي دخل لأول مرة لهذا المطعم، هاربًا من زواج تقليدي، يتعرف إليها؛ ويعجبان ببعضهما البعض، تُخفي عنه فقرها وأصلها، وتنتحل شخصية سيدة من المجتمع الراقي، فيقع كثيرون في غرامها، وتُكوّن ثروتها الخاصة.. إلى أن يتم اكتشاف أمرها، ويبدأ الصراع بين الحبّ والانتقام.. وفي غمرة ذلك، كانت السيدة الفقيرة، تكنّ لثوبها المصنوع من قماش الدانتيل تقديرًا خاصًا؛ حتى أنها أصبحت تشتري كل ثيابها من ذات القماش، وفاء للرجل الذي انتقاه لها.

كان عمر يراقب سمر، وهي تقرأ سرحانة في الرواية، متسائلًا: إلى متى هذا المآل؟ وهل سيبقى هنا في هذا السجن؟ تذكّر تشاد وسجونها، تذكّر العزلة عن الخارج، تذكّر التفكير الجماعي، سوء الأوضاع المعيشية، سوء التغذية، الاعتداءات بالضرب، الموت الجماعي، والدفن الجماعي، تذكر الهروب، ورحلة المطاردة، حتى النجاة والسفر لأمريكا.

تذكر كيف بقي هنالك في حياة المنفى، وحيدًا معزولًا، غريبًا متوحّدًا، لا أخبار يمكن أن تأتي، من بلاد بعيدة، نظامها يطبق الأنفاس على أهلها، ولا رائحة تزكي هذا الفراغ بطيب عطرها، لا رحلة يمكن أن يسافر فيها، فيلتقي ابنه ربيع وأخاه تيسير، ولا سُلطة يمكن أن

تسمع لواعجه، وتحترم أنينه، وتقرر أنه إنسان يستحق أن يكون مواطناً، في دولة مواطنيها غائبين عن وعي العالم.

والآن .. هل بعد هذه المسافة، وبعد هذا المشوار، ومسيرة العذاب، ينتهي كل شيء به، وبالمراة التي أحبها قلبه إلى هذا المصاب الجلل؟ هل ينقضي الأمر، وينتهي في بدروم تحت مستوى الأرض، يتلاشى فيه، ويذوب كفأر يختبئ في جُحره؟ هل هذه هي نهاية نضاله؟ مسيرته؟ قصته مع إناث؟ إناث التي أعادت له روحه! إناث التي عرف بها نفسه، واستطاع أن يُعيد اكتشافها، إناث التي كانت تنهياً له في أحلامه البعيدة، عندما تأكله الوحدة، ويقضم قلبه فراغ السجن، إناث التي ترجمت معاناة جيلها، فحق لها أن تجمع نساء في روحها، هل يخسرها وينتهي العمر بها؟ إنها تقاوم .. انظر إليها تقرأ، تعالج قلقها بهذه الطريقة .. تسيطر على روعها بالثقة والتوكل على الله.

تنهّد عمر وهو نائم على ظهره، وسرح يحدث نفسه: كيف ستكون النهاية يا الله؟ هل سيأتي الجيش ويخرجنا؟ هل نغامر ونخرج؟ وإذا قابلتنا مجموعة مسلحة، فأول من سيتعرض للخطر هو إناث، لأنها ستكون ضحية مطلوبة منهم، قد تُسبى، قد تُسخر لشيء غير لائق، قد يستغلونها، قد يلغمونها بحزام ناسف، خاصة أنهم قبل فترة أظهروا وجود مقاتلات معهم، قمن بعمليات انتحارية.

قطع توارد أفكاره صوت طارق وهو يناديه:

- عمر .. عمر تعال ..

نهض عمر، وسار نحو طارق الذي كان قريباً من الدرج، أشار طارق لأعلى الدرج قائلاً:

- هذا المكان مرتفع عن سطح الأرض من الخارج، على اعتبار أننا الآن فوق الدرج، والبدروم تحت الدرج.
وافقه عمر:

- نعم صحيح، ولكن ماذا تريد القول؟

- نعم، أريد القول، إننا سنحدث هنا ثقباً بمقدار حجر صغير، يسمح لنا بالرؤية، سنحدث واحداً هنا، وواحداً من هذه الجهة.
وأردف طارق قائلاً:

- المكانان، واحد تجاه الجهة اليمني، والآخر تجاه الجهة اليسرى، وربما الثالث بالوسط، الحائط من الخارج دائري.
وافق عمر، فهذا يوفر عملية الصعود، والنزول نوعاً ما، ولكن متى سيتم ثقب الجدار؟
قال طارق:

- سنقوم بهذا الآن، بواسطة المفكات، فالحجارة هنا بالحائط صغيرة كما ترى، ويمكن نحت طبقة الأسمنت وتحنيفها بالمفك، حتى تتحرك من مكانها.

نزل عمر وطارق، وفتشا بحثاً عن أدوات حتى وجدا علبة معدات وأدواتٍ كاملة. ثم ذهبا باتجاه صناديق الدواء، قاما بسحبها قرب

الباب، وتكديسها هناك، بشكل منفصل، حتى تحصل على قدرٍ من حسن التخزين. كان العمل مهمًا في هذا التوقيت الصعب، فكل ساعة تمضي تعني أنهم ما زالوا عالقين، ويجب ذلك أن يفكروا بطريقة سليمة، ويعيدوا برمجة حساباتهم. وبعد أن قاموا بترتيب صناديق الأدوية، سيكون عليهم إفراغ هواتفهم من معلوماتهم الشخصية، والصور التي قد تسبب لهم أي نوع من الابتزاز أو العقاب.

أخذ عمر هاتف سمر، وأخذ طارق هاتف السيدة بهيجة، وجلسوا جميعًا، وهو يحذفون الصور، الاحتفالات، والأمسيات الشعرية التي ظهرت فيها سمر، حين كانت تشارك بمهرجانات الشعر. تركوا صور عملهم بالهلال الأحمر، والتجمعات الإنسانية؛ حتى تثبت حيادهم، وعدم انتسابهم لجهة عسكرية.

بقيت السيدة بهيجة مشغولة بإعداد بعض الخطط الدفاعية الصغيرة، زجاجة عطر، إبر خياطة في قطعة إسفنج، سائل كيروسين في زجاجة ماء، ولاعة، وشمعة مع بعضها، لأي احتياط، أو موقف طارئ ..

أما سمر فقد خطرت لها أفكار أخرى، استطاعت أن تفتح مجرى زنار البنطلون، وتدس فيه من الداخل ثلة من أعواد تنظيف الأسنان، وزعتها بشكل متساوٍ، هذه العيدان ذات سنّ دقيقة، يمكنها أن تفعل الكثير، دست في المجرى من خلف الظهر واجهة هاتفها وشارحته، فيما رمت الغلاف الخلفي للهاتف، ودست بطارية الشحن في لفافة عريضة

كانت تلف بها شعرها، جعلت ربطة الشعر من جهة الهاتف إلى أسفل، بحيث لا تظهر جهتها للأعلى، ثم أعادت غطاء الرأس، ولفته حول رأسها في سهولة ويسر. وبهذا أمنت الاتصال في أي موقف يحتاجون فيه لاتصال إذا تعرضوا للاعتقال.



هل الأمل وليد الألم؟ أم أن الألم حين تتكاثر أعشاشه، يختار أن يكون وجعاً؟ الوجع لا يموت؛ لأنه شعور مستدام إذا كان يربطنا بجرح، يتصور لنا في صور وذكريات، الوجع إذا تفاقم وبلغ مداه فإنه يكبر ويصعب أن نتحكم فيه .. ولهذا لا تنسى الشعوب من تسبب لها في تاريخ دام، وموجع حد النزف. وهأنذا أنزفُ حدَّ الوجع، أكتب في هذا الزمن المبتور عن أعضاء الخارج، المعزول عن مدى الرؤية، أكتب عن أشياء جميلة، وأشياء تحاول أن تتحلّى بالجمال، أكتب عن أصدقاء فقدتهم، وصديقات غبنَ في أزمنة الغبار، أكتب عن الرائعين والرائعات، الذين سطروا ملاحم حُبٍّ وعشق لبلادهم، أكتب عن أفواج المهاجرين والمهاجرات، الذين للمموا وسائدهم، وما تبقى لهم من ذكريات، وغادروا. أكتب عن وجوه غابت بين زحام الحياة، ووجوه غادرت الازدحام لهدوء المقابر، أكتب عن اشتياق لا يتوقف دُم حنينه، وعن توقٍ لشوارع مكتظة بأحاديث المساء، أكتب عن هذه الشوارع الفسيحة، عن مقاهٍ تشتاق إلى روادها، وعن مدن تسأل أين ذهب ساكنوها؟ عن مقطع كبير مبتور من رواية مفقودة، حملها قلب جندي

بين جوانحه، وترك سرها في طي الغياب. أكتبُ عن سنوات جهاد،
وعقود كفاح، لم تتوّج حتى الآن بابتسامة نصر، عن دولة تاهت بين
سراويل الدول.

أكتب عنهم.. عمن خانوا، وسلموا مفاتيحهم للغرباء، عمن
تواطؤوا مع الغياب، وغيبوا مدناً بأسرها عن أرضها، أكتبُ عن وجع
مستمرٍّ داخلنا، يتوق للشفاء، لكنه في كل مرة يتسع ويتوسع شرخه،
حتى بدا فوهة لبركان.

أكتب عن قلوب بيضاء، أبحث عنها في أزمنة الفقد، عن أرواح
تهبني أملاً، وتعدني بوطنٍ، عن رجال شرفاء، أرى في عيونهم بيتي يعود
لي، وضحكتي تخرج من شرفة قلبي، مشرقة من غير سوء.

أكتب عن روايتي، ورواية رجل منسي، أسرد تفاصيلي الصغيرة،
ويسرد أوجاعه الكبيرة، نحاول أن نلتقي في نقطة عذابنا، ربما نصل معاً
لمحطة انتظار، تليق بمهمتنا الجليلة.

أكتبُ .. والقلم يهب قلبه للبياض، يمنح روحه قرباناً لزرقة الخبر،
ربما ستخطُ مسيرة بكائنا الطويل، وليلنا المتسربل في متاهات الظلام،
ربما تحكي أوجاع شعب، يرنو بطيبة روح للحياة.

أكتب لأنّ الكتابة تروي القلب، وتروي العينين، تشعرني أنّي نبتة
مستقلية في الظل، تنتظر أن يحبو نحوها شعاع الشمس، حتى يتلون
بخضور روحي، ويجعلني رواء.. رواء حد ثمالة البوح.

أكتب في أزمنة معلقة بين السماء والأرض، أنسج على خيوط الفراغ خارطتي، لعلها تجد لنفسها مكاناً بين إحداثيات طول الأمكنة والمدن وعرضها.

ها هي بنغازي تتسرب في الروح، كما يتسرب ملح السبخات لقلوبنا، ها هي رغم الرصاص والدم، رغم البكاء والنحيب، رغم عيون الشكالي ودموع الأرامل، ما زالت تضحك، وما زالت كعروس تشّشح البياض، وتسير حافية فوق سبخات الملح. ها هي كفتاة تبحث عن حبّيتها، وتخرج إليه في ثوبها المطرز، لتقول للعالم: صباح الخير.

ها هي.. وهأنا.. كلانا فاقد قطعة من روحه، وكلانا يرقص رغم الألم والوجع المستبد، كلانا يعرف موضع الشوكة في قدمه، ويأبى إلا أن يتحملها، كيلا يقال عنه أنك خسرت الرهان.. رهان الوطن.

هذه المدينة التي يرقد الوطن فيها، لا تعرف الانكفاء على نفسها، بل إنها لا تجيد لغة الصمت، ولا تقرأ القواميس التي تحتل التأويل.. تأويل أن يكون الوطن أو لا يكون، هذه المدينة يمكنها أن تتواطأ مع من يحبونها فقط، تواعدهم سراً، تأخذ منهم مواعيد الحب، وترفض مقايضة الزهور بالرصاص... لا تهبك شوكة وأنت تنتظر ورداً، لا تردك إذا جئتها لاجئاً، لكنها تلفظك إذا عشتَ فيها خائئاً.

هذه المدينة.. المألحة الطعم والمذاق، هي ليبيا الصغيرة الفتية، التي تضيع عينك وأنت تراها تتجدّد في ثوبها القشيب، دماؤها ألوان طيف من فصائل ليبية، التحمت وتشكلت في دم الوطن، لا تملك أن تخونها،

إذا كنتَ تملك ذرة شرف واحدة، لأنك لن تجد نفسك محبوباً من ليبي واحد.. يقول لك: بيدك خربت العش.

أيها العالم: لماذا لا تصالحنا؟ لماذا لا تتسامح معنا؟

لماذا لا تكون أبيض وجميل، لماذا لا تحمل لنا أخباراً سارة، وأوطاناً تليق بنا؟ لماذا لا تقبل بأحلامنا الصغيرة، وتطلعنا البسيطة؟ لماذا لا تكتب لنا حياةً نحلم بها؟ لماذا تحاول أن تسرق منا ليبياً فرحنا الصغير؟ هل لا بد أن يخرج إلينا الوهميون؛ ليخربوا الأعشاش التي تتطلع إليها الطيور؟

ما زلتُ حاملةً كبيرة.

أريدُ عالماً على مقاساتي، وتفاصيل قلبي الصغير، عالماً يتجرد عن الحقد الأعمى، والشر المقيت، عالماً تنبت فيه الأفكار النيرة السامية، التي تمتدُّ كعرائش زاحفة لتملأ قلبه بالنور.

أريدُ ديانات مسالمة، متصالحة معي ومع العالم، ديانات حديثها الزهور، ودساتيرها الياسمين، وقانونها الحب، وتحيتها سلام، ومناهجها السُّمو، وغايتها الإنسان، أريدُ أن آمن على روحي من شر الرُّهاب، من داء الأفكار السوداء.

لن أبني طواحين هواء كما طواحين دون كيخوت، لكنني في الحقيقة سأقاتلُ نبتة الشَّرِّ بالخير الذي يسكنني، وأبثُّ لغاتُ الحبِّ بلهجاتها كافة، لتصل لكل روح تؤدُّ أن ترتوي بدواء المحبة، وتُشفى من مرض الرُّهاب الفكري.

أريد لغاتٍ يرتع فيها الأدب بلاغة، فيكتب قصصًا جميلة، ويحكي
حكايات شهرزاد وشهريار، وسندريلا وفردة حذائها، وبياض الثلج
وأقزامها السبعة، أريد سلامًا... ينام في قلبي، وأستيقظ معه.

ألا تليق بي الحياة؟

أنا إنسان... أقصى أحلامي بيت يؤويني، شارعًا أعيش فيه، وسادة
تحتضن حزني، كسرة خبز تجعلني أعيش، علمًا يصلح لأن أكسب منه
عيشي، حرية تُوهب للساني، وتخلي سبيل وجهي من شرطي السلطة
الذي يضع شريطًا لاصقًا على شفتي.

آه، أعلم أنه عندما يستحيل الوطن لسجن كبير.. تكون ولادة
الحلم عسيرة.

كنت نائمة في قلق، الغرفة شديدة الظلمة، لم أتناول شيئًا، أكثر من
كوب ماء أجبرني عليه عمر أثناء نعاسي، سألته عن الساعة فقال لي:
الواحدة صباحًا، آه هذا هو اليوم الثالث إذاً. لقد نفد الغذاء لدينا، ولم
يعد لدينا سوى باقي كيس البن، وقطع بسكويت أكلتها الرطوبة.
نظرتُ إليه، نزلت دموعي، ولم أدرِ إلا وهو يضمني إليه، حتى غفوت
لديه، كان القلق مقروءًا فوق ملامح عمر، كما تقرأ عنوانًا رئيسًا في
صحيفة مشهورة، تعرف خطوطها جيدًا وتدرّك أنها تؤثر فيمن يقرأ
أخبارها بهذه الطريقة.

القلق مسكون في عمر منذ حرب تشاد، يتذكره متى رفع إصبعه الصغيرة في يده اليسرى، وكأنها تقول له: أنا مزروعة فيك، كتاريخ، كمرحلة، كعضو ما زلت تتعايش به.

أخذني الحلم به بعيداً، عندما كان التيار الكهربائي مفصولاً عن بيتنا في حي الزيتون، تذكّرنا حكوماتنا الثلاث، وباقي الأجسام التي تدير بلادنا، كنا نبكي من الألم، نئن من الحزن، نرقص زوربا، ونحن نقاومُ بها جراحنا ونزفنا، نرقص زوربا ونحن نقول لمن يحاولون تخريب عقولنا: ما زلنا هنا، وما زال يمكننا أن نكون شعباً، يصنع تاريخه ويستمر رغم مسيرته المحزنة، عبر رحلة التاريخ، وسنوات الظلمة إلى حقول الضوء.

وها نحن أولاء نغادر ولا نغادر.. نغادر للموت ولا نغادر مواقعنا في الميدان.. نغادر أهلنا وبيوتنا.. ولا نغادر ترابنا النابت في دمننا.. نغادر أفراحنا وأمنياتنا.. ولا نغادر ليبيا التي تنتظرنا.

على بُعد مسافة من الحلم، سيأتي القطار عابراً كل المدن، ومحماً بأعباء المسافة؛ كي يُقطع لقاءنا بالوطن سرّة الانتظار الطويل.

للحلم الذي ما زال بذرة في تربة الطين. للنبته التي لن تتوقف عن النمو. للشجرة التي ستكبر في فناء الوطن. للغصن الذي يريد أن يتعبأ بالأعشاش. للزهر الذي سيكون. للظل الذي اختار لغة السكون والصمت.

سيخرج كل شيء للشمس، للوهج، لضوء النهار، للحقيقة،
للذي يكون، وحتى الذي قد لا يكون سيكون وطنًا.

يقول سيدي عمر المختار: نحن نتصر أو نموت، فقط هذه هي
مهمتنا في هذا التوقيت الصعب، الخارج عن حسابات الزمن، وعن
توقعات الأمكنة والشخوص.

و في هذا المضيق الذي يفصلنا عن كوكب الوطن لا يسعنا إلا أن
نكون نحن نحن كما تشتهي أرواحنا أن تكوننا.

تعال وحرّرني من قيودي، تعال وافتح آفاق هذه المدن المغلقة،
تعال وأشرق أيها الفجر، تعال فنحن هنا نقاوم الظلام، ونلعن خطواته
بإشعال أصابعنا شموعاً في وجهه، تعال واكتب تاريخنا كما يليق بالدول
التي تصنع قدرها بيديها، ولا تنتظر أحداً .. تعال واحمق بضوئك عيون
الأسى التي تتكحل بها بنغازي، تعال وانقش حفريات النور، فوق
جدار هذه المدينة التي مهما تصدع بالشقوق، ستظل لديها القدرة على
ترميم جراح الوطن ... تعال .. تعال.

صرخت في داخلي، وفجأت أفقت. الصباح قد شارف بإطلالته،
وبدأ يتسرب لأول وجه فتحت عيني عليه، قال لي عمر:

- صباح النور سمر.
- صباح الخير، هل من جديد؟

ابتسم عمر وكان وجهه مرهقًا:

- نمت كثيرًا، الحديد أننا سنحاول المغادرة بعد قليل.

أفقت جيداً لحديثه، ثم نظرت لطارق الذي يعد القهوة، وبهيجة التي تجهز الفناجين، هل اتفقتم؟ هذا هو الصواب إذا كان لا بد منه.

قالت بهيجة:

- كل يوم نخسر، لا بد من المحاولة.

- نعم بهيجة... يجب أن نستعدّ لذلك بعد الفطور.

نهضت وصعدت الطابق العلوي بهدوء، رافقتني زوجي، وهو يضع يده في يدي، اغتسلت واصلتُ بهدوء تامّ ثم نزلنا، وفي أثناء ذلك سمع عمر حركة بسيطة في الخارج، فنظر من الثقوب التي أحدثها مع طارق قبل يوم، وشاهدَ من هنالك سيارة تسير بهدوء في الشارع، يقودها رجل ملثم، ومعه آخران.

- سكوت... ولا صوت يا سمر.

قال عمر بهمس.

هزئتُ رأسي، وقلبي يخفق بشدة.. ثم هدأ صوت السيارة، وابتعد... فنزلنا بسرعة ودخلنا، ونحن ننظر إلى طارق وبهيجة بصمت مفعم بالصدمة.

نظر عمر لطارق قائلاً: شاهدنا سيارة مسلحة الآن.. كيف

سنخرج؟

رفع طارق رأسه في مفاجأة ساحقة: ثم قال

- هل هم كُثر؟
- لا .. ولكن واضح أنَّه لا وجود للجيش، فالسيارة تسير براحة تامة.

- يا الله!

قالتها بهيجة، ثم أكملت:

- لن نخرج.

وقف طارق وهو يقول لعمر:

- أرجو ألا يكونوا قد شاهدوا السيارة يا عمر.
- هذا ما أخشاه يا طارق .. ما رأيك أن نصعد ونحاول إخفاءها، فالوقت مُبكر.

ردَّ طارق في عجلة:

- الموضوع ليس هنا يا عمر، الموضوع إذا كانوا شاهدوا السيارة أم لا؟ فإن شاهدوها، فإن إخفاءها سيعلن عن وجودنا، وإن لم يشاهدوها فعلينا أن نخرج وننتهي من هذا الانتظار، إننا سجناء هنا.

كنت أراقب حوار عمر وطارق، وبدالي أننا سنكون في مأزق في الحالتين، فإما أنهم شاهدونا، وإما أننا سنخرج ونواجهه، ونترك الأمر للحظ، ولا أعرف هل غادرت نقطة الجيش التي عبرناها؟ أم أنَّ ثمة

أمورًا تغيرت؟ وكيف أن الذين اتصلنا بهم لم يصلوا إلينا، ليلة أمس تحدثنا معهم، وقالوا لنا نحن أبلغنا الجيش عن مكانكم، وشارعكم، والمبنى الذي علقتم فيه... لا بد أن هنالك أمرًا جللًا، لم يخبرونا به.

نظرت لبهيجة التي تسكب قهوتها، وترشفها فنجانًا وراء فنجان، يبدو عليها التوتر والقلق، ولا بد أنها مثلي تتصور كيف سيكون شكلنا نحن الإناث في هذا الموقف.

الإناث.. آه كم اشتقت لمناداة عمري بهذا الاسم.. لم نتحاور منذ مدة حوارًا زوربيًا.

صعد طارق وعمر للطابق العلوي، وبقينا أنا وبهيجة نجمع بعض الأمتعة التي سنحملها في حال قررنا الخروج، غاب الاثنان حوالي عشرين دقيقة، ثم سمعناهما يتكلمان وهما يخرجان، بادر طارق بالحديث قائلاً بسرعة:

- سنخرج بإذن الله، المنطقة فارغة، ولا أصوات لسيارات قريبة.. جهزوا أنفسكم.

سألت عمر وأنا أربط حذائي:

- عمر هل نعود من نفس الطريق الذي أتينا منه؟

ردَّ عمر:

- نفس الطريق، لأن فيه نقطة جيش يا سمر.

- عمر لو كانت هناك نقطة جيش لوصلت لنا ..فكروا جيداً.
- نظر بعضنا لبعضٍ، قال طارق:
- هناك حلٌ، سنتصل بهم، ونسأل الهلال الأحمر.
- ارتحنا لهذا الحل، وبدأ طارق في الاتصالات، كان وجهه يعلوهُ
الوجومُ، وهو يرد بكلمة واحدة:
- نعم .. نعم .. سنرى .. حسناً .. طيب .. شكراً.
- أنهى طارق الاتصال قائلاً بصوت رتيبٍ وبطيء:
- النقطة سيطرت عليها الجماعات المسلحة، لأن المستشفى كان
مُعبأً بهم، والجيش تراجع إلى نقطة الجهة الأخرى المقابلة.
- وَقَعَ الخبر كالصدمة على رأسي، هذا يعني أن الجيش يبعد عنا
مسافة ٣ كيلومترات تقريباً، في الضفة الأخرى.
- جلستُ مكاني، ويدي على خدي، لن أناقش إذا قرروا الخروج،
سأخرج أسوة بهم ومعهم، ما يجري عليّ سيكون كذلك عليهم.
- رتبنا المكان لثلاثين يابوساً عليه وجود دخلاء، حملنا معنا بعض الأدوية
التي يصعب الحصول عليها، رفعت حقيقتي، وساعدت بهيجة على
ارتداء ملابس دافئة، حملت بطانية، وبعض الأشياء التي رأينا أنها قد
تساعدنا إذا تعرض لنا طارئ في الطريق، وصلنا للطابق العلوي، كان
طارق أماننا وعمر خلفنا يقفل كل باب نخرج منه، وما إن وصلنا

للباحة الخارجية حتى لاحت لنا السيارة. صعدنا بهدوء شديد، أشار طارق لبهيجة أن تجلس قربه؛ ليكون هنالك توازن، فإن شاهده أحد، سيجد سيدة متقدمة في العمر تجلس أمامًا، ولن يفكروا في إطلاق النار على السيارة، جلس عمر بجواري، همست له:

- أتمنى أن نعود لبيتنا يا رفاق.

سمعتُ تنهدات تقول آمين، بحرارة قلب وروح.

كانت الساعة تُشير للثامنة إلا ربعًا صباحًا، وكنتُ في هذا الوقت في بيتي أُدردشُ مع زوجي حديث الصباح، الذي تمتلئ به البيوت الليلية، ويختصر حياتنا في كلمات، عن الرصاص العشوائي، وتأخر الرواتب، ونقص السيولة المالية، وضعف الأداء الصحي، وأشياء كثيرة، تبدو همومًا - أكبر من دولة صغيرة كليبيا.

أعترفُ أننا نفقد معايير سلامتنا النفسية يومًا بعد يوم، نعيش كأسرى لدى الأحداث والمتغيرات السياسية، التي ألقينا في جُبهها كغيرنا من الشعوب، فصار لزامًا علينا أن نقيم لها اعتبارها بشكل يومي، في أثناء خروجنا، وحتى في أثناء تفكيرنا، وبقائنا مع أسرنا.

يصبح الحديث اليومي بين الزوجة وزوجها معجونيًا بلغة الأسى، ومُكبَّلًا بالحزن، يتخلله التعب والإرهاق اليومي مما يحصل، يصاحبه الحدث الجلل، المرتبط باسم شهيد، أو اسم أسير، أو اسم مخطوف، أو اسم مفقود، هذه هي اللغة المتداولة اليومية.

حتى الضحكات فقدت رنينها في بيوتنا، فلم يعد شيء يسر ويدعو للضحك، وإن ضحكنا، فإننا نضحك ضحكة مُبَلَّلة بدموع الحزن - على حدِّ قول زوجة هيثم نحّاس السوري.

هي مثلي، تحاول أن تلمس طريقها للشمس، وتشع بنورها، وتمتد بعنقها للسما، كي تواصل مسيرة جسدها، ورحلته الإنسانية، ورسالته الخلاقة، فنحن أمهات هذا الوجود، ورسالة الله في الكون، نحن عامرات هذه الحياة، وبدون أنثى فالحياة في خطرٍ وشيك.

نحن اللاتي يفتس بيضهن ميتاً وحيّاً، نواصل مسيرة نمو هذا العالم، الذي يعاني خلايا خبيثة، من نوعه نفسه، تعرقل ولادات النور، وتزرع الشوك في حقول الزهر والريحان.

سارت بنا السيارة بهدوء، كان طارق يحرص على عبور المفترقات بهدوء وتريث، كيلا يستشعر أحدٌ، وإذا دخل شارع ووجد فيه مطبّاً، دار وعاد أدراجه، لأن المطب يعني إصدار صوت، أو لفت الانتباه، قطعنا مسافة نصف كيلومتر، ولم يبدُ لنا شيءٌ.

كنتُ أنظر لعمر الذي ينظر يمنة ويسرة، أماما وللزجاج الخلفي، نظرت معه، تعثرت الرؤية من بصري، فأنا أشعر بالوهن الشديد، ولا أريدُ أن يتسرب مني قلقي الشديد، وخوفي لعمر، أما بهيجة فقد كانت بين حين وآخر تستدرك لطارق قائلة:

- أوه دخلنا لهذا الشارع هذا طيني؟ لا. تراجع للوراء - لا تدخل بنا هنا، قد تغرق السيارة في الوحل... يعود طارق أدراجه.

شعرنا أننا ندور في الحي، فثمة مخارج مغلقة، وثمة بوابات شاهدناها من مسافة شارعين، جعلتنا نعود للشارع الذي قبلها، عرفنا أنها منطقة بها جماعة مسلحة، ولكن دون أن نعرف العدد... سرنا حتى خرجنا لطريق رئيسي، هنالك ثمة سيارات تسير بتؤدة، تنهدت بهيجة قائلة: - هذا طريق عام.

صاح عمر:

- لا يا طارق.. ارجع.. انظر للرايات فوق السيارات يا رجل.

توقف طارق فجأة، ثم استدار بسيارته بهدوء مُحاولاً الحفاظ على رباطة جأشه، كنا في قمة الخوف والترقب، ننظر للسيارات التي على الطريق، بعضُها يحمل علماً أسود، وبعضُها يسير ولكن يقودها أفرادٌ دون عائلات، ما إن استدار طارق وتقدّمنا قليلاً لداخل الطريق، حتى غيرت سيارة اتجاهها، وتقدمت ورائنا، زاد طارق من سرعته، تُها عبر مسارب الشوارع، وطارق يقود بجنون، عُدنا للشوارع الأولى بسرعة، كنا نتنفس الصعداء كلما غابت عنا السيارة التي تلاحقنا، كم شخصاً فيها؟ نظرت خلفي ورأسي تحت مسند الكرسي، رفعته بهدوء، آه هناك أربعة أشخاص، ربما أكثر.

طارق يزيد من سرعته، سمعنا أعيرة نارية تنطلق نحونا، زاد طارق من سرعته، فيما يبدو أن السيارة التي خلفنا قدراتها محدودة بعض الشيء.

فاقهم طارق في السرعة، وبدأت السيارة تأكل معالم الطريق، في انحرافات ذكية بفضل طارق، الذي فضّل أن نعود أدراجنا للمبنى الذي كنا فيها. استطعنا بعد ربع ساعة .. أن نتجاوز السيارة التي تلاحقنا وعُدنا للشارع.

نزلَ عمر بسرعة البرق وفتح الباب، دخلت السيارة للسور الجانبي، نزلنا نركُضُ أربعتنا من السيارة، نحو باب المبنى الداخلي الذي فتحه عمر، وبسرعة البرق صعدنا السلم ونزلنا، دخلنا للبدروم الذي خرجنا منه قبل ساعات، جلسنا في صمّتٍ مهيب .. تبعه ترقُّبٌ شديد.

دقائق .. ربع ساعة... نصف ساعة... ساعة .. إلى متى هذا نحن في هذا السجن؟ تأكلني الحيرة، تنهش جسدي، تستولي على سكوني، تحرمني سلامي الداخلي.

سجن ... سجن ... سجن.

كنتُ متوترة، تتواتر الأسئلة في بالي، تتدفق إلى رأسي تباعاً، ماذا لو بحثوا عنا؟ ماذا لو اكتشفونا؟ ماذا لو قبضوا علينا؟ هل سيراعون عملنا الإنساني، ويتركوننا نذهب في سلام؟ هل سيأسروننا ويقايضون بنا أسرى لهم لدى الجيش؟ هل سيتم تسخيرنا لأعمال قسرية، أو فيها كراهة لنا؟

كانت الوجوه أمامي ترزحُ تحت طائلة القلق، تعكسُ بلغتها الصامتة كلمات مختزلة، في أعماق قلبها، تعبر عن الاستياء، عن المقت،

عن الملل، عن التذمُّر، عن أشياء قلما نجد لها وصفًا داخلنا، أشياء تفاصيلها تعيش فينا، وتكبر في معابر أرواحنا، أشياء تتكلم بشراسة عن رحلات عمرية قام بها شعبنا، تكدست أحداثها في كينونة كل واحد فينا، لم يتسنَّ لنا الوقت لنقولها للعالم، فنحن شعب للآن ما زال يعبر مساحات تشتعل فيها النار، ويمتاز خطوطاً وُضعت له لتتوقف حياته عندها، لكنه لا يأبه لها، لا ينصاع، لا يستجيب إلا لصوت إرادته الذي يقول له: الشعوب لا تموت، فلا تمت.

استحضرتُ في ذاكرتي المتعبة رحلات كثيرة، لأجدادي منذ أيام الطليان، حين كانوا يقاومون الفاشست، ويتم حبسهم، وفصلهم عن بعض في معتقلات تميز عنصرية، معتقلات تحدد أسعار كل جسد ليبي، وفقاً لتصنيف مُعدَّ مسبقاً، معتقلات تصلح للعمل، معتقلات للاغتصاب والاعتداء الجنسي، معتقلات منهجها الموت فوق المشانق... ومعتقلات للنفي، قدرها أن يستعبدوا الطليان للخدمة الأبدية في المنفى الإيطالي.

تحركتُ من مكاني، خلعتُ حذائي، نظرتُ لعمر وتهيجة وطارق بصمتٍ مطرق وطويل.

تساقطت لغات العالم تبعاً في تعابيرها، مُعلَّلة عجزها عن قراءة مفاهيم، ارتسمت فوق ملامح متعبة، شدَّها الحنين لحياة كانت تحياها في سلام، وأكلها الصمت في تعبيرات خانت لغة المكان، ودجَّج الخوف أسلحته في أرجاء دهاليزها السرية، فما ترك للفرح وسيلة للعبور خارج

شفاهنا، التي لم تنبس ببنت شفة ولا بولد لسان يُفسّر أبجدية الحروف،
التي تقبع خلف حناجرنا في ترقب القادم وتوجسه.

فهل القادم أجمل؟ أم أنّ القادم أسوأ بكثير مما نعيش؟

استغرقتُ في أسئلتي، حتى غمرني ماء التأمل العميق، أغرقني في
صيورة السكون المنقطع عن العالم الخارجي، ذلك الذي يعزلك بجدار
عازل للصوت عمن هم قربك.

سَفَرُ الرِّيحِ

في المساء ...

الذي تكتنف فيه اسمك سحائب السماء، وتستحيل غيماً مُعبأً
بحنيني إليك، تسري من مسافة الاحتمالات، وتغادر على أكتاف الهواء،
إلى بذور تكمن في رحم الطين، تنادي الله في عُلاه: اللهم ابعثنى نبتة
يغزو اخضرارها هذا الوجود، الغارق في الجفاف واليباس، النائم في
سُباتِ الشقاق، وتشققات الطين.

كيف لاسمك البسيط أن يفعل كل ذلك في غيمة، غادرت للتو
نظري المُعلّق في السماء، وذهبت لتمطره في أرض يجتاحها الجفاء؟ كيف
لاسمك الجميل الذي حمّله التاريخ منذ عصور العاج، وحتى عصر
الدانتيل، أن يغزل قصائده فوق منوال الرتابة؟

يكتبُنِي نَبِيَّةُ الشعر، أَسْرَبُ مع مواويل الليل وحكايات النهار؛
لَأَغْرُق في سطوة السرد والشغف، أكتبُكَ كتاباً من بين عشرات الأوراق
التي تهتفُ بك، وتناديني لسرد رحلة وجعي ووجعك؟

كيف لاسمك أن يُفككني، ويُعيد ترتيب بعضي في كلي، فأتبعر
مني، وتعود وتجمعني في؟ كيف لثلاثة أحرف أن تعمّني بكل هذه
السكينة، وتربك مسارات القلق التي حفرت ندوبها داخلي؟ كيف لعين
كعينيك، وميم كميم تتوسط قلب اسمك، وراء كراء روحك، أن تكونَ
قادرة على إعادتي من السنوات التي ضعت فيها، وعمرت داخل سجنني
الانفرادي، بمجتمع تشغله الأنثى كعبء وتحركه كعار، وتُكبّل مسيرته
كإرث؟ كيف أعدتني لي، وأنا ضائعة مني، في غياهب الوحدة،
والقصور عن الوصول لكيونتي التي تليق بي؟ كيف عبرت الآلاف من
ميم المسافة، وفاء نفيها؛ لتُلاقني أنا التي سرّ بها الضيق، حين فاض بها
الكيل إلى فضاء الافتراضي، فجعلها مُعلقةً في انتظار عبورك.

أيها القادم من عصور الغبار، حين دارت رياح الخير دورتها،
وسافرت فوق كفّ الهواء إلى ليبيا، حاملة حبوب لقاح الفرح،
والخلاص لبلادنا، رياح خفيفة عبرت كنسيم هادئ فوق سماء بلادنا،
غيرت ما غيرت، ورفعتنا فوق موجة شهية الشبق، رياح خلصتنا من
سجوننا السرية، ودهاليز الخوف التي سكنت داخلنا طوال عقود، رياح
أعادتك من زمن الغياب، إلى لغة الحضور، من ظلام التاريخ، إلى ضوء
الحضور، من أوراق مُعبّأة بعناقيد الحنين، والشوق، والحديث، إلى
أوراق أفصحت عن مكانها، فخرجت من أدراج صمتها وكآبتها.

مثلك كثيرون كانوا جالسين في محطات الانتظار، يرومون قطارًا،
يقطع سرة المسافة بين بلد المنفى، وبلد الميلاد.. بين بلد الغياب، وبلد
اللقاء.. بين أحاجٍ مُلغزة، وحقائق دامغة.

ألهذه الدرجة كنتُ أنا غائبة، ومغيبة عني؟ ألهذه الدرجة طواني
حزني عن نفسي، فعشتُ وأنا أنتظر تحريرين كبيرين في حياتي.. تحريري
من عقد مجتمعا الاجتماعية.. بفضلك! وتحريرك من الغياب، بفضل
رياح التغيير!

ألهذه الدرجة فرحت ليبيبا، بعودة أبجدية هذه الكلمة (غياب)
..إلى زمن الحضور الآني؟

عندما فقدتُ أمي وأبي، فقدتُ معهما طفولتي وحكايتي التي لم
تتكمّل، كنتُ أعرف أنني سأعيشُ بصعوبة أكثر، لذا بقيتُ في شرايق
الفراغ، أعدُّ الوقت الممل الذي ينقضي بدونك، ينقضي كأنما يقتصُّ من
عمري سنوات ضوء، كانت ستشرقُ بك، لو أنك بقيتَ في زمننا.

كلانا بمشيئة الرياح دخل في زوبعة الريح، التي غيرت ثوبها
الحسن، ودارت بنا في تنورها، اعتصرتنا في أزمنة، انقلبت فيها مفاهيمُ
الأشياء، حتى أصبحنا غرباء عنا، وعن حياتنا وديننا، ريح جذبتنا هُوَّة
عميقة، وفجوة هوائية كبيرة.

سقطنا داخلها، للفراغ السحيق، لفراغ عقول، وفراغ قلوب،
وفراغ دولة، لفراغ سياسي، وفراغ اقتصادي، وفراغ اجتماعي، نزع عنا
غطاءنا، وجعلنا أمامنا عُراة كما نحن، كما وُلدنا بجهلنا وتأخرنا وتخلفنا
...كما خرجنا من كرتونة قديمة جدًا بعد نوم دام أربعين سنة ويزيد.

فكيف سنتغير؟ وكيف سنقطع المسافة من الجهل للمعرفة؟ من
الافتراق للقاء؟ من التخلف إلى الحضارة؟ من اللا شيء إلى كل شيء؟
من اللا دولة إلى الكيان والدولة؟

المسافة هنا في ليبيا طويلة، لتحقيق كل ذلك، تصيبها الندوب
الاجتماعية، والشروخ، والحفر، تأكلها أكزيما المركزية والجهوية
والقبلية، تسحقها لغة قال وقلنا، تمزقها مفردات أنتم ونحن!

المسافة هنا يا حبيبي تحتاجني وتحتاجك، تحتاج للأرواح التي
يسكنها اليقين، مثلك ومثلي كثيرون وكثيرات، يعرفون كيف يقطعون
الطريق، وعيونهم ترصد الوطن بين أعينهم.

أستردُّك وأستردُّ سيرتك الذاتية، أعيذك لك، لحاضر ليبيا،
وحاضرنا العربي، ربما أستطيع أن أراقصك، كما فعلنا ذات مرة، أتمناها
رقصة سلو يحتاجها الفرح، ويرسم في خطواتها تراجيديا فوضانا
الخلافة، ودراما خطط المكر المرتبة، ولا ضير إن فعلنا ذلك، فنحن في
جميع الأحوال نرسم ملامحنا، ومن يهرب من ملامحه، لن يلتمس موطن
قدميه فوق الطريق.

خيّم الظلام فوق رؤوسنا، وكانت يدك التي تمسك بيدي، هي
السبيل الوحيد لعبور بوابات حزني الطويل، ولتجاوز مساحات اليأس
التي تحاول أن تشدنا إليها، كنتُ أشعر بالأمان قربك وأتساءل: كيف
عبرت كل هذا الليل وحدك؟ كيف تجاوزت جنود العتمة، ومجندي
الوحدة القاتلة؟ كيف استطعت أن تنجو من سجنك الانفرادي، في
ذلك الليل الصحراوي الغارق في لهجات السكون. ذلك الذي يشدُّك
للأسفل، فيأكلك ويلتهمك، بذاكرة تمسح كل شفراتك الرقمية ابتداء
من تاريخ الميلاد، وحتى عدد سنوات العمر؟

كنتُ أتساءل: ماذا فعلتَ مع السلاطين الذين حكموا في زمانك؟
سلطان الفقر، وسلطان البُعد، وسلطان الجوع، وسلطان النوم، ما زلتُ
أذكرُك وأنت تقول لي: عشنا أصعب مراحل حياتنا، فمرة يلقينا الفراغ
لمتاهات الكتبان الرملية، ومرة يلقينا للسجون، ومرة يلقينا للجوع
الشديد، ومرة يلقينا لنوم متواصل نتيجة الغياب عن الوعي، أمّا الفقر
فقد أتينا منه جميعنا، نحن العرب سكان الدول المنهوبة، والثروات
المسلوبة.

مَضت أيامٌ وأيام ونحن نقف على الماء، ساءت صحة بهيجة
وأصابنا اكتئاب كبير، انتهت بطاريات الشحن التي لدينا، بقي هاتفُ
بهيجة أملنا الأخير، يجعلها بين حينٍ وآخر تشعل الهاتف، وتحاول
الاتصال، وليس ثمة مَنْ يهينا أمل في أن يجدنا أحد، فالمنطقة تجوبها
الجماعات يوميًا من شوارع قرية، لكنها الآن لم تنتبه للمبنى الذي تقع
بمحاذاة المدرسة الخاصة.

أكلَ التعبُ ملامحنا، البوتاجاز بدأ ينفد تحت إبريق البن، الذي
أصبحنا نتقاسمُه صباحًا، نسكب منه ملعقة صغيرة ماؤها أكثر وفرة من
مذاقها، ونشرب ربع فنجان لكل شخص.

كان عمر يذبل أمامي، ووجهه يغيب في حية كَثَّة، وكان طارق
المسكين يقتنص الفرص في أثناء نوم عمر، فيصعد لفوق ويراقب
المنطقة، حتى هداه عقله ذات فجرٍ مُبكرٍ، لأن يوقظني قائلاً لي:

- سمر... سمر.

فتحتُ عيني ببطء ونظرتُ إليه متسائلة:

- نعم، طارق.. صباح الخير.. ماذا هنالك يا طارق؟

تمتم طارق مشيرًا لي في هدوء:

- انهضي، أحتاجُ إليك، لأنك خفيفة الحركة... بسرعة أرجوك!

نهضتُ واقفةً، واتجهتُ لمنشفة قريبة مسحْتُ بها وجهي مع قطرات ماء، ثم لبستُ حذائي وتبعته بعدما بدأ في الصعود للسلام، همس لي طارق بصوتٍ خافتٍ:

- سأقفز للفيلا المجاورة للمبنى، وأحاول أن أحصل على أي شيء يصلح للأكل والحياة، هل تأتين معي؟

نظرتُ إليه، إنه يفعل ذلك من أجل عمر، وبهيجة، فهما أكثر من يحتاجان لذلك، لذا لم أتردد وأنا أقول له:

- هل وجدتَ طريقة لدخول الفيلا المجاورة؟

- نعم، هنالك سُلَّم مُستند إلى السور، ويبدو أنهم يتبادلون منه التحية.

بعد قليل، أشار طارق للسُّلم، توجهنا نحوه مباشرة، وصعدناه بخفة، ثم نزلنا من الجانب الآخر، كانت فيلا صغيرة إلى حدٍّ ما، فيها باب جانبي للمطبخ، وباب يؤدي إلى صالون واسع، كنا ننظر من النوافذ - والساعة لا تتجاوز السادسة صباحًا.

حاول طارق فتح الباب المؤدي للمطبخ، عالج القفل بالآلة التي معه، إلى أن فُتح ودلفنا للداخل، ونحن نُسرّعُ العمل، أي شيء يصلح للحياة في هذا الوقت العصيب، يعتبر أملاً، وباباً يُولج الضوء إلى العتمة التي نزرع تحتها.

وجدنا زجاجات مربى، وجدنا بعض البن والشاي، وكيكاً مُغلّفاً، وعبوة عصير، رأينا بعض المواد التالفة، فهناك علب زبادي منفجرة ومتعفنة، وهناك خبز غرته الطحالب الخضراء، ففاحت منه رائحةُ العفونة، وهناك تفاحٌ بقيت آثارُ قشوره علامة دالة على أن الديدان اجتاحت دائرته.

وجدنا صندوقاً مكتوباً عليه: إسعافات أولية أخذناه، وجدنا مصباحاً جربته بنفسي وكان فاعلاً، وجدنا علبة شموع، أخذها طارق بخفة، وبعد حين رأيته يلوح لي بعلبة فول صويا ثم علبة حمص، وسردين.

- هل نصعد؟

سألته، نظري ونظر لساعته قائلاً:

- إنها قرابة الساعة صباحاً، ما رأيك؟
- لا يا طارق، نحن نريد المطبخ فقط، ما يصلح للحياة.
- أعرف سمر، سنبحث عن بطاريات شحن هاتف، أو هواتف.. ربما سنجد.. هيا لا تخافي.

صعدنا بسرعة بحثًا عن غرفة نوم، وجدنا غرفة زوجية، فتشنا الأدراج فلم نجد سوى بعض الأشياء الشخصية فقط، لفت نظري مذياع صغير، إنه يحتاج لكهرباء، ربما هناك بطاريات .. بحثنا حتى وجدنا بطاريات جديدة، وضعت في درج قرب السرير مع مدونة شخصية، وعلبة علكة يبدو أن صاحبها يعشق تناولها في غرفة نومه، قطفُ ورقة من المدونة وكتبت عليها: نعتذر منكم لاستعمالنا بيتكم، وأخذ بعض الأغراض منه ؛ لأننا مُحاصرون في مكان قريب ... ودسست الورقة داخل المدونة ووضعتها تحت الفراش لئلا تصلها يدٌ أخرى.

نزلنا بهدوء، حملنا ما استطعنا، ثم قلت لطارق:

- لم يقابلنا بوتاجاز قط، ولا أنبوب غاز.

صمتَ طارق، ثم قال: صحيح هذا شيء غريب، فالثلاجة موجودة ومُطفأة ربما هناك مخزن أو شيء يشبهه حول القبلا.

نظرتُ لطارق في حذر:

- طارق، أرجوك، هيّا نَعُدْ، أنا بدأتُ أخاف، والنهار بدأ في الشروق، يجب أن نعود قبل أن يقلق عمر و بهيجة.

سكت طارق ثم قال لي:

- حسنًا يا سمر .. اصعدي للسلّم وسأمدُّ لك الحاجيات.

اقتربتُ من السلم، وبدأتُ في الصعود، حين استأذني طارق،
قائلًا لي:

- دقيقة فقط.

كان طارق لَمَّاحًا، وسريعًا، إذ سرعان ما طافَ المكان، وشاهدَ
كيسًا مكوَّنًا من الفحم - قرب موقد فحم كبير، نظرت إليه وهو يجلبها
بسرعة، فبدأتُ أصعدُ السلم؛ لأنزل إلى السلم الآخر.

وقفتُ على السلم، جهة المبنى الذي عَلِقْنَا فيه، وبدأتُ في التقاط
الأشياء التي يمدُّها لي طارق، أضعُها على الأرض بهدوء، وأعود
للصعود، حتى رأيته يصعدُ بما بقيَ لديه من أشياء، نزلنا بهدوءٍ ودلفنا
للباب، ثم كالعادة صعودًا للسلم، ونزولًا من سلم الشُّرفة للبدروم.

رأينا عمر و بهيجة يجلسان في قلق واضطراب يخيم على المكان
الهائئ المكون، في مبنى السيد حسن الفيل .. بعد قليل كنا نتدفأ
بالأكل، أكلنا كيكا ومرري، شربنا ماء، طلبت من طارق أن نستكفي
اليوم بعلبة الفول غذاء لنا؛ ليتسنى لنا أن نسترد بعض قوتنا.

من شدة خوفنا وفرعنا، نسينا أننا شَرَبْنَا من الهواء جيدًا - كان نقيًا
وصافيًا، شعرتُ معه بالامتلاء .. كنتُ أخبر عمر بذلك حين قرصني
من أذني، وهو يقول لي:

- خوفتني عليك، عندما تغادرين قولي لي أين أنت ذاهبة.

أعلمُ أني لو أخبرته سيظلُّ يقلق.

لو عدتُ لندكرُ هذه التجربة، فإنني سأتمنى أن تكون ذاكرتي انتقائية، تنتقي الجميل من هذه المواقف فقط، وتترك ماعدا ذلك للمكان؛ لتتراكم عليه أممٌ غائبة من الغبار، فأنساه وأطويه؛ دون أن تربطني به صلة تاريخية.

إنَّ الحديث عن الذكريات تصحبه دائماً سَطوتان: الزمان، والسرد. ربما للمكان سطوة تأتي بطريقة ما، لأنه يكتسب سَطوته من وجود الأشخاص.



تمضي الساعاتُ ثِقيلةً كعبءٍ على كاهلنا، وكإرثٍ نتوارثه من الوقت، حين يُثقلُه ظِلُّ الانتظار، الانتظار الذي يعني أن تُعلق آمالك، في مجيء لحظة فاصلة تنهي صيرورة الزمن، بصيحة فرج، أو زغرودة تتطاير فرحاً، أو ربما دمعة تلزمك مواعيدها كرهاً، فتقبل بها على مضضٍ، وأنت تقنع بما قدَّره اللهُ لك.

دائماً يرتبط الانتظار بالزمن - وإن كان ثمة مكان ننتظر فيه، لكن عيوننا مُعلَّقة على سقف التوقيت، ودوران الساعة، وتتمة الوقت الذي نقضيه ونحن في أمل، أو قلق، حتى يأتي البشير أو النذير؛ ليقوم بعملية بتر الوقت، من قامة الانتظار المديدة.

نأمَّ عمر بقلق، استغرقه النوم، ودارت به الأزمنة، وهو يتذكر رواية المنسي، وإلامَّ آلُ حاله الآن، كان يتساءل عن مدى تلاقي الأزمنة في حقبةٍ ما، أو تلاقي دائرة الزمن مع دائرة أخرى لها

الإحداثيات والمعالن نفسها، تتمازجان، وتكونان شبقاً معاً، وتدخلان في دائرة ثلاثة لتكون الذروة ... ربما هكذا قصته، مع قصة إناث.

وإذ هو يغادر برقيم ذاكرته، وألواح تفكيره نحو أبعادٍ أخرى، يلوح له وجه جمهور بمعاله الغربية، كرجل غير مفهوم الملامح هذه المرة، تتهاى شخصيته لعمر في وجوه الآخرين، في أفكارهم، وعقولهم، فيقرأ كل شيء على وجهه، ويتوقع منه أي شيء، دون أن يزعجه بردود أفعاله العادية، والمفاجئة أحياناً.

ترأى له جمهور، وهو يسأله في عمق، كأنه وجهٌ قادم من حكايات يوشك أن يسمع هسيس حديثها القديم ...

- أراك مهموماً يا سيدي.

نَظَرَ إليه بيللو بعمقٍ بعيد، كأنها يُحييه متسائلاً عن هذه الغيبة الطويلة ثم قال له ببطء شديد:

- أفكر: لماذا هذه البلاد هائجة كبحر يأبى الهدوء؟ لماذا تتردى أحوالنا؟ ويسير البلد نحو الأسوأ؟

- لا يوجد بحر هادئ يا سيدي، ولكن البلاد إنَّ قُدر لها أن تهيج، فإن الريح تريد ذلك.

- الريح تدورُ بزوايعها في ليبيا.. فهل ستسافر يا جمهور؟

- الريح تسافر في كل اتجاه يا سيدي، إن كانت راضية فهي رياح، وإن عاكستنا فهي ريح.

- ودار حول نفسه في شكلٍ مسرحي، ثم قال له متسائلاً:
- ألا تعتقد أن الرياح كانت من حظنا منذ البداية يا بيللو؟
 - أشعرُ بذلك، ولكن ليس هذا السؤال الكبير يا جمهور!
 - وما ذاك يا سيدي؟
 - السؤال الكبير: لماذا يجاربون اتجاه الرياح؟ لماذا يصنعون لنا مسارًا لم نختره بأنفسنا؟
- فكرَ جمهور قليلًا، ثم أجاب بعمقٍ غامضٍ:
- عندما نكون فوق البساط يا سيدي، ويتهيأ لنا كل شيء، يُصاب أصحابُ الفوضى الخلّاقة
- بالقلق على أنفسهم... فيصنعون لنا صفيحَ الريح.
- هي كحصان ما زالوا يركبونه، ويُجيدون أن يجعلوا له سائسًا من عندنا.
 - نعم يا بيللو.. مشكلتنا دائمًا في السائس.
- تنهّد بيللو بفرقة عميقة قائلاً في صوت خافت:
- بماذا تُعلّل ذلك يا جمهور؟
- ردّ جمهور ساخرًا باشمئزاز:
- لا تعليل يا سيدي، سائسنا فاقد للخبرة، ربما كان يعمل في فرقة!

- وأي مهنة تلك التي تجعله يسلمنا لظهر الريح؟
- لعله كان طبالاً فيما سبق يا سيدي.
- وما أكثر الطبالين يا جمهور!
- صَحَّحَ جمهور وهو يقول:
- التطليل أمرٌ تافهٌ، حتى العوام يُجيدونه.
- فكَّرَ بيللو، لهذا السبب فعلاً، كل من هبَّ ودبَّ صار سياسياً في بلادنا؟ وصار يهرطق من بأفكاره معتقداً أنه من يقود دولة؟
- ثم قال له:
- هل تقصد أنهم حمقى؟
- ليتهم كذلك يا سيدي!
- إذا؟
- السائسون جلبوا العازفين من كل مكان.
- العملاء الخونة، سرقوا بصيص النور من النوافذ، والأبواب!
- هم في الاتجاه الخطأ من الوطن!
- هل تتصور أننا شاركنا في خراب عشنا يا جمهور؟
- أشعل جمهور سيجارة، نفث دخانها بعمق في الفراغ المحدث أمامه،
- ثم رد ببطء شديد:

- لا أتصور يا سيدي، بل أنا متيقنٌ من ذلك.
- كيف فعلنا؟
- في العادة لا يتحرك شخص بأذنيه قبل عقله، وعينه.
- هذا عيب يا جمهور؟!
- نعم عيب يا سيدي، لكنَّ الشعوب الجادة، لا تقول بل تعمل.

وأخرج بيللو سيجاره كالعادة، وبدا كأنه في ذلك المقهى بالثمانينات، الذي يعجُّ بالرواد والمتابعين.. بمعطف بني، وشعر مسترسل، ونظرة عميقة.

- أظن أننا ضيعنا وقتنا يا جمهور في الترهات.
- وهنا انفجر جمهور في الضحك، ثم نظر إلى بيللو بنظرات غريبة، قائلاً:

- حصاني ينتظرني يا سيدي، يجب أن أغادر الآن.
- ومتى أصبح لك حصان يا جمهور؟ ثم وإلى أين يا صديقي؟
- تجاهل جمهور نصف السؤال وقال:
- إلى الشعب، إلى الجماهير، في الطرف المقابل.
- تفاجأ بيللو بهذا التغيُّر في منحى تفكير جمهور، ثم سأله:
- هل حصل معك شيء تريد أن تقوله لي؟

- وهل هناك شيء أكثر فظاعة مما نحن فيه؟ لم تعد هذه البلاد تسمعُ، ساستُها لا يقرؤون كلام مثقفِيها، بلادنا يا سيدي أُصيبت بالطرش، وعمى الألوان، ساعدوا إلى الخطب، والجهاهير، لقد بدأت أقتنع بخطابهم.

- أأنت غاضب يا جمهور؟

- وهل هذا يهم؟ نحن شعب غريب الأطوار يا سيدي.

تنهّد بيللو بحسرة، ثم ردّد بحزن:

- ما بنا يا جمهور؟ ماذا دهانا؟

- نحن نخوض تجربة مرضية عسيرة يا سيدي!

- أظن أنك تدمّنا يا جمهور؟!

ابتسم جمهور، ثم بدأ يغني:

أريد شعباً

لا يتجرد من ماضيه

بل من خطيئاته ..

ولا يخلع عنه ثوب أصله ومناقبه

بل يخلع عيوبه، ويمقت أسوأ عاداته.

ثم قال بتدُمّر:

- متى تتغير نظرة بعضنا لبعض؟

- وما عيبُ نظرة بعضنا لبعضٍ يا جمهور!

- انظر يمينك... انظر شمالك .. انظر تحتك.

ثم سار قليلاً وهو يقود حصانه، نحو زوبعة ريح تتهياً للتكوين،
والارتحال لمكان آخر. وقال وهو يدير ظهره، ويشير إلى الغبار المتطاير:

- هناك ستجدنا بأوساخنا وأمراضنا. عنصريين فيما بيننا..

دونيين في نظرنا لبعض. لا نجيد سوى

وغابَ صوته مع الريح، فانهار بيللو جالساً، وهو يقول، ويكمل

عنه:

- نبذ بعضنا، ومعايرة بعضنا.

ثم سقطَ على الأرض يبكي وهو يردد ويقول:

- انصرف يا جمهور، أنا أعرفُ هذه النبتة، ومنابتها في عقولنا، لا

في طين أرضنا. الأزمة في عقولنا يا جمهور.

غابَ جمهور مع الريح، وغابت الرؤية تماماً.

استيقظَ عمر على صوت سمر، وهي تقول له برفق:

- عمر .. عمر .. عزيزي .. أنت بخير؟

نظرَ إليها بغرابة، فتح عينيه أكثر، أين هو؟ في أي زمن؟ لماذا غادر

جمهور؟ من أين له بحصان؟ علامَ يدلُّ ذلك؟ لم يفعلها جمهور من قبل!

آه هذه إناث، وذلك حلم، أو ما يترأى له أحياناً، ثم كم مضى عليه من الوقت؟

ابتسمت له، فأشرق وجهه وهو يقول لها:

- أنا بخير، سأنهض الآن.

تناولنا مع بداية مساء علبة الحمص، قسّمها طارق وهو يتذكر تقاليدنا بعاشوراء، ويعلق ضاحكاً، كلما وهبنا ملاعق حمص في صحنونا، كان الحال مضحكاً ومُبكيّاً في آن، ففي بعض المرات — وفي أثناء متلازمة الحزن برحم الواقع المقيت - يأتي الضحك غريباً بعض الشيء، بمذاق مختلف، ونكهة هي أقرب للاحتياج، وأبعد من كونها مجرد ضحك، ربما هي كوميديا نابعة من معاقل التراجيديا... ربما فانتازيا ترتقي كثيراً عن مستويات فهمها، لكنها تظل مشروحة لمن يراها ويُعايشها في وقتها.

سمعنا فجأةً ضجيجاً في الشارع، وصوت نفير سيارة واضحاً، نظر إلينا طارق متوجساً، ثم قال:

- لا أحد يتحرك من مكانه.

صعد طارق السلم وبدأ ينظر من خلال الثقوب التي أحدثها فيما مضى، لعله يرى شيئاً جلياً.

كان مسار الرؤية واضحًا، بحيث إنه شاهدَ السيارة الكبيرة التي توقفت أمام المبنى، وسائقها ومن معه ينظرون لشيء ما على الطريق، توقع طارق أن يكونوا ربما شاهدوا شيئًا سقطَ منهم، لكنه عدَلَ عن رأيه، حين رأى أحد الرجال الجالسين وراء السائق، ينزل ثم ينحني على الأرض، قُرب مدخل المبنى، ويرفع في يده كُتلاً من التراب الطيني الأحمر. طار صواب طارق، فهذه الكتل الطينية عالقة بسيارتهم، ولم يخطر بباله إزالة بقاياها من أمام المبنى، وهي الآن يابسة - لكنها جديدة على شارع من الأسفلت، وترسم مسار عجالات السيارة، ولم يكد يكمل دوران الفكرة في رأسه، حتى شاهدَهم يعدلون اتجاه السيارة، لتبقى متوقفة يمين الشارع، ويشرعون في النزول منها واحدًا تلو الآخر، نزل طارق بسرعة وهو يقول باضطراب:

- لقد اكتشفوا مكاننا!

وقفنا جميعًا، والدهشة تحتلُّ الوجوه، والقلق يتزايد ويبلغ مداه فوق جوارحنا التي ترتعش، لا أعلم وقتها كم استغرقنا ونحن ننظر لطارق ونساء: كيف؟ ومن قال منا كلمة كيف اكتشفونا، لكنني سمعت طارق يقول:

- من الطين العالق في عجالات السيارة، بعض منه في مدخل المبنى.

بالنسبة لي هذا يعني التوقُّف عن التفكير تمامًا، ونهاية المطاف الذي لا أريدُه أن يصل، كنتُ أتمنى أن أنتظرَ، أو أنتهي إلى موت بطريقة

مجففة، فيجفُ جسمي شيئاً فشيئاً، وأبدأ في الذوبان، ثم أستحيل هيكلاً عظيماً، سيجدونه بعد التحرير، وهو جالس على كرسي، وفي يده كتاب، ويده الأخرى عالقة بكفِّ عمر.

كنتُ سأختارُ موتي بطريقة لا ثقة، ليس جثة طافية فوق الماء، ولا جثة هامدة تحت القصف العشوائي، ولا جثة تتدلى من مقصلة بعد الاغتصاب، ولا جثة مرمية قرب مكب نفايات، كنتُ أريدُ موتاً بليغاً، موتاً مفعماً، يتكلم ببلاغة طريقته عن عُرينا الأخلاقي، ويحكي عن مشاهد مسرحية هزلية، عن حالتنا السياسية، ويُترجمُ بلا لغات ماذا تفعل الذُّكورية في مجتمعات عربية، تتشدق بالقيم والسُّمو والإنسانية، ثم تدفن أنين ذُكورها فوق آهات النساء.

لكنَّ الحقيقة الفلسفية، والتاريخية تقول: وحده الموت يختارُ لنا الطريقة المثلى للولوج إلى عالمه.

نظرتُ إليهم جميعاً، إلى بهيجة المسكينة، إلى عمر الذي قاوم نفسه؛ لئلا ينظر لشكلي، وحالة الهلع التي تعلو وجهي، إلى طارق الذي بدأ يبحث عن أشياء، قد تصلح للدفاع عن النفس، ثم صعد الاثنان عمر وطارق ليراقبا المكان من جديد. انتظرنا عند بداية درجات السُّلم، أنا وبهيجة التي بدت واهنة جداً، وكان عمر هو مَنْ يُراقب، ثم قال لطارق:

- أحدهم يتصل بالهاتف، إنهم ملثمون يا طارق.

سكتَ طارق وكأنه يعرف، ولا يريد أن يقول، ثم قال:

- لا بد أن يشكوا في وجود السيارة، وسيجدونها إذا فتحو الباب، أو قفزَ أحدهم من السور.

الساعةُ الآن توشك على الخامسة مساءً، والرؤية بدأت تُعتم قليلاً... بقينا في حالة استنفار جسدي، واقفين بانتظار احتلال المبنى من هذه المجموعات، انتظرنا لبعض الزمن، ظلَّ طارق ينظر من الفتحات الموجودة أعلى المبنى، حتى التفتَ إلينا قائلاً وهو يتنهد في زفرة عميقة:

- لقد غادروا!

التفتَ عمر إليه، وذهب للفتحة التي شاهد منها طارق قائلاً:

- هم غادروا فعلاً.

نزلنا في قلقٍ وتوترٍ. كلُّ منا، ذهنه عالقٌ في صنارة سؤالٍ، غمرت في عقله... تسأله: هل سيعودون؟

جلسنا في دائرة تشعُّذبذبات سالبة، ومتواترة، عيوننا تحمقُ إلينا، ترتدُّ نظراتنا إلينا، كان طارق يؤكد أنهم سيعودون، وأنَّ الظلام الذي عمَّ المنطقة كان سبباً من عند الله، وكنتُ موافقة على رأيه، لولا أنَّ عمر قال:

- نستطيع أن نغيِّر مكاننا بسرعة!

سألت بهيجة في حيرة:

- كيف؟ أين؟

عمر:

- نقفز للفيلا المجاورة التي دخلتموها هذا الصباح قبل مجيئهم إلى هنا.

قال طارق مترثاً:

- الفيلا من الداخل عادية، ولا مخابئ فيها، سرعان ما سيجدوننا داخلها.

سمر:

- هل تظن أن مكاننا أكثر أماناً هنا؟

أوماً طارق بالإيجاب:

- نحن تحت الأرض، وعلى الأقل أفضل من الفيلا المجاورة، إذا قدر لهم اكتشافنا، فعلينا أن نظن أن أمر اكتشافنا كان سيكون منذ أن لحقت بنا السيارة ذلك اليوم.

قالت بهيجة:

- اللهم نسألك سلامتنا، ونسألك أن تطمس عنا العيون والأنظار، إلا عيوناً تخشاك، تخافك فينا.. اللهم آمين.

كانت دموع بهيجة غالية عندي، وجدتُ يدي تحضن يدها، في محاولة لبث الطمأنينة في قلبها.

في الليل تعالت صيحات الظلام، وزاد صراخه في وجه النور الذي نشعله، كان النور يقاوم العتمة بهدوء تام، ييصق في وجه السواد، ويُبدد ملامحه، يدحر جيوش الليل المدججة بأباطرة الكلام. في الأوقات المسالمة، يحق لنا أن نتسامح مع ليلنا؛ لأنه يَهَبُّنا الذكرى، والحديث الجميل، يتغنى بجمال نجومه وقمره، وروعة مُحْيَاة الذي يتَّسَعُ فوق جبين السماء، وفي بعض الأوقات لا نملك أن نَصِفَ سوء حالنا، وطول المحنة التي نمرُّ بها، إلا بالليل الطويل، من باب استعارة ظلامه الشديد.

وهنا كنتُ أتساءل: هل الثنائيات باعتبارها متضادة، تعتبر انعكاساً لتصورات حياتنا في لغة اللاوعي؟ وهل الرواية باعتبارها مخيلاً حقيقياً للغة اللاوعي، يمكنها أيضاً أن تنشق عن كونها عملاً فردياً، فتكون ثنائية، وتهب لأشخاصها جوانب الثنائية في تفاعلاتهم، بحيث يبدوون كالثنائيات تماماً.

نمنا والأسئلة تملأ رؤوسنا وتجتاح ليلنا، نمنا، ونامت بيننا بنغازي، كنا نسمع أصوات حياتها، وتنفسها من بعيد، بنغازي الجميلة الرافلة في مسيرات النور، تتعافى، وتتهيا للانتصار الكبير، أستشعرُ أن بنغازي تتشاب الآن، وسوف تنهض مرة واحدة. اقترب النور من هالة الظلام كثيراً، ما إن رأى ابتسامات الفجر مُقبلةً.

تسلَّلنا بهدوء لدورة المياه بالطابق العلوي واغتسلنا، وسرعان ما عُدنا، ثم تناولنا قهوة، وبعض المربى، والكيك الذي انتهى، كنتُ أنظر لعمر وينظر لي بهدوئه الجميل الذي أحبه، كان طارق يحاول أن يكون مُسيطرًا على هدوئه عندما قال لنا:

- أريدُ أن أصعدَ للسطح، لأرى هل يمكننا أن نقفز للفيلا التي في الخلف أم لا؟

نظرنا إليه دون اعتراض، طارق يمكنه أن يذهب، ويشاهد بنفسه الارتفاعات التي حولنا، والمنخفضات، يمكنه حتى أن يهرب وينجو بنفسه ويتركنا، ولكنه بقيَ معنا، وواصل نضاله الإنساني، ورسالته بكل شهامةٍ وأخلاق.

ذهبَ طارق، وعاد بعد ساعة، وهو يتنهد ويقول:

- الفيلا التي خلفنا أسوارها قصيرة، قفزت إليها، كانت مُحْتَلَة، مُبعثرة وملئَة بالفوضى، مسروقة حتى من سجادها وكراسيها، لا شيء على الأرض، سوى أشياء مبعثرة، تصلح للرمي في القمامة. سكتنا ولزمتنا الصمت.

إلى متى هذا المُصاب الجلل يا رب؟ إلى متى؟ تعبْتُ وأشعرُ بالخوف يتزايد، وبالمجاعة تستبدُّ بنا، وبالتوتر يأكلنا في شراهة، وباليأس يحيط بنا، وبالقهر يلوح من ردهات البيت ويذهب، وبالقتل ينظر إلينا في نزقٍ ويضحك.

- لا أعرف تاريخ اليوم يا عمر؟

قلتُ له ذلك، وأنا أنتظر أن يشاركني الحديث.

- ساعتني تقول إن التاريخ هو أول يناير ٢٠١٧ وبالتحديد نحن في ٥ يناير.

- هل تقصد أن ديسمبر انقضى؟
- نعم، ديسمبر انتهى، حين دخلنا لهذه الجهة كنا في يوم ١٧ تقريباً، انظري إلّا م وصلنا؟
- نعم، يا الله!

من المذيع الذي جلبناه، كنا نسمع بين حين وآخر أخبار بنغازي، وتزايد فرحها يوماً بعد يوم، نتيجة تحرير أماكن ومدن أخرى قبيل ديسمبر، سرت، الهلال النفطي بمُدنه النفطية، رأس لانوف، والبريقة، بن جواد، النوفلية.

- هنالك أمل يا عمر، أمل كبير أن ينجو الوطن.
 - نعم حبسيتي، أملنا في الله لا يتزعزع قيد أنملة.
 - ماذا ستفعل حين نعود لبيتنا يا عمر؟
- أمسك عمر بيدي، وبدأ يُقلّبها بين يديه، وهو يتأملها ويقول:
- سأقوم بحلاقة ذقني، سأذهب للتسوق، سأشتري لك ثوباً جميلاً، سنتعشى في مطعم أنا وأنت، وبهيجة وطارق، نحتفل بنجاتنا، ونرقص، كما تحبين.. أعدك بذلك.
 - هذا حلمٌ جميل يجعلني أزهو فرحاً.
- قلتها له بعرفانٍ كبير.

يحدث في بعض الأحيان أن يمنحنا شخصٌ ما حلماً جميلاً، نتعائش به، ونُحاربُ به اليأس، وظُلْمة الروح، يحدث أحياناً أن يَعِدُّنا شخصٌ

ما بوعد صغيرٍ، لكنه يكبر داخلنا، فقط لأننا قبلناه، يحدث أحياناً أنَّ
وعوداً لا نصدقها ولا نهتم بها، تزهو وتتحوّل إلى حقيقة دامغة - بغير
اهتمام منا .. ويحدث أن نهتمَّ بوعود فنحاصرُها باهتمامنا، ونريدُ لها
الحياة، لكنها ساكنة لا تتحرَّك، ولا تأتي إلى الحياة.

في العاشرة صباحاً كان لا بد لنا أن نقفز من مكاننا، لنطير إلى
مكان يصل بنا إلى جهة السلام، كان صوت الرصاص عاليًا، والصراخ
يحيط بالمكان، هدير محركات السيارات القوي، وصوت احتكاك
العجلات، يجعل أي فكرة تبدو مستحيلة في هذه اللحظة، صَعَدَ طارق
بسرعة السلام، وبدأ في مراقبة الحدث.. ثمة ثلاث سيارات، وحوالي
تسعة مسلحين ملثمين، يحملون الرشاشات وأشياء أخرى، هم الآن
يحاولون دخول المبنى ..سكت طارق بعد أن أنهى كلامه.
إذا ها هم عادوا

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي.

بقينا نسمع الصُراخ يتعالى، بعد فتح باب المبنى، والسيارة تُحاط
بهم، فتشوها، أخرجوا بعض الأمتعة البسيطة، أحدهم يقول هيا:
ندخل ونفتش، سمعنا صوت أقدامهم فوق رؤوسنا، ترطن بلغة
الرصاص، في محاولة لبثَّ الرعب في قلوبنا لنخرج.

كنا في صمت مهيب، لم نجرؤ على التحرك، هل سيصلون إلينا؟
هل سينالون منا؟ هل سيقتلونا؟ ماذا يقصد طارق بقوله ويحملون

الرشاشات؟ وأشياء أخرى؟ هل هي سكاكين؟ يذبحون بها الناس؟
كم أعمارهم؟ مَنْ هم؟ ليبين؟ أجنب؟ غرباء؟ أعداء.

آهة كبيرة في رأسي، لم أعد أتحمل هذا الطين في أذني، هذا الصراخ
يُرعِبني، هذا الخوف الساكن في قلبي، هذا التوتر الذي يسحق جميل
صبري، هذا العنف الذي لا يغادر بلدي، هذه الشراسة في السلوك،
دمرت أعشاشًا، وبيوتًا كثيرة، لم أعد أطيع شيئًا.

بسبب هؤلاء هرب هيثم النحاس من سوريا، ولم نعرف مصيره
بعد، هل عبر البحر؟ أم عبر خط الحياة إلى داخل القبر العائم.

بعد ساعات طويلة، بدا لي أنهم لن يغادروا، شاهدتهم عمر وهم
يقفزون من السلم الجانبي للقيلا المجاورة، يبحثون هنا وهناك،
يتجولون ثم يطلقون الرصاص، يغادرون ثم يأتون، يمرُّون في الليل،
ثم يعودون في الصباح، كل هذا لتحطيم معنوياتنا للخروج، ومع تأخر
بقائنا صار يمكننا في كل مرة أن نكتشف شيئًا جديدًا، ومن ذلك ما
قالته بهيجة:

- نحن أخطأنا في الصعود لدورة المياه، بين حين وآخر، لقد تركنا
أثرًا لا يمكن أن يمرَّ بسهولة.

فَطِنَ طارق لكلامها قائلاً:

- لم نتوقع أن يبقوا، توقعنا أن يأخذوا السيارة، وبحثوا،
ويخرجوا.

- الآن صار عندهم يقين أنَّ المبنى مسكون.

قلتُ هذا في جزعٍ.

قال عمر:

- إذا أمسكوا بنا، سنقول لهم نحن من الهلال الأحمر وعلّقنا هنا،
لسنا جهةً حكومية، ولا نتبع جهةً معينة.

سيجربون كل شيء حتى يخرجوننا، كانت نظرية الأنفاق تعمل
عملها في بنغازي، فتقريباً هذه المجموعات لديها خبرة في صناعتها تحت
الأرض، وقد صنعت أنفاقاً طويلة، تعبر بين مناطق كبرى في بنغازي
تحت الأرض، فكدنا نقول: إنَّ هنالك بنغازي العلوية، وبنغازي
السفلية.

لم تمر أيام، حتى سمعنا انفجاراً بقاذف آر بي جي، تلاه ضحك
وسُخرية، وخطاب يُعبّر عن شخصيات فاقدة للوعي العقلي تماماً،
ذكرني بذلك الرجل، الذي كان يرطن بخطب القذافي، وينهي شريط
خطبته بسؤاله الكبير: مَنْ أنتم؟ ربما علق هذا السؤال في ذاكرتي إلى هذه
اللحظة؛ لأعرف بشكلٍ أو آخر، لمن كان خطاب الرجل الذي قضى
نَحْبَه بطريقةٍ بشعة.

راقب طارق من الثقب، الذي يعلو جدار السلام، ثم نزل وصاح
قائلاً:

- اكتشفونا، اكتشفونا.

خَرَّت قواه، وهو جالس يبكي، ارتبكنا وهُرعنا إليه نسأله:

- كيف حصل ذلك؟

ظَلَّ طارق يشهق في عبرته، ويقول بصعوبة:

- رأيتُ شخصاً يُشير لمبنى السلام، ويدور حوله.

كان مبنى السلام من الخارج دائرياً، ومُرَصَّعاً بحجر القمر
الأحمر.

يجب أن نتجهَّز لأسوأ الاحتمالات، تأكَّدتُ من ربط شعري
وبنطلوني، لا أعرف لماذا كلما تذكرتُ الأثني عدوًّا يُرادُّ الاعتداء عليها،
فإن أول ما تسارع به هو توضيب ملابسها! وارتداء العديد منها بعضها
فوق بعض، وكأنها تحتمي بجلدها الصلد، كسلحفاة، تحتبئ داخل
قوقعتها لئلا يصلوا إلى لحمها.

نظرتُ لبهيجة، كانت ترتجف، وتتعثر في كلماتها وهي تقول:

- عمر.. هل نخبي حقائقنا وهوياتنا؟

نظر عمر لطارق وهو يقول:

- أخفوا كل الأوراق الشخصية، واجعلوا بطاقاتنا في الهلال
موجودة في الحقيقة، مع الهواتف لأنها آمنة.

ثم شرع يجمع منا الأوراق، والهويات الشخصية، وجوازات
سفرنا، وهُرع يجمعها في كيس قريب، ثم جذب ورقة من رواية ملقاة

على الطاولة، وكتب عليها: هذه الأوراق الثبوتية تخصُّ فريق الهلال الأحمر الليبي، في حال العثور عليها، تعتبر دالة على أصحابها، وقد تمَّ الاعتداء عليهم، من قبل ميليشيا مسلحة يوم التاسع من يناير ٢٠١٧ في هذا المكان ثم دسَّ الورقة في الكيس، وقام بوضعه في وراء الباب تمامًا، ووضع فوقه سلة المهملات، فهذه أبسط طريقة للوصول إليهم.

في ثقةٍ بالنفس، كنا نشكل وضع جلوسنا في دائرة نصف هلالية، أيدينا متشابكة، ننتظر مصيرنا، ونستمع للآراء بخصوص الجزء الذي نقطنه، ثم ما لبثنا دقائق حتى علا دويُّ الآر بي جي حائط السلام، فخرَّ ساجدًا لآلة الشرِّ والحرب.

بهزنا الضوء بالخارج، وبدت السَّلام مكشوفةً للخارج، ثم أصوات تصيح انتصارًا وأحدهم يهتف:

- طلع السلوم، هذا في وراه كلام كبير.

سمعنا اللهجة الليبية، ثم بدأ العمل في صعود السلام، ونحن نترقب في صمت يهتف بنظرات الخوف وتعابير الحزن، والشعور بالهزيمة وخيبة الأمل، وأشياء كثيرة لا تتسع لها قواميس انتظار المجهول.

للترقُّب محطات لا تخون حدوث الفعل.

لا بد من عملية بتر للوقت، بفعل يقطع مشيمة الانتظار، لا بد من زمن يخترق بكارة اللحظة، كي يغير اتجاه الريح الذي ظلت فيه، وها

هي الرتبة تغادرنا، والمملل يتسرب زاحفًا للخارج، مستطلعًا أحوال من سيدخلون علينا، ها نحن أولاء فريق الهلال الأحمر نتظر قدرنا، بما أحاطنا الله به من قضاءٍ وقدر.

شاهدتُ الظلَّ الطويل الذي نزل وسرعان ما كان أمامنا شاهراً سلاحه علينا - وهو يصرخ بلهجة عربية:

- صيد ثمين، يا أبو حاتم، يا أبو خباب .. هنا .. هنا.

كان ينظر هنا وهناك، ونظره مُثَبَّت على أجسادنا التي اتخذت الجلوس موضعاً لها، رؤوسنا تنظر أماماً، في هدوءٍ وصمتٍ ثقیل.

دخل الشخص الآخر، ثم الثالث، فالرابع والخامس..... أسلحة رشاش، سكاكين على جانبي البنطلونات السوداء الفضفاضة، نظرات تُحدِّجنا في حذر وتحذير، يدورون حولنا .. ينظرون لطارق، لي، لبهيجة، لعمر، شعرت بالغثيان، بشعور داخلي يُناديني، ويُدفعني للصُّراخ القوي، شعور لا أفسِّره إلا بالرغبة في حلِّ جدائل شعري، والخروج للخلاء، والبكاء حتى النحيب، على بلاد ملعونةٍ بقلّة الراحة والاستقرار.

قَطَعَ حبل الصمت صوتٌ غليظ يقول:

- من أنتم؟ وهل معكم آخرون؟

نَظَر عمر إلى الرجل ثم قال بصوت خافت:

- نحن فقط، ليس معنا أحد.

ثم نكز الرجل طارق بالبندقية قائلاً له:

- أأنت مسلح؟ تتبع من؟

رفع طارق رأسه بهدوء قائلاً:

- أتبع الهلال الأحمر، نحن فريق جئنا لسحب دواء من هذا المكان.

ظَلَّ الرجل يُحدق إلينا، وظل الرجال ينبشون المكان، ضربوا عمر بلا رحمة، في أثناء مرورهم وراء ظهورنا، كانوا ينكزون طارق بكعوب البندقية، وبعد قليل استخرجوا صناديق من الأنسولين، والحقن، استخرجوا أشياء تخصُّ أهل المبنى، ثم بدأ أحدهم يقلب الكتب الملقاة فوق الطاولة قائلاً:

- هذا كفر.... هذا حرام.

وشرع في تمزيق الروايات واحدة تلو الأخرى. قطع المشهد صوتُ أحدهم يقول:

- انهضوا.. انهضوا هيا.

نهضنا كلنا، ثم قال للآخر:

- أبو خباب... اربطهم جميعاً.

تقدّم نحونا رجلٌ غليظ الجسم، طويل، كثيف اللحية، عيناه سوداوان وحاجباه كثيفان، حنطي البشرة، يرتدي ملابس مُشكَّلة من الكتان، باللون الجيشي، القريب من الأخضر.

ربط كلاً منا على انفراد، بدأ بطارق، وانتهى ببهيجة قائلاً لنا:
- سوف ترون ماذا سنفعل بكم إن لم تتكلموا الحقيقة.

مشهد مسرحي سخي، بارد وقديم، تعثر بمطبات الهواء الذي كان يدفعنا نحو التغيير، فوقعنا في هُوَّة عميقة، وفجوة سحيقة، أعادتنا للوراء عشرات السنين، للتتار والمغول، لهولاكو وهتلر، للبربر والهمج، للقتل والسلب، للخطف والسجن.... شعرتُ بالهذيان حد الحرارة، التي بدأت تضرب جُجمتي، وتتسرب لرأسي.

كأنَّ أوجاعي تُشبه رتلاً مُدَجَّجا بالأنين، فاض به الحنين، واتسعت فوهة المسافة بينه، وبين الطمأنينة، فتقطع به طريق الوصول إشلاء، أشلاء، كأنَّ ألمي يتناثر كمطر مُنهمر، يملأ بقعة المكان، ويكتسح خضرته، فيذبل زهر تطلعاتي، حين لا تأتي الشمس.

وحين ينحسر الضوء تحت وطأة الظلام.

وحين يتراجع الخير أمام تكالب الشر.

وحين يكون الحظُّ كمقاتل، يحاول كسب رهان الحرب في الزمن الرديء، والوقت الضائع.

وحين لا نكون نحن هم نحن.

هكذا يمكن للفوضى أن تختصر حالة دولة، في مشهد مسرحي عن القتل، أو توجز تردّي الوضع السياسي في سكين ملطخ بالدم، أو

تُلخّص انعدام الأمن والأمان، في مشهد غرباء يطرُقون أبواب البيوت،
ويتلون مخطوطاً من الخليفة، يستبّيح بموجبه نساء البيت سبائاً ثيبات
وأبكاراً.

لا حاجة لمحللين سياسيين يشرحون وضعنا. لا حاجة لمصور ينقلُ
الصورة. ما من داعٍ لإعلامي يناشد العالم من أجلنا. ولا ضرورة لناشط
حقوقي يتلو حقوقَ المواطنين على مسامع العالم. إنّ السكين كفيلة
باحتيال قرى ومدن، بمجرد التلويح بها.

بعد الاعتداء على طارق بالضرب - على اعتبار أنه شاب - سألوه
عن مفاتيح السيارة التي تقبع في سور المبنى، لم يقاوم طارق، فأشار لهم
إلى جيبه، استلّها أحدهم منه جيبه، وأعطى كبيرهم إياها، وهو الوحيد
الذي لم يُنادِه أحدٌ باسمه... لَوْحَ الكبير بالمفاتيح ثم قال في غضب:

- هذه هي السيارة التي أبلغونا عنها قبل مدة على الطريق.

سكّت طارق ولم يرد، وهنا تدخل عمر بهدوء قائلاً:

- نعم هي، جئنا نجلّب أدوية، لأناس مرضى بالسكري، وعلّقنا
هنا فبقينا، وقبل أيام حين شاهدتمونا، كنا أضعنا الطريق فقط.

ردّ الرجل في استهزاء:

- لو كنتم واثقين بنا، ما هربتم بالسيارة، ولكن وجدناكم
..وجدناكم.

لم يرد عمر، ثم نظر إلينا نحن وقال:

- وهاتان؟ ما الذي أتى بهما معكم؟

صمتَ عمر... هل يقول له زوجتي؟ هل يُنكرني؟ حسناً، أليس من الأفضل أن يقول زوجتي فأنا في جميع الأحوال معه، وإذا قال إنني لست زوجته فقد يستبيحونني.

- هذه السيدة تعمل معنا في الهلال الأحمر، وتنقذ الناس الذين يحتاجون مساعدة، وهذه كذلك تعملُ معنا.
كان ردُّ عمر ذكياً ومفتوح التَّأويل.

سكتَ الرجل، ثم همسَ في أذن أحدهم - فصعد وعاد بآخرين، بدأ الرجالُ في إخلاء المكان.

كان المساء يقتربُ حين صعدنا السيارات، وضعونا في السيارة الخاصة بنا، وقادها أحدهم مُتجهاً بنا وراء ذلك السَّرب الذي يحمل سياراتٍ متنوعة، بين عمومية وخاصة.

ها نحن كالصناديق المشحونة، لوجهة غير معروفة، بعد رحلة بقاء طويل فوق رفوف الانتظار... كنتُ أنظر لبهيجة وعمر وطارق، المقيدين مثلي، مرهقين جداً من قلة الأكل، وضعف البنية، وقسوة التجربة، وصعوبة الاتصالات، وانتهاء فرصنا في الهرب من الجماعات المسلحة، كل هذا تترجمه وجوههم التي كانت تتدلى من التعب بين حين وآخر.

سِرنا مسافة طويلة، أكلني الترقُب، حتى صرْتُ بين حين، وآخر
أنظر لعمر وأهمس له:

- إلى أين يأخذوننا؟

همسَ عمر:

- نحن نتجه غرب بنغازي، هذه هي منطقتهم.

حدّجنا المدعو أبو حاتم، قائلاً باللهجة المحلية:

- اسكت أنت وياها، راهو نخط فيك رصاصة.

اغتالني الصمتُ خوفاً على عمر.

كانت المنطقة كبيرة جدّاً، شاسعة وممتدة، بدأنا نتّجه نحو التربة
الطينية، حيث تقبّع مساحة كبيرة من المزارع، وتتناثر البساتين منها التي
تشتهر بزراعة النباتات العشبية، كالبقدونس والسلق والنعناع، ومنها
بساتين لزراعة الخضراوات والفواكه، دأب أهل المدينة على توفير
المحصول المحلي منها، كالطماطم، والبرتقال، والتفاح، والتين، والعنب
..كلٌّ بحسب موسمه، ومنذ احتلال هذه المنطقة، تركَ أهلُها المحصول
عالقاً، فبدأ الآن مصدوماً فوق أغصانه بلا قِطاف.

ترنّحت السيارة في السّير، دخلت في مسارب ومتاهات كثيرة،
انحرافات، وانبعاجات، بيوت بدأت تلوح لنا، تتجاوزها ونحن نمضي
في سرايب طينية، ظلت السيارة تأكل بنهم وجه الطريق، حتى بعد أن
خيّم الظلام على المنطقة، لم يشعل السائق مصباح السيارة، ثم بدأ في

تخفيف سرعته، إلى أن وصلنا مكانًا يبدو مبنى كبيرًا، يبدأ بنقطة تفتيش،
توقّف السائق عند النقطة، وسرعان ما تقدّم إلينا ثلاثة رجال بادر
أحدهم بلهجة محلية:

- من وين لك السيارة يا نزار؟

- غنمناها يا سيدي، هلا بتخلينا نمر وإلا لا؟

- أيه اطلع طول، من معاك؟

كان يتكلم ويتطلع لخلف السائق إلينا.

رد عليه السائق:

- هادولا يا سيدي لقيناهم في نقطة جيم، هذي السيارة اللي
شافوها قبل كم يوم.

- طيب طيب اطلع اطلع.

كنتُ أسمعُ لهجات مختلفة، محلية، وعربية، وربما قادمًا سأسمع
لهجات أجنبية. وهذا الرجل الذي كان يقول الآن للمجند على النقطة:

- غنمناها.... من أين غنمونا بدون حرب؟ وهل أصبحنا نعدو
مجرد غنائم؟ لنتحول بعد ساعات إلى غنم، يحق لهم بموجب قانون
الغنيمة ذبحها؟

كيف تغيّرت المفاهيم وإحداثيات المعركة؟ كيف تحوّلت استباحة
الأعراض والسرقة، والاعتداءات على المدنيين إلى غنائم؟ كيف تحوّل

الانتحاري إلى غازٍ صاحب غزوة تحمل اسمه؟ كيف صار يعدنا أحدهم بالذبح، ويترك قطعان الماشية تغرق في استفهام كبير، عن وجود نوع وجنسٍ يستحقُّ الذبح مثلها؟ كيف يمكن تكفير شخص يقرأ رواية؟ ويُترك آخر يذبح باسم التكبير؟

وحده الله - تعالى - يملك أن يسنَّ قوانين هذا الكون، ترك لنا باب الرحمة واسعاً، وترك باب التوبة مفتوحاً على مصراعيه، وجعل الإسلام رأفةً بنا، لا وبالاً علينا.

بعد مسيرٍ توقفت السيارة، أحاطونا من كل جانب، بمجندين تعددت وجوههم وملاحهم، خفق قلبي بشدة، فهذه غابة رجال، غير أهلة بالسكان المعتدلين، وثمة أفكار، وأبعاد فكرية قد نتفاجأ بها هنا، لذا يجب الاستعداد.

أنزلونا من السيارة، كانوا يحدقون بنا، ملابس متنوعة، زي بملابس الجيش، زي باكستاني، زي أسود طويل هو أقرب للزي الأفغاني، زي عربي ليبي، زي آخر شامي، زي حديث يحمل ماركات الجينز، وقمصان مفتوحة الصدر، وموبايلات، وسكاكين، بنادق وأقواس صيد، أحذية عسكرية ونعال، أحذية ماركة طويلة العنق، وشباشب إصبع، وأغطية رأس تشبه اللفافة الآسيوية، قبعات وقلنسوات، وعمائم.

آه أين أنا؟ في أي حقبة؟ في أي زمن؟ في أي عصر؟ تحت مسمى أي ديانة؟ إنه سقف مفتوح على كل الديانات.

هستيريا تسقط فوق رأسي، تُرديني للوراء، إلى عوالم باهتة، وحفر
فكرية تعجُّ بالغبار، تُشعّرنني أنني عدتُ لعصر ما قبل قبائل قريش، ربما
لعصر أبعد من ذلك، أو لعلّي لا أريد التصديق، أنني أمام صورة تُشبه
تمامًا ما حدث في بغداد حين اجتاحتها جموعُ التتار والمغول، الجموع
العشواء التي اجتاحت بلدان المشرق العربي فيما بعد، لأنني المُس نفسي
أمام خليط عالمي من شتى الدول والطوائف والأديان، تتجمع كلها
وتتعدّد في توجّهاتها، وقيمها، وعاداتها، بل إنها تزعم الإسلام، لكن
كثير من مقاتليها لا يدين بدين الإسلام بتاتًا.

وجدنا أنفسنا ندخلُ حجرة، يقف عند بابها مسلحان، متوسطة
الحجم، مربعة الشكل، بها نافذة عالية تطل على أشجار وارفة الخضرة،
وتحتها مكتب صغير، يجلس خلفه رجل عريض المنكبين، ضيق العينين،
أسود الشعر واللحية، أسمر البشرة، يدخن سجائره في تأمل لنا، من
أسفل أقدامنا إلى أعلى قمة فوق رؤوسنا، كان صامتًا، مُدَجَّجًا
بالتفحص - الذي بدا كأنه يعاين الغنائم التي وصلت إليه للتوّ.

- من وين أنتم؟

سألنا بصوت خشن وهو يتقدّم نحونا.

لم أرد لا أنا ولا بهيجة، فقد كان اتفاقنا - عندما علّقنا هناك - أن
عمر وطارق يتوليان الإجابة، إلا إذا تمّ توجيه سؤال شخصي لنا، وفي
حال ذلك نركز جميعنا على الإجابات العمومية - التي تقبل التأويل،
وإذا أحسّسنا بالإلحاح نتصرف.

جاء رد عمر جاهزاً للإجابة فقال بصوته المُتعب:

- نحنا جزء من فرقة الهلال الأحمر.

كان صوت الرجل الأجش يُعاكسنا، بلهجته وهو يقول:

- وشنو تفعلوا في المحور؟ وكيف دخلتم؟

وظلَّ عمر يرد عليه، حتى التفت الرجل فجأة في تذمُّر، وقسوة وقال لعمر:

- نبي نسمع منهم، خلي لسانك في حلقك.

سكت عمر وخيَّم عليه الصمت.

ثم عاد الرجل يسأل في لهجة جافة .. وصوت عالٍ:

- وين الهواتف؟

لم يرد عليه أحدٌ منّا.

ثم صاح بصوتٍ عالٍ بالمجند عند الباب:

- الهواتف، جييهم من نزار بسرعة.

بقي الرجل يدور حولنا، ينظر لنا أنا وبهيجة في تفحُّص، ولم تكد تمرُّ دقائق حتى دخل المجند حاملاً هواتفنا التي فقدت إحساسها بالحياة، ونخزونها من الكربون، فأكلها الصمت، وغابت مندسة في عوالم العزلة، ريثما تعود للتغريد، وتبدو منها ملامح أحبائنا، وأصدقائنا الإلكترونية، وهي تتصل بنا، وتكتب لنا رسائل جميلة، تسأل عنا.

وضعها المجند بفظاظة، فوق المكتب قائلاً: سيدي ما فيهاش شحن، نشحنها؟ عشان تفتشها؟

- أيه.. أيه الشحن فارغ، باهي حطهم في الشحن.

وسرعان ما فتح الدرج، وسحب وصلة، وفي ثانية كانت الهواتف جميعها في الشحن بوصلة واحدة.

وهنا شردت روحي، متسائلة أسئلة نابعة من عمق علاقتي بالجملادات، التي تأثرت بها أنا وعمر في حياتنا بالبيت. لماذا لا يحدث ذلك عندما يفقد بعضهم فرصهم في الحياة؟ لماذا حين يموت الناس موتاً جماعياً، لا تُوهب لهم حياة بالجملة، كما يحدث الآن للهواتف الفاقد حياتها، ولماذا لا تُمنح لهم جرعة أكسجين تهبهم القدرة على الاستمرار والبقاء؟ لماذا حين يعبرون البحر، ويدقون جدران تلك الدول لا يتم توصيلهم بخيط أمل، يضعهم في جانب الاستمرار والحركة، في جانب العودة والأمل للحياة؟

ما أشبه هذه الهواتف بنا الآن، هي فاقدة لقدرتها على اختيار مصيرها، لا تملك أن تجعل قلبها يخفق باتصالٍ من حبيب، أو تواصلٍ من صديق، إلا بعد أن تُوهب ذلك الخيط الرفيع، الذي يصل موتها بالحياة.

نظر إليّ الرجل، وهو يخرج سيجارة أخرى، ثم دار حولي، كنتُ ثابتة، وأدفنُ خوفي في كرتونة قلبي، فقلبي الآن كرتونة باردة، تحتل أن

أدسّ فيها، كل مشاعري الدونية، ذلك التاريخ المتراكم في عتمة روحي،
من مأساتي كوني امرأة، إلى مأساتي كوني مواطنة عربية ليبية... من بداية
التكوين، إلى صيرورة هذه اللحظة— وهذه الكرتونة مُعبأة بالمفاهيم
البدائية، التي أحاول أن أطورها، والتي يجري تحديثها.. ولكن ليس في
عصر التتار، الذي أعيش فيه هذه اللحظة.

- أنت ليبية؟

- اي إني ليبية، من بنغازي، أعمل طبيبة.

رددتُ عليه في هدوء، مُخفية ارتعاشي، فالارتعاش يعني أن ترتعش
فرائصي، بصوتِ الخوف، يعني أن تفوح مني رائحة الأنثى الخائفة، من
أن تتحول إلى سبية.

- متزوجة؟ أنسة؟ أم؟ تكلمي؟

كان صوته قاسياً، وهو يقيمني كبضاعة، في سوق نخاسة، آه ما
أحقر رجالنا العرب، وأستثني الشرفاء النبلاء!

كنتُ أنظرُ لعمر مرتعشةً، وصوتي غائب وراء خوفي على نفسي
وعليه، إنني الآن في قاموس اللهجات الليبية، والمحلية أساوي في علم
المعاني الشعبية (عار) عار عمر قاسم، فقد انتقل إرثُ هذا الشعور من
أخي، الذي سلّمني، كعهدةٍ تراثية بموجب قانون الشرف والعفة، إلى
زوجي، وحين تستحيل المرأة عارًا على الرجل - أياً كانت تسميته

وقرابتها لها - لا تملك خياراتٍ أفضل مما قد تتوقعها من المجتمع، لكنني في هذا الموقف، لا أملكُ أن أكذب، فالوضع لا يقبل أي مخاطرةٍ، وربما كوني متزوجةً أقل خطراً من كوني فتاةً شابةً.

فجاء ردِّي عليه:

- متزوجة ولديّ طفلة تنتظر عودتي.

كذبت كي يتحرك إنسانه، وربما تفاؤلاً مني، لا أعرف، غير أنَّ وجه عمر أراحني حين رأيته لم يتفاجأ من ردي. سكت الرجل ثم قال:

- وهل تتوقعين العودة يا؟ ما اسمك؟

في داخلي أعلم أن هوياتنا الهلالية أخذوها منا - حين تركناها في جيوبنا، وكما اتفقنا فيما بيننا حين أخفى عمر باقي أوراقنا.

قلتُ له صادقةً:

- اسمي سمر علام.

كان يسمعني، وهو يحاول أن يقرب أنفاسه مني، شعرتُ بلهائته كحيوان يشمُّ رائحة اللحم، وهذا يكفي لأن أشعر هذه اللحظة بمفهوم ودلالة مفردة (الفريسة). هذا المعنى الذي اجتاح عقول السَّيِّئات اللاتي مررن قبلي بكل أطيافهن. الفراشات، وربّات الحقول، الفارسات، الطاهرات، الشائحات، اللاتي قدرهن أن يصطادهن ذئب جائع تركه الراعي، يصول ويجول في أرجاء بيتنا.

شعرتُ بأنفاسي تتسارع، وانتابتنني مشاعرُ غريبة، هل سيجعلني
سبية؟ بموجب قرار إداري صادر برقمه الإشاري وتاريخه الرجعي؟
هل هناك سوق للنخاسة سأحمل إليه؟ هل سيتم اغتصابي جماعياً؟ هل
سيختلفون على سعري؟ هل ثمة نساء هنا؟ كانت الدموع تنزل من
عينيَّ بسخاء. وما أكرم الدموع حين يكون سببها الخوف!

أيُّ تقييمٍ عدا كوني إنسانة باطل في أعراف قلبي، زاهقاً في مكبِّ
نفايات الحداثة، ومنتَه في محاكم الواقع المزري، ولا أخفي سرّاً أنه غير
ساري المفعول في قوانين التتار والمغول الذين قرأنا عنهم كثيراً في
ويكيبيديا.

رَنَّ فجأة هاتف الرجل الكبير، فردَّ عليه، وهو يقلب أوراقاً أمامه،
ويقول لصاحب الاتصال:

- لا لا العدد الي غادر بالضبط ثلاث وثلاثون مقاتلاً فقط،
نعرف. أي نعرف .. نعم، نعم الاتصال ضعيف عندنا، أنتم عارفين.
- لا لا .. مش ح يحصل سيدي، لين يرجعوا للمقر .. باهي
.. باهي .. تم الأمر.

أنهى مكالمته وهو يصرخ في المجندين أمام الباب: تعال للداخل
أنت وياه.

دخلَ المجندان بسرعة ووقفوا أمامه في انتظار الأوامر:

- أدخلوا المرأتين لسجن النساء، أدخلوا الرجلين لسجن الرجال، استفيدوا من عملهم، خيروهم واعرضوا عليهم برنامجنا.
- تمام سيدي
- الرفض منهم شيلوه للسجن (أ).
- مفهوم سيدي.

أحاطنا المجندان، خرجنا وكانت الساعة تُشير للثانية عشر ليلاً، عندما نظر عمر قاسم، إلى زوجته سمر علام وكأنه يودعها وداعه الأخير، فلم يعد ثمة لقاء قد يكون، ولم يعد المصير واضحاً، ولم تعد المعايير تمتلك المصادقية، اختلَّ ميزان كل شيء، بما في ذلك ميزان القوى العقلية للقوى العالمية!

انحرفَ بنا المجندان وراء المبنى الذي كُنَّا فيه، وبدت لي بوابة تؤدي إلى مبنى كبير يحتوي على مبانٍ مترامية الأطراف، ربما عددها أربعة أو خمسة مبانٍ، توقفت أمام بعضها سيارات كبيرة، وثمة حراس واقفون هنا وهناك، وثمة مصابيح إنارة تمَّ تشغيلها بواسطة كابل كهربائي، امتدَّ وترامى على الأرض في انحناء وتعرج، حتى بدا كأنه أفعى كبيرة.

انقسمنا إلى جزأين، امرأتين ورجلين، بعدما كنا فريقاً واحداً، نظرنا لبعض قبل أن نفرق، فالإضاءة كافية لتمييز ملامحنا ونودع بعضنا، أمالَ عمر فجأة رأسه نحو كتفه، وحكَّ كتفه بأذنه بشكل عفوي .. فهتمت رسالته الحركية، فقد اتفقنا عليها مسبقاً، بخصوص أهمية الاتصال بالهاتف، إذا تمكنت من استعماله.

فَرَّقُونَا، وذهب كل منهما في اتجاه، سجن النساء، وسجن الرجال،
وثمة سجناء في عقولهم لا يمكن أن يخرجوا منها ما حيوا حياة.

يبدو السجن مظلمًا وقديماً، فيه حجرة كبيرة وشاسعة، وملحقٌ
تفوح منه رائحة البول، جلست في أقصاه بعض السيدات، نظرت
إليهن، نظرن إليّ عبر الضوء الخفيف، ثم إلى بهيجة... لا أغطية ولا
وسائد، مراتب للجلوس عليها فقط، بعض أكواب الماء، ملابس ملقاة
هنا، وهناك.. وجوه منطوية، ووجوه مطفأة، وجوه تفوح منها رائحة
الحزن، ووجوه غابت في قرى النسيان، لاحت لي ملامحها كأنها تحاول
أن تتذكرنا، وجوه تعابيرها تصلح لعناوين رئيسة في الصحف، ووجوه
مشمعة بشمع أحمر، لا يمكنك أن تقرأ عليها شيئاً.

لم أتصوّر هذه النهاية، لامرأة جاهدت في عمرها؛ كي تستردَّ
حقوقها من المجتمع الذي تعيش فيه، حقوقاً ظلت في عُرف المجتمع
غير شرعية ما دامت تحت وصاية العادات والتقاليد، بقيتُ ردحاً من
العمر أحوّلُ الخلاص، وكلما تخلّصت من شرّك الجهل، وقعتُ في
شرّك العادة، وكأننا نعيش في مصيدة كبيرة، أمها العادة، وأبوها الجهل،
ها نحن أولاء في أحد أقباص هذه الغابة الكبيرة، التي تفنن صيادوها
في صنْع شرّاكها، فأصبحت الواقعة منا في المصيدة؛ ضحية قانون
الغاب.

قُرابة الخامسة صباحاً؛ كنتُ أسمع أصواتاً كثيرة في المكان، صُراخاً
وصياحاً، ثم أصوات رصاص، استجداء؛ وبكاء، ثم أصواتاً تُشبهُ

صوتاً تُصدره الخراف حين تُذبح، رأيت إحدى السيدات تتململ في مكانها، جلست ثم بدأت في البكاء، اقتربت منها متسائلة. فردت وهي تقول:

- الله يرحمهم.

قلتُ:

ما اسمك؟

قالت باقتضاب:

- اسمي منى.

جلستُ قُربها، ووجهي مُعبأً بعلامات استفهام كبيرة، فانهارت، وهي تبكي وترد على علاماتي: - ذبحوهم .. ذبحوهم.

نهضت النائمت في السجن، على إثر صوت البكاء، جلسن وكل واحدة منهن تذرف دموعاً، لها خصوصية حكاية طويلة، لم يسمعها السجن، ولم تحكِها الجدران بعد. حكاية الإنسان الذي يُشبه الخرفان.

جلسَ عمر وطارق قُرب الرجال الثلاثة الوحيدين في السجن، كان أحدهم مُسنّاً، والآخران أحدهما في الخمسينيات، والآخر أربعيني العمر، لحاهم كثّة، وأحوالهم متردية، وشعورهم طويلة، والصحة الجسمية سيئة للغاية، كما تبدو. تساءل الرجال، عن طبيعة سجن عمر،

وطارق، أهو ناجِم عن خطف، أم قبض، أم محاولة هرب؟ لم يرد عمر، وترك لطارق مهمة الإجابات.

كان الصباح يتسلل عبر النوافذ، وثمرّة رائحة نتنّة وسيئة تزكم الأنوف، ذكر أحد الرجال أنَّ عمليات دفن جماعية تجري وراء مبنى السجن، وأنّ التصفيات - التي تجري هناك - تكون جماعية حتى لا يرهقهم الحفر في كل مرة.

علّق عمر قائلاً:

- إذا كنتم تشمونها منذ مدة؛ فأنتم صحيحاً لستم بخير... هذا عدا الأمراض العقلية التي لا يستوعب الإنسان فيها حصول كل ذلك.

ردّ أحدهم قائلاً في هدوء:

- البحث عن طريقة هروب في هذا المكان الشائك، تبدو مستحيلة، لأنّه مُحاطٌ بأكثر من سور، والاستجابة لمطالب هذه المجموعة ودعواتها، تعني الانضمام لصفّ قتلة الإنسان، أما الرفض فيعني السجن (أ).

التفت عمر للرجال الذين معه قائلاً لهم:

- ما السجن (أ)؟

خيّم صمتٌ ثقيل، ومُحمّلٌ باستفهامات كبيرة على المكان، ثم قال أوسطهم ببطءٍ ثقيل: سجن قضاء الحاجات!

اندهش طارق، وراقب حوار عمر معهم بصمت.

- ما معنى سجن قضاء الحاجات؟ ومن يقضيها؟

أردف الرجل، وكأنه قرأ الأسئلة التي في بال طارق، ثم قال:

- أي رجلٍ أو امرأة يدخل سجن (أ)، معناه أنه غير منضمٍّ للدعوة، ويتم استغلاله بشتى الطرق والوسائل.

قال عمر وقد فهم نصف الكلام:

- استغلال جنسي فقط؟

رد الرجل الأربعيني قائلاً:

- لا، بعد الانتهاء منهم جنسياً، يستعملونهم في عمليات انتحارية.

كان الخبر كالصاعقة على عمر، وبدت له وجوه الرجال الشاحبة والمتعبة، فدار بباله أنهم قدامى، وليسوا حديثي العهد بالسجن، فكيف هم أحياء للآن في هذا السجن، ولم ينضموا ولم يعاقبوا؟ سألهم عن أسمائهم، الأربعيني اسمه ناجي، والآخر خليفة، والثالث وهو أكبرهم عمراً، وكلهم من رجالات هذا البلد المنكوب، الذين أُسروا في الرتل القادم لبنغازي للسيطرة عليها، وتم خطفهم من سجن عسكري في بنغازي، قبل استدراك محاكمتهم، ويتم التحفظ عليهم؛ لأنهم يساؤون الكثير في ثقل المعادلة.

- إذا أنتم منذ أكثر من سنة هنا.

قال عمران:

- نحن منذ ثلاث سنوات ويزيد.

- أأنتم الوحيدون هنا؟

ردّ ناجي:

- لا، هناك مَنْ يأتون وينضمون؛ حتى لا يتم ذبحهم، وهناك مَنْ يرفضون، يتم نقلهم للسجن (أ)، وهناك مَنْ يُذبح فوراً لأنه حاربهم.

كان الوضع قاسياً، فعلى أي حال هم أموات بأي طريقة، إذا انضموا فهم محاربون، وإذا لم يفعلوا فهم انتحاريون، وإذا كانوا أسرى فهم خراف مصيرها السكاكين بلا مقدمات.

ما أصعب أن يقفز التاريخ البشري هذه القفزات للوراء، ويعود للعصر ما قبل الحجري! ما أقسى أن تقضي عمرك وأنت تُهذَّب نفسك بالأخلاق وتتعلم، تقرأ قرآنك، تبسم وتخزن، تعيش وتحب، وتكره، تمضي كتلة من الأحاسيس، وتأتي كتلة من التعبيرات المحبّة للحياة، ثم تستحيل فجأة إلى حيوان يجردونه من كل شيء؛ فيقتل كذبيحة بلا قيمة تُذكر، وينتهي هذا التاريخ الذاتي لروح وشخص بهذه الطريقة السّفیهة. أو تنضم لهذا الركب، فتعيش كهيمة مجردة من الأحاسيس والمشاعر، تحمل السكاكين، وتذبح البشر كالخراف، وتستعمل الجسد البشري في تفريغ طاقاتك الجسدية، والشهوانية بطريقة همجية، ومريضة. تلك هي

ميكنة الجسد، ومعاملته كآلة صالحة للجنس، دون اعتبار لنظرية العقل، والتوازن المعنوي، والمادي بين العقل والجسد، هذه النظرية عادت للظهور من جديد؛ لتُحيلنا لمجرد آلاتٍ عاملة، صالحة للجنس والقتل والشهوات.

آلات فارغة، مُفرَّغة من طاقة الأحاسيس، تناصر انتشار المثلية، وتصادر الأمومة بحجة عرقلتها لمتعة الجسد، لينحسر الجنس البشري. هل هي تحولات العصر من بعد نبوءات المايا ٢٠١٢^(١)، التي لم يترجمها العلم بطريقة صحيحة؟

إذ بعد ٢٠١٢ لاحظ عمر أن كل شيء يُمَت للإنسانية بصلة، يتزعزع من مكانه، أحسَّ أن العالم يتخلخل من داخله وجوهره، ثم خرجت مجموعات من البشر تقتل وتذبح وتنهب، مجموعات تمحق، وتسحق الهوية الإنسانية، وتاريخ الشعوب، مجموعات تهدم معالم الأمم، وآثارها، لتعيدنا لعصور غريبة.. عصور من الهمجية والعنف، عصور ينفجر منها الكبتُ على هيئة قتل ورهاب. عصور تجعلك تفقد معايير سلامتك العقلية.

شعر عمر أن أيام أجوج ومأجوج تعود شيئاً فشيئاً، بينما العلماء مشغولون بالنص القرآني، وقضايا الحلال والحرام.

(١) تنبأ قدماء المايا، بناء على تخطيط النجوم، أن ٢١ ديسمبر ٢٠١٢ سيكون نهاية العالم (أو على الأقل تاريخ كارثة عالمية).

بعد ساعات طويلة، جاء أحدهم وبدأ في عرض عدة خيارات عليهم، عرض الانضمام، وذكر مزايا ذلك، ومقابل ذلك من التمتع بمبالغ مالية كبيرة، والاستيلاء على أي غنيمة، يُعتبر ملك يمين الشخص، بما في ذلك النساء، في أثناء الغزوة أو المعركة، أو الانتقال للقسم (أ)، وبدأ في سرد مهمات ذلك القسم، ولم يأت على ذكر تحويلهم لانتحاريين.

كانت الخيارات مستحيلة، الصعب منها أصعب من الذي يليه، وأبسطها أصعبها تمامًا.

قال عمر للرجل:

- أنا مهندس اتصالات، وهذا الرجل - وأشار لطارق، خريج الكليات الطبية، ويمكننا أن نقوم بما يلزم هذه التخصصات، فهي أفضل عندنا.

وكان هذا أفضل الخيارات بالنسبة لعمر، فهو لا يقبل الاعتداء أو القتل، ولكنه سيظل يقدر قيمة الإنسان، ويحارب من أجلها؛ حتى لو كان عليه أن يُحارب الشرَّ بالخير، أي أن يُحارب القتلَ بالخير الذي بين يديه، وذلك أحد السَّهام النورانية - التي يحملها الفرسان الشرفاء، والنبلاء الذين يُطهِّرون العالم من الشرِّ بطاقة الخير النبيلة.

فكَّر الرجل - الذي أتى إليهم، فقد كان العرض مطلوبًا لديهم، ثم قال لهم:

- سأعود مساءً بعد التداؤل، مع الغرفة، سنرى.

وغادر ..

حاول عمر إنقاذ طارق معه، فلم يكن طارق خريج كليات طبية، بل كان فتى شاباً خريج الاقتصاد والعلوم السياسية، قذفته البطالة للهلل الأهر، تدرب على الإسعافات، وقياسات الضغط، ومعدل السكري، والتخدير الموضعي، وقُدرت له منحة مقتطعة كل شهر، رغم أنها لا تغطي شيء، فإنها تقع في خانة خدمة البلاد، بالروح والدم، وبالشقاء والتعب.

وإذ تدور به روحه في أزمنة الماضي، بكل تقلباتها وأرياحها، يعود لتوجيه أسئلته الوجودية لإله السؤال، متسائلاً: هل هذا زمن النبلاء؟ هل يجب على النبلاء في هذا الزمن أن يخرجوا بالنور، وبشعلات الضوء، وبسهم خيرهم ليقاوموا هذا السواد القاتم، هذا الشر الذي استشرى في مناحي الحياة، فخرَّب المدن، وهدم البيوت، وأخرج البشر من أعشاشهم ليهجرهم إلى بلدان غير بلدانهم.

نعم ...

هذا زمن الفرسان، لحمل شعلة النور، يجب أن يقاتلوا بالحب، بالخير، بالكلمة الطيبة، يجب أن يسحقوا الفتن، ويقطعوا الطريق على الظالمين، يجب أن يكتبوا بالنور، ويقاوموا بلغة الزهور، وينشروا أحاديث الحق، الداعية للسلام بينهم، لا بد من لغة الشعر، لا بد من لغة الفن .. لا بد من لغة السلام ليعود للعالم توازنه.

تنهّد .. وهو يذرف دموعه.

حكّت الفتاة التي اسمها منى حكايتها لسمر:

- أُسرتُ بعد نزوح أهل المنطقة، وفقداني وسيلة نقلٍ، بقيتُ مع والدي التي تُوفيت فيما بعد إثر نوبة قلبية، لم يكن لديّ مَنْ يسأل عني، ولم أجد وسيلة للهرب، وعند أسري تمت دعوتي من الشرطة أم أحمد للانضمام فانضمتُ كرهاً، رأيتُ ماذا فعل فيمن رفضن الانضمام من قتل، واغتصاب جماعي، نحن لسنا سجناء هنا بمفهوم السجن الحقيقي. أنا أبقى فقط لحين عودة زوجي، فليست هناك غرف للمتزوجين، بل هناك مبنى يستخدمونه حين يعودون من المعركة.

تقول منى لسمر التي بدت مصدومة:

- عندما تنضمين تكون لك حقوق، يحق لك الزواج، ويحق لك الطلاق والزواج بآخر يختارك، أنت لا تختارين - ولكن عندك خيار، وهو أنك ترفضين شخصاً آخر، وأنت متزوجة شخصاً، أما في حالة النفي فالجهاد جهاد، بزواج أو بلا زوج.

فكرتُ سمر.

تلك مأساة كبيرة، حقوق ضمن مشروع التشيؤ، هذا يعني اختصار أشياء كثيرة، ويعني أن شهور العدة صارت بدلاً من ثلاثة أشهر ثلاث ساعات، وبدلاً من جهاد من أجل إعلاء كلمة الله، صار

جهادًا من أجل النكاح، وبدلاً من شرطة لتأمين الحياة، صار هناك شرطة للمساعدة على تأمين طرق أخرى للعُهر الجسدي. كل شيء هنا مقلوب الفهم.

وأردفت منى:

- تغيرت طريقتهم في الدعوة، لم يعدوا يستخدمون العنف في طلب الانضمام، بل جعلوه إرادة، وقناعة من الشخص، يدعونه للانضمام، ويعاملونه بيسرٍ؛ حتى يقتنع وينضم، ويُقاتل معهم بعقيدة قوية، وإصرار على الاستمرار.

في السجن الكبير:

كنتُ أحاولُ كسبَ وُدِّ الشرطة فطوم، وهي امرأة غليظة، سمينية، وقبيحة، شرسة في الحوار، فَظَّة في سلوكها، لا تأمر إلا ويتبع الأمر خطبة عن إعداد مقاتلات شرسات، استطاعت أن تستخدم بهيجة في إعداد الطعام - بكميات كبيرة، فقد كانت بهيجة تُجيد ذلك بمهارة. نظرت إليَّ الشرطة فطوم بفضاضة قائلة:

- ح تختاري الانضمام أو الانضمام... في الحالتين عندك الي نبيه.

- أكادُ أصابُ بهستيريا، ونوبة صراخ لا أريدها أن تتوقف، إلى أن يعود كل شيء طبيعياً، في هذا العالم.

علّقت منى قائلة:

- ما زال لديك وقت لتفكري، لم يعد المجاهدون من القتال بعد، سيقضون حوالي عشرة أيام، ثم تُستبدل المجموعة بأخرى، عندها يتم جهاد النساء.

- منى أنا متزوجة .. كيف أفعل ذلك؟ أتزوج آخر؟

نظرت منى إلى سمر مباشرة، وردّت معلقة:

- لا زواج قبل زواجك هنا، في هذا المكان انسي تاريخك، فكري كدجاجة، وتزوجي كقطعة، وعيشي كحمار لا يصلح لشيء سوى الركوب.

كانت منى مقهورة، وكلامها صادمًا جدًا .. نعم هذه كلمات قاسية من امرأة مقهورة، يمكنها أن تحبّ قهرها وعبوديتها؛ لأنها تتصور نفسها حمارًا، أو خروفاً يصلح للذبح.

- كنتُ في السجن النسائي، عندما دخلت الشرطة أم أحمد بطريقة فجائية، وهي تُشير لي بالقدوم.

ذهبتُ إليها في قلق، فطلبت منى أن أتبعها، سرتُ وراءها، وصلنا مبنى صغيرًا، دلفُ داخله، تبعْتُها كان هنالك سرير، ومنضدة صغيرة، ومراتب على الأرض، وأريكة صغيرة، وباب صغير آخر، كنتُ أسمع صوتًا بداخله لفتاة تصرخ وتئنُّ بشدة، انتظرتها، وانتظرتُ كلام فطوم.

ثم قالت فطوم في صرامة للفتاة:

- اخلصي، ليست هذه مشكلتي.

رأيتُ الفتاة تستجدي وتبكي قائلة:

- أنا لا أقدر أن أفعل ذلك وحدي .. ماذا أفعل؟

نهرتها، وركلتها على بطنها برجلها، قائلة:

- لماذا لم تأخذي حبوب المنع، يا ساقطة؟

بكت الفتاة بشدة، قائلة إنَّ الوقت لم يسعفها، وأنها نسيت، وظلت
ترطن على رأسها، ثم قالت لي وهي خارجة بلهجة حادة:

- (خلصيها من اللي في بطنها).

صدمني الطلبُ في أول اختبار لي، بعد كذبي عليهم بأني طيبة.

نظرتُ للفتاة، لم أستطع أن أفكر جيداً في الحلال والحرام، فكل
قضية هنا متشابكة، ومختلفة، ومربكة، لكن الفتاة في خطر. حسناً
.. سأحاول.

بقينا وحدنا، سألتُ الفتاة عن قصتها، فقالت لي:

- أنا نزيلة قسم (أ) ولتيني انضمامت إليهم، وارتحتُ، جاهدت
معهم غصباً، وكنتُ ألبي طلباتهم، هذه أول مرة أخطئ، سأنتقل لرجلٍ
آخر، بعد أبي عبيدة.

- هل أبو عبيدة زوجك؟

أطرقت في صمت:

- أبو عبيدة هو الثالث الذي جاهدتُ من أجله، بشرط عدم الحمل، هذه غلطة.

- آه.. ماذا حدث لك الآن؟

- ركلتني على بطني منذ الأمس، أتقيأ وينزل مني دم، ولكن لم يحصل إجهاض بعد.

- حسنًا قولي لها إنك تشعرين بألمٍ شديد، افعلي ذلك، قبل أن تقتلك بالركل.

ثم نظرتُ إليها، وأشفقتُ على حالها.. كيف ستتخلصين؟ اعملي باستمرار ليسقط.

- لا سأحمل أشياء ثقيلة، وأنقل بعض الأخشاب، التي يتدافأ بها المقاتلون، أريدُ ذلك دون ضربي، فقد تعلمت من المجاهدات.

وخرجت الفتاة، كان اسمها خالدة، فمن تجاهد تُسمى باسمها، ومن تتزوج من مجاهد، تحق لها الكنية، وتحق لها المشاركة في إدارة التنظيم.

فكرتُ في عمر؟ كيف حاله وحال طارق؟ الوضع هنا صعب، الشيء الوحيد الذي جاء من صالحني هو غياب السرية المقاتلة عن هنا، حتى حين عودتهم، لعل الله يحدث أمرًا من عنده. كل شيء هنا مُرتَّب ومنظم، اكتسب التنظيم خبرة طوال سنوات، وصار أكثر تنظيمًا،

وابتعادًا عن مفهوم السَّبي، فحتى وإن كان هنالك سبي للنساء، يتم بطريقة أكثر بُعدًا عن تجارية الجسد، بحيث يكتسب التنظيم رغبة النساء في الانضمام؛ ليبقى صموده في أعداده التي تفد عليه، إذ لا يملك وقتًا لتربية الأطفال المواليد، ويعتمد على سرعة تغيير المكان، والانتقال في بساطة ويسر.

هنا يمكنك أن تتعلم أيضًا. ألزونا بحضور محاضرة لأم أحمد، ومهمتها إعداد المقاتلات، وتدريبهن على كيفية الجهاد بالجسد وبالروح، كانت المحاضرة حول فداء الروح من أجل التنظيم، وكيفية القبول بمبدأ الفرد، من أجل الجماعة، كنتُ أنظر إليها مندهشةً، فاعرة فاهي، أحملق في هذا الدرس المجنون بكل المقاييس، هذا العنوان الخارج عن الأطر الإنسانية، والذي يعني البشاعة، بكل تعريفات العنف النفسي والجسدي داخله ..

هشّت بالعصا على مرفقي، قائلة لي بلهجة عربية:

- لشو فاتحة فمك يا ستي؟ ليش ما جرتي يعني؟ أي راح تجربي، وتحكي عن أول تجاربك هون.

نظرتُ إليها ببلادة، ولم أرد، فالرد يعني الاستفزاز، والاستفزاز يعني ردود أفعال في غير محلها لكن هذا لم ينجنني من المكر عندما وجدت نفسي أمامها وجهًا لوجه، بعد انتهاء محاضرتها، قائلة لي:

- وقفي عندك!

توقفتُ مكاني، نظرت لها بهدوء، فقالت لي:

- بالمرّة الجاية شاركينا رأيك، وجهزي أسئلتك بخصوص
الفداء.

ذهبتُ مسرعةً الخطى نحو السجن، كان في النهار غرفة معيشة،
وفي الليل سجن، والسبب أنهم يحكمون السيطرة على المكان، فيبدو
سجنًا داخل سجن، داخل سجن آخر، وذلك يعني سجننا نحن، محاط
بمبنى، والمبنى أيضًا محاط بمبنى، وقد شاهدتُ ذلك بوضوح في النهار.

بعد أيام طالت، وجدت نفسي طيبة بدون شهادة، أسهمُ في إنقاذ
المقاتلات من عمليات الإجهاض، وأتوسّل إليهنّ ألاّ يخبرن أم أحمد،
وفطوم أنني ضد الإجهاض، كنتُ أساعدهنّ على تجاوز الأمر،
شاهدت إحداهن تنتحر، وتشنق نفسها بخيط من حمالة صدرها، كان
الأمر مروّعًا، حين أتى بعض المجندين، وحملوها وراء ذلك المبنى،
رموها في الحفرة الكبيرة، مع باقي الجثث الملقاة قبل أيام، وحين تمتلئ
سيقومون بردم التراب عليها.

سمعتُ من إحداهن أنّ هناك مهندس اتصالات، قام بتشغيل
الاتصالات في المنطقة، وتقوية الشبكة التي صنعوها لأنفسهم، عرفت
أنه عمر، وأنها فرصة جيدة حتى أخرج شريحة الهاتف وواجهته
والبطارية التي أُخبّئها في شعري، لأتصل وأحدّد مكاننا.

وفي الليل وبعد أن خيم ستاره كثيفاً، قمتُ بترتيب الأمر، وفتحتُ الاتصال، ما إن عمل الهاتف، حتى حددت موقعنا على خرائط جوجل وأرسلته في رسالة عبر بريدي إلى الهلال الأحمر، ثم عدتُ وأخبرتهم في ثلاث رسائل خاصة، عن إحداثيات المكان والعدد، وأنا في خطر شديد؛ لأن هناك عمليات ذبح، أنهيتُ ذلك - وأنا أسأل الله ألا يتأخروا عنا.

يُقال إنَّ هذا المكان هو الخامس للمجموعة، فالجيش الليبي دحرهم للوراء كثيراً، وخسروا معدات، وأجهزة، وذخيرة ومقاتلين، وهم الآن يندثرون تلقائياً، وكنتُ أعلم أن بنغازي في كل يوم تزداد صحة وقوة.

شعرتُ بمدى التعب الذي حاق بي، كان الليل طويلاً، باهتاً ومستغرقاً في أزمنة تتردى للوراء كلما ذهب، عاد بصباح قاتم وشاحب، حتى ظننتُ أنَّ الأزمنة لها فعل التماهي، والتغير بحسب تلون جلد الظروف، فثمة ليل سعيد في ظروف مفرحة، وثمة ليل حزين في ظروف كالحلة.

ترقق دمعي، وغبتُ عن مرأى بصري، تراءت لي فتاة قادمة عبر سراب الليل، كانت طويلة، يافعة، بطنها يتكور عن جنين يوشك الولادة، شعرها مناسب على كتفيها، عيناها حزيتان، كفاها في طول وجود كورقة شجرة، تصلح لأن تكون عُشاً.. نظرت إليها بأمل، تقدمت نحوي وهي تربت على يدي، وتمسح على رأسي، سمعتُ بحة صوتي تقول لها:

- إناث، هذه أنت؟
 - سمر، أنا كل الإناث حولك، لا أتخلى عنك وعنهن.
- قلتُ في جزع:
- إناث، لقد ذبحوا الأمومة في الأرض، ماذا أفعل؟
- كنتُ أبكي بسخاء، وكانت تلتقط دموعي، وتضعها في أصيص تراءى لي بجانبها.
- يذبحون الأمومة، ليتحول العالم للذكورية، سمر لا بد أن تنتصر الأنوثة، ويعود القطب الموجب من أجل الحياة، لن يكون الكون بدون الإناث.
 - إناث، لماذا يفعل الذكور ذلك؟
- ردتُ في هدوء:
- إنه الانحراف عن مسار البوصلة، لقد أُصيبوا بالعمى، وبعضهم نال منه المرض، في عقله فصار يغتصب، ويقتل، ويذبح، ويستخدم العنف.
 - هذا مرض اجتاح عقول الذكور، لطالما كانت النساء قائدات شعلة النور.
 - سمر، لا تتوقفي عن مساعدة النساء، نحن نحتاج لكل أنثى قوية.. لا تضعُفني.
- بكيتُ كثيرًا لديها، وأنا أراها تتعرش بأجنحة أخرى، وأصابها تمتدُ كشموع تضيء ظلمة المكان، فيها رأيتُ الأصيص بجانبها يكبر،

ويكبر، حتى نبتت شجرةً خضراء كبيرة حولنا، كانت إناث بجانيبي
تشعل المكان نورًا، وجناحها يمتدان كطائر عنقاء، ينفض عنه الرماد،
ويتهيأ للخروج من العتمة. قَبَّلَتْنِي على جبيني، قائلة في هدوء:

- لا تجعلِي الأمومة تموت، ساعدي هؤلاء النساء، ونحن روح
الأمومة في الأرض، لن نترك الأنثى تعاني الوأد، وتموت.
أومأَتْ لها برأسي:

- هذا واجب النبيلات.. أعلمُ ذلك.

تهيأت إناث مُبتسمةً، وغادرت. كنتُ أسبِلُ جفوني، وأتوه راکضةً
في مسارب الحلم، رأيتُ أبوابًا كثيرة، فشرعت في تجريب فتحها واحدًا
تلو الآخر.

سألتُ منى ذات صباح ونحن نقوم بغسل الأواني:

- هل فكرتِ في الهروب ذات مرة؟

ردَّت منى وهي تتنهد:

- فكَّرتُ، وعندما حاولتُ، رأيتُ ماذا فعلت أم أحمد بالفتاة
العربية حلا؟

كنتُ أغسل الصحون.

فتوقفت:

- وماذا فعلت بها؟

وقفت منى بجاني، وهي تهمس بهدوء:

حالا اصطادها مقاتل، فأحضرها إلى هنا، بعد التعارف على الإنترنت، عن طريق مطار بلادها، ثم جاءت إلى هنا في سيارة، قال لها تعالي وفي قرية أهلي سأزوجك، حضرت البنت وتزوجها في القرية التي نحن فيها الآن.

كنتُ واقفةً أستمعُ إليها ذاهلة، أشهق من هذا السيناريو غير المعقول، وواصلت الاستماع إليها: - ثم؟

- وجدت نفسها مع زوجها أبي يزيد، وطبعًا يحقُّ له ولها أن يحتفظا ببعضهما البعض، في حال وجود مجاهدات يكفين للمقاتلين، مرّت أيام، ووجدت نفسها تجاهد معه، عندما خرجوا ذات غزوة، وقرروا اصطحاب المجاهدات معهم، بدون مراعاة لعقد الزواج.

- لا بد أنها وجدت نفسها تقتل الناس و ...

قاطعتني منى في هدوء:

- سمر ليست هذه المشكلة عند المجاهدات، إنه الشعور بأن الواحدة منهنّ تُشبه الحيوان، وتعرض للاستغلال الجنسي، وتُحمل كقطة سائبة في الشارع، إنه سلبك من مشاعرك، واستلابك منك موضوع كبير.

كانت منى تبكي بشدة، دموعها تنهمر كمطر يعجز عن التوقف، ضممتها لصدري، وأنا أربت على كتفها.

ثم استمرت قائلة:

- حاولت حلاً الهرب عبر سيارة مسلحة، لحقوا بها، أعادوها، وضربوها وسلموها لأم أحمد.

شددتُ على يد منى، ثم قلتُ لها:

- وبعد ذلك؟

جهزتها أم أحمد للانتحارية، لغمّتها في سيارة مفخخة، ثم ربطتها في السيارة عند المقود، وضعوا رجلها مربوطة على دواسة البنزين، عند المكان المستهدف، ثم فجروها هناك. آه، ماتت بحسب قانون الفداء.

انتهت منى، وعدتُ أسأها:

- ولكنك لم تجيبي عن سؤالي، هل حاولت الهروب سابقاً؟

تنهّدت منى:

- حاولتُ، وعدلت من شدة الخوف.

- كيف حاولت؟ هل توجد ثغرة في المكان؟

نظرتُ لي منى بخوف، ثم قالت وهي تشيح بوجهها عني:

- يقولون، هناك ثغرة وراء المقابر الجماعية، هناك سياج من سلك شائك، من الممكن أن يمر منه أي شخص.. ولكن كيف يصل إليه؟ المسافة طويلة، والمقابر كثيرة ومخيفة، والرائحة والدود، والمطاردة إذا نجوت منها، وهذا مستحيل.

شوقتي منى للسؤال أكثر:

- هل هذا مستحيل فعلاً؟

قالت منى:

- اسمعيني يا سمر، إذا فكرت في ذلك، فكري في الخطوة التالية، أن تتحولي لانتحارية!

غادرت منى وهي تُحذّرني، فمن الواضح أن المكان محاط بهم، نتجول هنا بحرية داخل ثلاثة مبانٍ، محاطة بجنود وجنديات، يطوقوننا دائماً بدائرة الحضور، ويدفعوننا للانسجام في العمل معهم، حتى ننضم عن طيب خاطر، ورغبة وانتماء.

الشرطيات هنا مواطنات من الدرجة الأولى، كالمقاتل تماماً، هن زوجات لكبار الشخصيات في التنظيم، وهن عظيمات بشدتهن وقويات، وفخر للتنظيم في الحفاظ على استمراريته وقوته، شاهدتهن وكن شرسات.

كانت ليلة قاسية، عانى فيها عمر ألماً برأسه ومعدته، تعرّض فيها طارق لإصابة من مقاتل ركله في بطنه؛ بسبب تأخره في حقنه بالمسكن، قام طارق بعلاج بعض المقاتلين، ثم قام بإبلاغهم أن هناك مُجَنِّداً حالته خطيرة، ويحتاج لتدخل جراحي، فجاءت سيارة بعد ساعة لتنقله إلى جهة ما، لا بد أن هنالك أماكن يذهبون إليها - في مثل هذه الحالة - ولا بد أن ثمة من يتواطأ في علاج مقاتل، يقتل شعبه بلا تمييز.

نام عمر على مرتبة ملقاة على الأرض، بطريقة فوضوية، لم يعد يهتم بشيء، فكل رحلاته مزورة بالحلم الجميل الذي لم يأت، شعر بأنه شخصية افتراضية، تحلم في عالم كاذب وكبير، عالم يتشدد بأنه يمكنه أن يكون مثاليًا، ويمكنه أن يمتلئ بالإنسانية، لكنه يئدُ ويقتلُ أول ما يقتلُ الإنسان.

عاد برحلته لسنوات مضت، سنوات الجهل والتخلف، سنوات الحرب والقتل التي تلاحقت تباعًا على شعب ليبيا، سنوات المعتقلات التي تكدّست فيها جثث الليبيين؛ لتكون تلالًا من حزن، تشكلت تجاعيدها فوق وجهه، وملامح من هم في جيله، سنوات جسدها حرب الطليان وحرب تشاد، والتأخر عن ركب الدول بعد فوضى الربيع المرتبة.

لا بد أنه يملك الحق في الدفاع عن تراب ليبيا، من كل هذا السواد المحيق بها.. إنها حربه الطاهرة والشريفة.

طاف بخياله بين جدران سجون الطليان، وفيا لارجو، وفاذا، وبين وجوه ومواقف دارت بها ذاكرته بذلك الزمن القديم، حتى لاحت له صورة ذلك الجندي التشادي، الذي غرف من تراب بلاده غرفةً، وصرخ يقول له:

- يا ساقط أنت، يا بن الساقطة، ما تفكر تدوس أرضنا!

ثم وجد نفسه يرتبط بفتاته، وهي تحاول أن تنزع عنها ما علق بها من غبار ذلك الزمن، تحاول أن تتحرّر من قيودها الذميمة، وعادات

مجتمعها القديمة المتهترئة، تحاول أن تلتمس للإنسان في بلادها طريقنا للخلاص، وها هي تنتهي بالسجن مثلها مثله.. وكأنه قدّر لها أن تمرّ برحلة السجون؛ لترى معاناته، وتقرب من جراحه أكثر.

ترأت له هموم شعبه، والحلم بقيام الدولة، والمكابدة والصبر على المؤامرات، وعلى التغيرات التي حصلت في الوطن، ثم محاربته للإرهاب، وفقدانه للكثير من الأرواح التي دفعها رجال ونساء، شباب وشابات ثمنًا باهظًا من أجل ألا تغيب ليبيا عن الوجود.

كان صوت جمهور يرطن في أذنيه، ويجعل الحرارة في جسده تزداد شدة؛ حتى تكاد تصل للحمى، بدأ العرق يتفصّد من جبينه، ويتصبّب كالماء.

- أراك عدت يا جمهور!
 - رأيته في سجن آخر، وهذه المرة أنت مظلوم لا ظالم.
 - فما الذي عاد بك الآن؟
 - إنها دورة الريح يا سيدي، لقد حطّت هنا بالقرب.
 - أما الآن لها أن تكون رياحًا يا جمهور؟
- جلس جمهور على مقربة منه، وظلّ يتفحصه وهو نائم، ثم ردّ ببطء:

- الريح آيلة لأن تكون رياحًا، كما الكهف، وكوة النور.
- أنظنّ ذلك يا جمهور؟

- وماذا يظنُّ سيدي بيللو؟

ردَّ بيللو في وهنٍ:

- أظن أننا عالقون هنا يا جمهور، وإلاَّ ماذا تسمي معركتنا؟

- عالقون - بطريقة ما - فينا، المعارك تدور رحاها في العقول أولاً

يا سيدي!

همس بيللو بألم، والحزن يعتصر قلبه:

: قل لي يا جمهور، هل تتواطأ الشعوب ضد أوطانها؟

- وهل يحتاج سؤالك لجواب يا سيدي؟

حتى هؤلاء الذين تعثرنا بهم، وتأخرت دولنا بسببهم، هم أهلنا،

ونحن شعبهم.

- هم مواطنون غائبون عن الانتفاء، تحولوا دون وعيهم إلى

أجندة تعمل لصالح غيرها.

- ليست الفكرة هنا يا سيدي!

- إذا أين تكمن الفكرة يا جمهور؟

- الفكرة أنهم أيضًا يعتقدون أنهم تعثروا بنا.

- ما الذي يرتبونه لنا يا جمهور؟ لقد أفسدوا ربيعنا.

- ليس هذا دورهم بتاتاً، الفساد والتخريب دورنا، نحن القطيع

الحالم.

- أليس لهم دور أصحاب الفوضى الخلاقة هؤلاء؟
- بلى يا سيدي، هؤلاء أرقى بكثير مما تظنُّ، يحملون في الليل، ويقولون الحلم في الصباح.
- حدثني عن هذا الذي تسميه دورهم يا جمهور.
- يغردون على تويتر، يُصوِّتون في مجلس الأمن، أو يمنعون الفيتو، وفي أقصى درجات الفانتازيا، التي يوهموننا بها، عليهم أن يقلقوا فقط ليتغير حالنا كما ترى.

سقط بيللو أرضًا، كان متألماً، يخوض هستيريا من الضحك والبكاء في آن واحد، ربما الصورة النهائية للبرواز الذي تكهَّن بلوحته، قد جعلت من اكتمال الوطن، مجرد عملية غامضة، توقفت فيها الفرشاة والألوان عن رسم الملامح النهائية له، فلم يكن له إلا أن وقف يتشدق بزجاجة الويسكي التي في يده، ويتغنى قائلاً:

الحرب كدائرة الرحي

نحن حبوب الأرض

العالم يقوم بتدويرنا

العرب في خيمة كبيرة

والذئب في الخارج عبث بعقل القطيع

ثم قال:

- ما الذي يدور في الخارج يا جمهور؟

- لا يوجد خارج يا سيدي.
 - وأين نحن إذا أيها البائس؟
 - نحن في الداخل يا سيدي... لا يوجد خارج خارجنا.
 - هل تقصد أن الحرب تدور داخلنا فقط.
 - وستظل يا سيدي، ما دمنا حطباء للحروب الكبيرة.
 - اذكر لي السبب؟ ربما سأسقطُ من الضحك مرة أخرى.
 - ستضحك يا بيللو، فالعفنُ يرتعُ داخلنا نحن العرب.
 - ومن هم العرب في نظر العالم؟
 - العربُ، شهوة العادة السرية لكل حرب طائشة.
- دارت به الدنيا.. شعر بنفسه يتشقلب في أزمنة الريح، أزمنة تُعيد تدويره من حرب البسوس، إلى داحس... إلى التتار، إلى الاحتلال، إلى... إلى.. إلى.. إلى هذه اللحظة.
- لم يحتمل بيللو.. سقط بيللو هذه المرة مغشياً عليه في الحلم.

.....

قالت الشرطة فطوم:

- سيعود المقاتلون بعد يومين، المطلوب من كل مجاهدة أن تتهيأ لذلك.

بعد قليل كنتُ أراقبُ تحركات النساء في المكان، تبادلُ الملابس والسواك، وأشياء أخرى، جعلتُ جلدي يقشعرُ، تمنيتُ أن أكون في حلم، لا في كابوس.

كان الخوف يُلاحِقني من أي عمل قد أتعرضُ له، عودة المقاتلين من المعركة المزمعة، يعني تفرغهم لنا، يعني التعرض للذبح، لا أريدُ أن أتذكر أنه هنالك أيضًا اغتصاب مشروع، بموجب دستور ممنوح بحسب قوانين الفوضى الخلاقة التي تسود العالم، يمكن لقاضي القضاة أن يناقش مواد دستوره، ويُقدِّمني للمحاكمة بتهمة النشاز.

لا أعرفُ ما لمختلف عن كل ما يجري؟ فكل ما يجري ضرب من ضروب اللاوعي، اختزالات تطفو، وبثور وشوائب تصعد للسطح، فإذا قلنا لا بد من تنظيف القاع، ولا بد أن ننقي أنفسنا من التجربة الفائتة، فنحن إذاً لن نختلف على أننا مرضى بأمراض كثيرة، أولها الزهايمر بتهمة نسياننا أن الماضي جزء من الحاضر، وآخرها نكران أننا فعلاً نحتاج لتغيير عقولنا وأفكارنا.

لم يسمحوا لنا في صباح فبراير بتناول أي شيء، قالوا إن الموارد ضعيفة، وأنهم بانتظار تمويل كبير بعد يومين، تعايشنا على كيك مُغلَّف وشاي وبرتقال كان متوفرًا بكثرة، كنتُ أفكِّر في عمر، كم أحجاجة! كم أشتاق للبكاء لديه! كم أريد أن أنسى كل شيء وأعود لبيتي في بنغازي!

لماذا تأخروا في الرد على رسالتي؟ كل ليلة أفتَحُ هاتفي الموقوف عن الحديث بالصوت، أكتُمُ أنفاسه تحت المراتب لأقرأ رسالة، أوردًا يفيد أنهم تلقوا بلاغي، أخشى أن نعلق هنا، أخشى أن يقتلونا باسم الإنسان، أخشى أن يعتدوا علينا، أخشى أن أتحوّل إلى منى أخرى في هذا المكان، منى الجميلة الفارعة الطول، البيضاء، جميلة العينين، متى

حكّت لي مقطّعاً من قصتها، يَزْدَدُ ألمي بها، وشعوري بالدونية والظلم،
تزداد مخاوفي من أن نتحول لأشياء، تصلح لأن تكون مستعملة،
ومستهلكة في نظر الذكورية.

صدق محمود درويش حين سمّي النساء في قصيدته الجميلات
بقوله:

رَبَّاتٌ وحي قلق

نحن هن القلقات، المسكونات بالقلق، اللاتي يمضين في رحلاتهن
الموجعة، وقلوبهن ترنو للخلاص، من أقفاص صُنعت من أجلهن،
أقفاص من أجل الحد من تحليقهن، وإحاطتهن بالعيون التي تزعم
الخوف على الأنثى، بينما هي ذاتها تلك التي تبكيها دائماً.. هي ذاتها
العيون التي تَسْلُبُها حقّها في الحلم، وحقّها في حرية القرار، وحقّها في
الحد من شهوة جسدها... لقد كنا وما زلنا رَبَّاتٌ وحي قلق فعلاً.

نحن لسنا منابت شهوة للرجل فقط. إنّنا ذلك الجزء المكمل لثنائية
الحياة، ذلك القطب الموجب، وبدونه لا قيمة للقطب السالب، فالعالم
لا يمضي دون الإيجابية، ودون الأمومة، العالم سيتوقف إن لم نكن نحن
سبباً في استمرار الحياة فيه، نحن لسنا سبايا، أو رقاً، أو إساءة لذكورية
الرجل، نحن رَبَّاتُ الحقول، وسيدات البساتين الممتدة في شوارعنا
المترامية الأطراف فوق الكرة الأرضية، نحن ملكات الحداثق الوارفة
الجنان بالزهور، والنخيل والشجر، الحاملات وقرأ، الوارفات ظِلًّا،

الكبيرات عقلاً...نحن هن نحن، كيانات تصنع الجمال، وترسم
بالفرشاة أجمل لوحات الحياة.

نحن الاكتمالُ من ذلك الضلع الأعوج، الواهباتُ للولادات
الرحمية، المانحاتُ أرواحهنَّ، من أجل استمرار البشرية، الناسياتُ
أحزانهنَّ من أجل ابتساماتٍ كونية، الباقياتُ رغم الحروب الذكورية،
النخلات الباسقات، أوتاد هذه الأرض، والرحمة الإلهية.

كان نومي عميقاً من الإجهاد حين شعرت بيد تهزني بقوة، فتحت
عيني فزعاً، آه هذه منى، ما بك منى؟ كانت تنُّ وتبكي، طلبت منى أن
أنهض قائلة:

- سمعتُ أخباراً سيئة!

نهضتُ بسرعة، قائلة في نفسي ربما هي في صالحنا:

- ماذا جرى؟ ماذا هناك يا منى؟

جلست منى قريبة منى وقالت:

- زوجي استشهد في العملية.

- آه يا منى، أنا آسفة... هوّني عليك.

ارتمت منى في حضني، وهي تبكي، وتشكو قدرها وقهرها.

كنتُ في موقفٍ صعبٍ وغريب جداً، فالذي تقول عنه منى
"استشهد"، وتراه في رؤيتها شهيداً، من جهة تفكيرى أنا، أراه قاتلاً،

يذبُّ الناس بحجة تطبيق الشرع، وإذ أنا هنا في معقله - ليس ثمة شرع في قوانين الجهاد والنكاح، والعلاقات الشخصية، إننا في مخاض أفكار فوضوية، نحو اللا منطق.. نحو (مغولة) الإسلام، و(تتريه) النصوص القرآنية.

أما كونها إنسانة فأنا أشفقُ عليها وأواسيها، ليس لخسارتها زوجها، ولكن للابتلاء الذي ابتلاها الله به، ولهذا القهر الذي تقاسيه، أنثى جميلة مثل منى، وارفعة معطاءة، نخلة مسختها الأيدي، والقوانين العبيثة، فمتى تعبر إلى جهة السلام؟ ذلك الذي تحتاجه إنسانة لطيفة؛ كي تهدأ وتهنأ، وتشعر بالأمان.. منى ضحية تثير شفتي أكثر مما يجعلني ذلك اتخذ منها موقفاً، كونها تبكي على مقاتل في عقيدته يرى أنه صاحب قضية.

حقاً، إنَّ الحروب خربت عقول البشر.. .

بعد قليل هدأت منى، فسارعتُ بالقول بقلق:

- هل عاد المقاتلون؟

ردَّت منى:

- لا، عادت سرية الاستطلاع التي تسبقهم، قبل الوصول لمسح الطريق.

- متى سيكونون هنا؟ الليلة؟

قالت منى:

- لن يأتوا قبل تأمين الموارد الغذائية، ولهذا أبلغت السرية، أن الموارد ستصل بعد يومين، فقد يأتون في المدة نفسها.
- حسناً يا منى، اهدئي، هذا هو قدرك، ولكن هل ستزوجين رجلاً آخر؟

ردت منى في خنوع:

- لهذا أنا أبكي يا سمر، هذا هو سبب بكائي.
- مقاتل آخر بعد استراحة، ما إن يموت المقاتل يرثك صديقه أو صاحبه أو مديره، أشعر بالخزي.

تأسفت لوضع منى، وأصابني الرعب من فكرة عودة المقاتلين للموقع، هذا يعني حصول أي موقف من هذه المواقف معي، إن هذا ارتباك كبير، الفكرة غير مقبولة بتاتاً، وتُصيبني بالجنون، أفصل أن أموت على حصولها معي.

فلم أجد بداً من أن أقول لها:

- ارتاحي الآن واهديني، فلعل الله سيحدث لك أمراً.

أما عني ففي داخلي بركان ثائر، فُوّهته بدأت تنفجر، فقد بلغ الغضب مبلغه عندي، وأصبحت لا أطيق هذا المكان، أزداد كُرها وعدائية له، وإن كان الموت حقاً علينا، فسوف أختار موتي بطريقتي، نعم سأختار موتي بدلاً من أن أختار حياة أعيش فيها خائفة ذليلة، أمة للشهوات، خادمة أفكار سوداوية، تحتاج بشرها أعشاش الحياة.

إن قُدر لي سأقاتل بقيمي ومبادئي، ولن أهب نبالي وسهامي الخيرة سوى للإنسان، وللخير ولما تعلمته مع مجموعات الهلال في بلادي.... هذا هو خيار النبلاء، وخيار الفارسات الحقيقيات، اللاتي واجبهن أن يحملن شعلة النور، نحو طريق آمن لآخر النفق المظلم.

وقررتُ قبل أن تبدأ المتاجرة بي، وتخييري عند عودة المقاتلين، أن أسبق أنا الخطو، وليكن ما يكون.

وفي ذات الليلة، سألت منى عن مكان المعدات الطبية، التي يتم تخزينها، سألتني: لماذا؟ فتعللت بأني أريدها لعمل جراحة في الغد، قالت لي: إنها بالغرفة نفسها التي يتم فيها علاج النساء، ولكن الباب الذي بظهرها، لم أكن أعلم بوجود باب بظهر تلك الغرفة.

كان الوقت قرابة العشاء تقريباً، لا أذكرُ أنني رأيتُ شخصاً يصلي هنا، فهنا لا يوجد سوى الجنس، وعمليات الإجهاض، والذبح، أجنة تموت، وأرواح يتم قبضها نيابة عن عزرائيل.

كان الباب موارباً - حين دخلت - وجدتُ هنالك بعض الأشخاص، يقومون بجلب أدوية، تقدّمتُ قليلاً، وكان أحد المجندين يقف عند الباب، أه ليتني لم أتسرع في الحضور!

- شنو تبي من هنائي يا أختي؟
- أني نبي شوية شاش، ومقص طبي، ولاصق جروح، ونبي مخدر موضعي، وكان عندكم مشارط.

- شنو في؟ في وحدة عندها عملية تنزيل؟
- لا، ولكن قبل أيامات صار موقف لوحدة وما لقيت جنبي شي.
- أي باهي باهي...توا نعطيكمن منهم.
- انتظرت عند الباب، وكان المجند شخصاً طويلاً، يرتدي قميصاً
بُنِيّاً به مربعات حمراء، وبنطلون جينز، كنتُ أظأطى نظري للأرض
عندما شعرتُ به يُلامسُ ملابسي، أقشعرُ جلدي، ووقف شعر رأسي
تحت الإِشارب، تراجعَت للوراء، ثم قلتُ له:
- شنو في يا خويا؟
- ردَّ بخبث:
- ما في شي..عجبتيني؟
- طار صوابي، وشعرت بأن لحظة اغتصابي اقتربت، فقلت له
بسرعة:
- يا ريت تبعث الحاجات، لعندنا في المبنى.
- حاولتُ الابتعاد عندما لحق بي.
- أمسكني من يدي بشراسة ثم قال لي:
- لما يرجعوا من الغزوة، توا انجيبك غضبن عنك!
- هربتُ بسرعة أمام ضحكاته العالية، وشراسة قوته، وفجور
أخلاقه.

قضيتُ الليلة صاحية، لم أنم ولم أستطع أن أهدأ، أخرجت هاتفي المخفي، أشعلته بهدوء، آه لم يردوا، أكادُ أشك في أنَّهم لا يقرؤون الرسائل، بل لا يهتمون بنا، كتبت رسالتي التي شعرتها رسالة ما قبل الاغتصاب، ذكرت العودة من الغزوة، ذكرت نفاد الموارد، ذكرت المكان بحسب جوجل، لم ترسل الرسالة الأخيرة، جنَّ جنوني، فقدتُ أعصابي، عدتُ للرصيد فوجدته صفرًا!

هل إذا هربتُ نحو المبنى، الذي يقطن فيه الرجال تحت الوصاية، قد أنجو؟ قالوا إن خلفه مقابر جماعية، ولا بد أن ثمة مهرَّبًا منها إلى الطريق؟ هل إذا اختبأتُ في سيارة لن ينتبهوا لي؟ أم أنني سأجد نفسي وجها لوجه أمام ذئب بشري يستفرد بي، لا أعرف كيف أدافع عن نفسي، فحتى الأدوات التي طلبتها من المخزن، كان الهدف منها التغطية على امتلاكي مشرطاً ومقصاً، للدفاع عن نفسي.

تقول منى:

- الحرية التي نحصلُ عليها هنا، هي في الأصل حُرِّية مُؤَطَّرة بثلاثة أسوارٍ، تتحرَّكُ المرأة كما تشاءُ، تخضعُ لسلسلة دعوات من الشرطيات، لديها محاضرات، لديها خيارات، كل هذا كان مُجدياً في تطور عوامل الجذب داخل التنظيم، لم يعترضوا على خياراتي، ولا خيارات عمر وطارق، المتورطين في المعاناة، إذ هنالك جرحى كُثُر، ومعاملتهم حقيرة.

تحسستُ بيدي باقي الأشياء التي أخفيتُها في مجال الزنار الداخلي بينظلونني، أخرجتُ العيدان المدبَّبة، هي جيدة للدفاع عن النفس،

ويمكن أن أقتل بها أي شخص يقترب مني، ويمكن أن أقضي بها على نفسي - إذا لزم الأمر أن أهرب بنفسني - سالمة إلى الموت..

كان خيار الموت شريعاً في تقييمي لفعلي.. عندما يكون الموت بالانتحار حلاً للنجاة من حياة الدُّل - وسلب الجسد قهراً وقسراً، فإنه يطهرني من إثم الانتحار، وهؤلاء النساء المغلوبات على أمرهن، واللاتي فقدن خياراتهن، لم يعد شعورهن صالحاً لحياة نقية وصافية، ويبدو أنهن فقدن قدرتهن على أن يكن طبيعيات، هادئات وسعيدات.. فقدن مخزونهن من الفرح والسعادة، فقدن قدرتهن على الضحك من أعماق قلوبهن.

- تقول أم أحمد: عليكن الاستعداد لعودة المقاتلين من الغزوة، وطهو أفضل ما لديكن، وتقول لُكنَّ أن محاضرة اليوم تأجلت، احتفاء بعودة جنودنا الأشاوس وسلامتهم.

تلت هذا البيان خالدة، كانت تقف وقد مدَّت طولها، وقرأته بصوت عالٍ، جعلت كل من في السجن تُنصت لصوتها، فاليوم سيتمَّ حسم أمرهنَّ، خاصة الوافدات الجدد، وليس ثمة خيارات إلا الزواج، أو القسم (أ).

كانت خالدة قد أعلنت تركها قسم (أ) وانضمامها، بعدما استطاعت إسقاط الجنين، شعرتها أفضل وضعاً وهي تقرأ البيان

بصوت جهوري، أقنعت به أم أحمد التي بقيت تُحدِّقُ إلى وجوهنا بغرور
وتعالٍ.

نظرتُ بسرعة للساعة كانت التاسعة صباحًا، لا بد أننا في منتصف
فبراير الآن، هذا اليوم تأخرتُ في الصلاة التي كنت أنجزها في غرفة
التمريض، مخافة أي تعليق، أو رد فعل غير مفهوم التفسير.

يجب أن أخرج للحجرة التي أعمل بها، سأظاهر بأي عملٍ إلى
حين الدوران خلفها، والحصول على ما طلبته أمس، استجمعتُ قواي
وذهبت للحجرة، كانت ما تزال فارغةً، قابلني صندوقٌ صغير،
أسرعتُ إليه فوجدتُ به ما طلبته أمس من المجند، يبدو أنه وضعه هنا
متوقعًا أن أجده صباحًا.

أخذتُ المشرط والمقصَّ والشاش في جيبي، كنتُ قد أعددتُ من
العيدان القصيرة حزمة مربوطة، بحيث تؤذي أكثر مما قد تكون فردية.

فكرت في بهيجة، ستكون غارقة في أعمال الطهو الذي طلبوا منا
إعداد أفضله، هل أساعدها؟

عرجتُ فورًا على مكان إعداد الطعام، ويقعُ في الخلاء قريبًا من
الخطب، وفيه أنبوب يبتُّ الماء، ممدودًا من أرض زراعية قريبة، وعلى ما
يبدو استهلكت الجماعة الكثير من محصول الفواكه والخضراوات،
اقتربتُ منها، شاهدتها ذابلةً، والحزنُ يطلُّ من عينيها، عندما سلَّمتُ
عليها بكتٍ، وبكيَتْ هذه النهاية.

كنتُ أعرف أننا خائفتان، وهذا الشعور مررنا به عندما عَلِقْنَا.
أعرف أن كلينا جاءت من أزمنة الفَقْدِ، وها نحن نلتقي لِنُجَدِّدَ مواعيثنا
فَقَدْنَا لأحبائنا وأهلنا وأزواجنا الشرفاء، أعرف أن كلينا نُحِبُّ جراحها
التي لم تلتئم بعد، وتحاول أن تحتاز هذه المحنة، كما يليق بالنساء
الباسقات الفارهات.

- سمر يا بنتي انتبهي لنفسك، وحاولي تخلصي روحك.

لأول مرة تقول لي بهيجة يا بنتي، وكأنها تعرف أنني في هذه
اللحظات، أفتقدُ مثلها حِصْنًا آمِنُ إليه، كانت بهيجة كبيرة في نظري
بفعلها هذا، فهي أيضًا خائفة وفاقدة زوجها، لكنها كإنسان حقيقي
تُؤَثِّرُنِي على حاجتها تلك.

- بهيجة، أنا خائفة من الاعتداء والاعتصاب، ونفكر نهرب، أو
ننتحر، قبل وقوع الفاس في الراس.

لم ترد بهيجة، ربما لأنها تعلم أنه خيار صعب، ومُرُّ الأمرين أمرٌ.
سألتني:

- سمر هل راسلت واتصلت بيهم؟

طأطأت رأسي للأرض، وقلتُ لها - وأنا أحاول أن أحمل معها
القدر الكبير - الذي تحمله:

- راسلت واتصلت لم يردوا.. الرصيد كمل وخلص مني.

توقفت بهيجة قائلة:

- باهي شغلي خدمة ادفع عني ثمن المكالمة.

توقفت قليلاً، صحيح تذكرتها، كيف فاتني ذلك؟ لكن هذه الخدمة تنفع في حالة الاتصال، لا في حالة الرسائل.

بقيتُ مع بهيجة في إعداد الطعام حتى الرابعة عصرًا، عندما بدأت مجموعات المقاتلين تتوافد على المكان، عرفتُ ذلك من إطلاق الرصاص، وسمعت رصاصات ثلاث، ثم تلاها تهليلٌ وتكبير، بصوت جهوري، رأيتُ بعض الشرطيات يغادرن المكان، نحو بوابة المبني التي قبل هذا المبني، كان قلبي يخفق بشدة، كطبول قرعتُ بداية الحرب.

إنه يومنا.. يوم الفارسات اللاتي يرفضن أن يقدمن أجسادهن كأضحية للذكورية العمياء. الذكورية التي خرقت كل قوانين الإنسانية، وفَضَّت مواثيق النساء وكرامتهنَّ من أجل شهوة الجسد. الذكورية التي دمرت بقادتها الحمقى كل أعشاش الحياة. الذكورية التي نشبت أظفارها في جسد الإنسانية فخلقت لنا الحروب، وأنتجت الفقر، وفَرَّخت الجزارين الذين يختصرون رحلاتنا، ومسيرات أعمارنا في لغة السكين، الذكورية التي انبثقت منها الأفكار المتطرفة، وأحالت الحياة على كوكبنا إلى أقطاب متنافرة، وصراعات متباينة، ومعارك مختلفة، وأراضٍ محروقة، وبيوت مُهجرة، وأعشاش فارغة. الذكورية التي

جعلت المدن عبارة عن شوارع ميتة، ومدارس بلا طلاب، وألعاب بلا أطفال، ومنبهات ترنُّ في غرف غير أهلة بالسكان، دول بلا مواطنين.

.....

قَطَعَ استرسال أفكارِي، صوت الشرطة فطوم قائلة:

- هيا للجمع في السجن.

نظرتُ إليها في رجفة:

- هل سيتم إغلاق الباب علينا؟

- لا، إنه وقت المعاينة، ستختارين زوجك ويختارك، أو اختاري

قسم (أ).

نظرتُ إلى بهيجة في صمتٍ وبكاء، ثم قَبَلْتُها وقلتُ لها:

- أبلغني سلامي لعمر، لطارق، لبنغازي، لليبيا، لكل أنثى خانها

توقيت الفرسان، وتخلَّى عنها الزمن.

حضنتني بهيجةً في صوتٍ يرتجف، قَبَلْتُني قائلةً لي:

- لكل ساعةٍ فرسانها يا بُنيتي!

غادرتُ تحت نظرات الشرطة فطوم، ولما دخلتُ السجن هذه

المرة، لم يكن من الممكن أن أخرج، لأنه سيتم الانتقاء، والتفضيلات،

والخيارات.

كنتُ أسأل مني التي تنتظر مصيرها بعد وفاة زوجها، فقالت لي:

- بعد الانتقاء والاختيار، يحدث ما يسمى بالمشاورة، وفيها تتفقين مع مَنْ يختاركُ على مهرِك، وتنتظرين الليل حيث يبدأ أول لقاء.

(آه مهر؟ يا لترهات هذا الزمان)

- وَمَنْ يخطبوننا يا منى؟

- تحضر فطوم أو أم أحمد، أو أم حاتم، وتتم الطلبة منهن جماعياً، وفي الليل تُجهزين نفسك للزفاف.

بقيتُ في الانتظار، حتى دلف إلى السجن عددٌ من الرجال الذين طالت شعورهم، ولحاهم، لم أُمَيِّزُ شيئاً، كانت رؤيتي غائمة، وكنتُ أتناثرُ أشلاء، بين هذه اليد وتلك، أحدهم يُقيمني، وآخر يرُمُقني، وآخر يُلاقي زوجته، لا أذكر شيئاً سوى كلمات ترطن بها أم حاتم، وتتكلم مع المقاتل الطويل الأبيض، ويقول لها: نعم هي، ثم تقول لي كلاماً، وأهزُّ لها رأسي موافقةً، ثم تعلق: توكلتُ على الله، أمسكتُ بيدي ووضعتها في يده، وقرأتُ كلاماً لا أذكره، وقالت أشياء لا أعرفها، ثم زغردت زغاريد، تُشبهُ نعيق البوم في ليلة يُفتقد فيها النسر، ثم مدَّ يده إلى جيبه، وأخرج منه لفافتين من النقود، أعطاها واحدة، ورمى لي بالأخرى، تَلَفَفْتُها يدي من مفاجأة حركته.

ترأى لي وجه عمر زوجي، لم أستجمع كثيراً من قواي العقلية، والجدسية - لأكون قوية على قدر موقف كهذا.. موقف من العيار الثقيل الذي يُصيب الرأس برصاصة أخيرة.. سقطتُ مَغشياً عليّ، غامت الرؤية، وغابت أشياء أخرى في هذه الساعة.

هل بموجب هذا العقد الشفوي أنا مطلقة من عمر؟ هل أدخل في
العدة بضع ساعات، ثم أكون لشخص آخر؟ ما هذه السوق؟ بل ما
هذا التسوق بأجساد النساء؟

بعد هذه المعاينات التي تُشبهُ معاينة قطعٍ من الشياه لذبجها يوم
عيد الأضحى، بقيَ لنا أن نتجهز للساعات المنشودة كرهًا، لا طوعًا،
يذكرني ما فعلوه، بما يفعله الرجل حين يُعاینُ شاةً عند الشراء، عوراء أم
عرجاء، كبيرة أم صغيرة، سمينة أم رفيعة، بيضاء أم سمراء؟ كم هذا
غريب! أحيانًا نتشابهُ وإياهن في كوننا ضحايا وأضاحٍ.. ليس ثمة فرق.

سمحتُ فطوم للنساء بالخروج لجلب الماء الساخن، والتزيين
بالعدة التي جلبها هنَّ المقاتلون، بعضهن يستعدُّ في حزن، وبعضهن
سعيدة فعلاً، بعضهن يتهربن، وبعضهن يتهامس لبعض، تقول
إحداهن وهي تشير لنقطة تبعدنا قرابة مئتي متر:

- إنه ثمة صراخ لنساء في القسم (أ).

خرجتُ للحجرة التي أقومُ فيها بتمريض النساء، حين يئنُّ الموعد
ستخبر النساء الرجل الذي تزوجني، أنني في الحجرة هنا - ولم يكد
يمضي وقت طويل، حتى ولجَ أحدهم للباب، وكان يسأل:

- أأنت سمر؟

نظرتُ إليه عبر الإضاءة الخفيفة ثم قلت:

- هي، لماذا تسأل؟

- أنا الذي عَقَدَ عليك قبل قليل، ألا تذكرين اسمي؟
- ارتجفَ جسمي، ثم قلتُ له بارتعاشٍ:
- لا، نسيت.
- دَخَلَ الحجرة، ثم قال بصوتٍ مسموعٍ النبرة، وبثقةٍ زائدة:
- أنا عبد السلام.
- سمعتُ صوتي يقول اسمه:
- أيُّ عبد السلام؟ وما هذا اللطف المزور؟
- واجهته، وكنتُ أنظرُ إليه، في ثقةٍ وجديّةٍ ثم قلتُ له:
- أنا سأبقى هنا يا أخي.
- ردَّ بشراسةٍ، وأمسكَ بيدي حتى شعرتُ بالدم يتجمّد تحت قبضته:
- أنا لست أخاك.. أنا زوجُك، تعالي هنا.
- لم أتمالك نفسي، حين باغتني وجرتني وراءه، رماني على الأرض، ثم أقفلَ باب الحجرة، وأطفأَ النور الخفيف المتوفر فيها، مكتفياً بإضاءة الخارج، بقيتُ مكاني وقد تحسّستُ سلاحي الصغير، المكوّن من عيدان تنظيف الأسنان، المديبة الطرف والجاهزة لنشب أظفارها، جرتني في وحشيةٍ سافرة إلى السرير غير المرتب، شعرتُ بشراسة الموقف، وبملاسي قد بدأت تنشقُّ عني، كنتُ أقاوم في ضراوة، وأدفعُه عني ما أستطيع، حتى لطمني على وجهي، وبدأ يصبُّ في وحشيته وجنونه

غضبه فوق جسدي، ارتبكتُ كما يرتبك غزال في البراري الواسعة،
غزال سرعته تفوق سرعة الأسد، لكنه يخشى أن يتغلب خوفه على
قدرته في العدو، فيكثر من الالتفات للأسد؛ حتى يسقط بين فكيه.

كنتُ أشعرُ ببعض الدم ينفر، من كتفي إثر نشب الأظفار فيها، كان
اعتداء سافراً ووحشياً، غالبتُ فيه نفسي، وتحاملتُ على قهري، حاولتُ
أن أدفعه عني، كان ثقيلاً ويفوق توقعاتي بالقضاء عليه، كان وحشاً،
همجياً، أو لعله ذئب جائع، أو ربما ابن آوى انكشف وجهه حين تاه
القطيع، لا أعرف سوى دموع القهر الآن، الشعور بأن ثمة شيئاً يُسلب
مني عنوة، أو قسراً، أو كرهاً، مرة، مرتين ... دون رحمة أو شفقة،
جزمتُ معه أن الهدوء الذي يسكن هذا المكان، وطريقتهم في إقناعنا،
تخفي وراءها هذه الوحشية.

سمعتُ هذا الذئب يعوي ويقول لي:

- أنت ملك يميني، أنت زوجتي، إياك والتخاذل، فهذا جهاد!

لم أستطع أن أصبر، كانت الدموع تنفر من وجهي، اللهاث يسيطر
على قلبي، القهر يحكم مزاجي، الدونية والشيئية تُترجمُ رحلتي المُعدَّبة،
في وحشية الزمان ضد الأنثى، في الانتهاك السافري، أوجز طلاقات
رحمته، في صرخة عميقة، لفظت من قلبي كل أساليب التفاهم والحوار،
مع مجتمعات تزرع تحت سلطة الكبت، وتُفجر غضبها في إنائها فقط.

غالبتُ نفسي، وسرعان ما جذبتُ سلاحي الصغير، تلك العيدان
المدببة غرزتها بحقدٍ وغُلٍّ، في عنق عبد السلام، ورشقت وراءها المقص

في المكان نفسه، صدمتُ الرجل، نظرتُ لي مصدومًا، ركلته، فسقطَ ثم درتُ حولي، لم أعرف ماذا أفعل؟

أخافُ أن يغلبني فيقضي عليّ، ركلته في صميم رجولته، ثم حاولتُ فتح الباب، أمسك بقدمي صرختُ، فجرّني نحوه، ضربني بشدة على وجهي، ضغطتُ على العيدان المنتصبة في رقبته، بدأ الدم يفور، دسستُ بخفّة يدي في جيبيه، لمستُ مسدسه، ضربته به فوق رأسه، لم أعرف كيف أقتله، لم أُميّز ماذا فعلت له، خفت من سماع دوي الرصاص، إنه يترنّح، يجب أن يغمى عليه، لأعرف كيف أهرب، فجأة هجمتُ عليه بوحشية، وصرت أضغط على عنقه، وأنا أقول له:

- ما كنت عبد السلام يومًا.

فتحتُ الباب، كان الضوء خافتًا، أغلقتُ الباب ورائي، نظرتُ يمتة ويسرة، آه يبدوون غارقين في جهادهم، لا أحد شاهدي، عدوتُ باتجاه المبنى من الخلف، لأغيب عن رؤية من يمرون بساحة المبنى.

يقولون إن مبنى الرجال يبعد قليلًا من هنا، فدرتُ من الخلف باتجاه المبنى — الذي يسجن فيه عمر، هنالك مقبرة يتم فيها دفن الموتى، تهتُ في الطريق، سور داخل سور، ثم مبنى آخر، ثم رائحة عَفنة بدأت تتسرب لأنفي، رائحة كريهة، لا أعرف هل عمر بخير وهو يشمها هنا يومياً؟

عدوتُ، وعدوتُ باتجاه الرائحة، وكلما اقتربتُ منها، كانت تقوى وتزيد؛ حتى بدأتُ أتعثّر وأقتربُ من حفرة كبيرة وعميقة، لا أدري هل أجتازها أم أرتاح؟

لا، لا لن أتوقف - سأَتَقَدَّم، نزلتُ للحفرة، تقدَّمتُ ببطء، سقطتُ، شيء لزج ربما دماء، تقدمتُ أكثر، أجساد أُنْعَثَرُ فوقها، جثثُ ما زالت رطبة، ربما نساء، ربما رجال ذبحوهم، ربما أجنة أسقطوها من أرحام أمهاتهن، سقطتُ فوق جسد لزج، يقولون إنها مقابر وليست مقبرة واحدة، سأكونُ في أبعد نقطةٍ عن هذا المكان.

حفرة أخرى... مسافة.

كنتُ ألتهمُ وجه الطريق بقدميَّ، أعبرُ المساحة، وكلما ركضتُ، يلوخُ لي وجهُ أنثى تمَّ اغتصابُها، وأنثى تمَّ انتهاكُ جسدها، وجوه لإناث اصطدم وجهي بهنَّ، شعرتُ أنني أجمعهنَّ في روعي وأفرُّ بهنَّ إلى أرض آمنة، إناث تم خطفهن، وإناث تم إخفاؤهن قسراً، إناث بدون أسماء منذ عهود غابرة وطويلة، إناث تعرضن للاعتقال، ودخلن معسكرات الاحتلال، حملن الندوب على أجسادهن، وأختام الاستعمار الإيطالي فوق جلودهنَّ، إناث هن جدات وعمَّات وخالات، قاومن كل هذا التعدي السافر عليهنَّ، جعلوهنَّ مطفأة لشهواتهن، ومنفضة لسجائرهن، ما إن انتهوا منهنَّ حتى علَّقن فوق المشانق كدمى قضت نحبها!

إناث تم قتلهنَّ واغتياهنَّ، لأنهن دافعن عن قضاياهن، إناث كسلوى، وانتصار، وفوزية، وغيرهن كثيرات، أظنُّ أنني كل هؤلاء الإناث، مطلقات، وأرامل، فتيات مغلوبات على أمرهنَّ، عربيات غريبات، وحيدات.

قال لي عمر سأسميك إناث، لأنك تحملين هموم نساء كثيرات. أنا إناث، أنا كل أنثى مجروحة ومغلوبة على أمرها، أنا كل إنسانة يتم انتهاك حرمة جسدها بهذه اللحظات، ربما أنا هي منى، منى التي يرقُّ لقلبها الحجر، ربما أنا هي فطوم الشرسة، فطوم ضحكوا عليها، وأعادوا برجة مشاعرهما، فطوم خربوا لها عقلها، صارت تتقبل أن تقتل أو تذبح، فطوم معدومة المشاعر، بل فقدت معايير الأنوثة، فقدت السلامة العقلية، فقدت أمومتها من أجل شهواتهم، شرطية ضد دورها كأنثى، شرطية في يدها أن تصادر رحماً، أو تقطع حليماً من صدر أمّ، فطوم شرطية في الجهة الخطأ من الحياة.

وصلت لمنطقة الثالثة.. هي أيضاً مقبرة، رائحة عفونة شديدة، وأرض بها رطوبة، قلبي يخفق بشدة، أشعر بالوهن، هل انتبهوا لمقتل الرجل الذي زوجوني له؟ هل مازال حيّاً بعد هجومي عليه؟ هل مات؟ يا رب! هل سيبحثون عني، هل سيطلقون سياراتهم ورائي؟

الشرطيات لن يتأخرن عن إيجادني، يجب أن أتقدّم باتجاه المقبرة أكثر، يجب ألا أتوقف على الأقل بعد كيلومتر إن استطعتُ. فجأة علا دويٌّ رصاص! آه، رباه هل انتبهوا؟ لا أعرف؟ رأيت الأضواء تشتعل أكثر، رصاص آخر، أسمع أصواتاً ترطن من بعيد.

أشعر بالقلق والتوتر. هل اكتشفوا أمري؟ هل عرفوا مكاني؟ هل شاهديني أحد؟ قالت منى إنَّ حلا التي حاولت الفرار جلبوها، وجهزوها للانتحارية، وماتت هناك، حلا شهيدة، نعم شهيدة؛ لأنها لم

تخترهم، ولم تختر الشَّرَّ، حلا اختارت الطبيعة التي جبلها الله عليها، لم تتركها فطرتها تخطئ طريقها نحو الإنسان، حتى أنا مثل حلا، إن وجدوني سيختارون لي مصيراً يشبهها، ولكنهم لن يجبروني على اختيار شيء لا يشبهني.

الوقت متأخر جداً، الليل طويل، البرد شديد. الطريق هنا مسدود، ثمة سلك شائك عريض، سمعت سيارات قريبة، اندست بين الجثث، بقيت أشعر بالتعب، ربما أرتاح من هذه الرائحة التي تصبني بالغثيان، جثث لزجة ودود يتطاير فوق المكان، أف، ما أعفنه! أتقياً.. أتقياً.. أتقياً.

أتذكر عمر وهو يقول لي:

- إناث، حبيبتى أنت رائعة، قاومي، قاومي أنا معك.

هل سأموث دون أن أراك يا عمر؟ هل سأتلاشى دون أن أودّعك؟ دون أن نعود لبيتنا معاً؟ دون أن أرى بنغازي تتحرر وليبيا تقوم دولة؟ هل وهل يا عمر...؟

غفوت، تعبت، نمت، غبت عن الوجود.. تماماً.. تماماً. مع أول خيط للضوء في الفجر انتبهت، وبدأت في تمييز مكاني، وفي أي مقبرة أنا، كانت ثلاث حفر كبيرة، حُفرت مؤخراً إحداها معبأة، ربما سيتم ردمها قريباً، أختبئ في واحدة تحتوي على مقاتلين تابعين للتنظيم، فالملابس السوداء ظاهرة لي، وثمره شعور طويلة، وملامح بدأت تغيب، وتذوب تحت وطأة الطين.

سأبقى هنا لأنها مقبرة مقدسة لديهم، سأندس كيفما يتفق لي، سأتحمل ثم أتصرف، والآن يجب أن أقف، وأُتيَّن بعدهم عني، وقفتُ على طولي، ونظرت صوب الاتجاه الذي قَدِمْتُ منه، إنه بعيدٌ ولكن ليس جدًّا، لا بد أنهم يبحثون عني الآن، بين السجون والمباني، وبمكان الطهو.. آه بهيجة.. أرجو ألا يتعرضوا لها.

نظرتُ خلفي، إلى أين هذه المقابر؟ ألا توجد أرض تؤدي لأرض؟ سأَتَقَدَّم وأرى.. لا لن أنتظر تقدُّمهم نحوي، تجهزتُ للتحرك، حين رأيتُ من بعيد أجسادهم، وقد بدأت تتسحب نحو المقبرة في ثقة، رأيت ملثمين اثنين، وطيف بدين، لا بد أنه فطوم القبيحة.

تحركت بهدوء، قبل أن يتزايد الاقتراب، كنتُ راقدة على الأرض، أدور بهدوء أمامًا، كأني ملقاة، وميتة، حتى نهاية المقابر، بدت لي أرضًا تمت تسويتها.

بعد ساعة من الركض.. قابلني سلكٌ شائك عريض، نعم، أخبرتني عنه مني، لا أعرف كيف أجتازُه؟ إنه شائك وجارح يذكرني بمعتقلات العقيلة التي قرأت عنها، وكم من امرأة ليبية ورجل ليبي علق بها، العقيلة نعم، نحن الآن في عقيلة أخرى، يذبحون فيه شعبنا، ويقومون بتقييدنا، وإفناء شعبنا، لماذا لا يتركونا نعيش في سلام؟

حاولتُ العبور، يدي جُرحت، هل توجد قطعة شاش؟ وضعتُ يدي في جيبي، إنها رطبة من الدماء التي تسيل، ربطتها بقطعة الشاش، وأنا أتساءل: كيف أتقدَّم؟

ما زال الضوء يتسرب بهدوء معلناً قدوم الصباح، وهناك فرصة ما دمتُ لم أسمع صوتاً بعد. جلستُ القرفصاء، نظرتُ لتحت السلك، بدأتُ أحفرُ في الطين وأُزيحُ الحجارة العالقة به، حفرتُ، وحفرتُ، حفرتُ، جرحتُ أصابعي، امتلأت بالطين الرطب، على الأقل سأحفرُ ما يكفي لعبوري تحت السلك، سأجربُ العبور، آه لا يكفي مع أنني فقدتُ من وزني الكثير.

حاولت زيادة عمق الحفرة وامتدادها، استغرقتني ذلك بعض الوقت، ثم جربتُ المرور، بصعوبة، نعم نعم، أنا أعبرُ، أنا أمرُّ من بوابة الموت. والآن أقفُ في الجهة الأخرى، لكنني سأعدو، الأنثى التي تعدو تفوز، شاهدتُ هذا في الأفلام. كان العدو في نظري يُمثلُ الحرية، الحرية التي تعني أن (تنفذ بجلدك) من عدوك، لذلك أنت تكرس لها كامل قواك الجسدية لتستحقك.

عرفتُ أنها منطقة بساتين، وما دمتُ أسيرُ في خطٍّ مستقيم فأنا في خطر، فكرتُ وأنا أعدو أن أعبر بخط عرض وليس بخط طول، بحيث أتجاوز عرضاً مساحة المكان المقدر لمكانهم، وإن ساروا ورائي سوف يسيرون بشكل طولي، لذلك سأكون في مأمنٍ من لحاقهم بي، غيرتُ اتجاهي من الغرب، وسرتُ شرقاً، لأننا حين جلبونا لهذا المكان جاؤوا بنا من جهة غرب بنغازي.

مضت ساعاتُ وأنا أمشي، أنهكتني المشي، جلستُ تحت شجرة، والبكاء يأخذني إلى عوالم الغياب، ورحلة التعب والشقاء، سنوات من

الضياع عاشها أهلي، وقرابة عقود طويلة من العزلة، ونحن في كل مرة
نقعُ في المستنقع نفسه الذي يؤخرنا عن اللحاق بباقي الأمم.

تهبأت لي أشجار البرتقال والليمون كأشخاص، حاولت الوصول
إليها، لا لم أصل، أنا في حلم عميق وبعيد؟ ربما، غفوتُ في أثناء
جلوسي، لا أعرف كم مضى من الوقت الآن؟ كم فات من الوقت؟ وفي
أي زمن أنا الآن؟!

تجسّدت لي أصواتٌ بعيدة وهامسة وحاملة، كانت بنغازي تحتوينا
في بيتنا الصغير، وكل شيء ينسلخ عن جلده، ويعود لطبيعته، سمعت
الأصوات تقترب مني في ضبابية.

- هل نرقص سلو، أم زوربا، أم التانجو؟
- سنرقص زوربا، تعرفين أنها تتطابق معك الآن حبيبتي؟
- أظنُّ يا عمر؟
كان ينظر لي مبتسماً بكامل أناقته، وهو يدور معي بنفس الحركات،
إلى أن نختار رقصتنا الشائبة التي نعزفُ فوق ألحانها سيمفونية المنا
ورحلة شقائنا.

- عدنا يا حبيبتي، وتساوينا في رحلاتنا الموحجة... عاد كل شيء
لمكانه.

كلانا جاء من عتمة السجون. وروى قصته، فهل نتساوى في
الأقدار؟

لم أرد عليه، كنتُ مُتعبة وملاحى غامضة، في جُعبتي الكثير من الكلام، ليست قصتنا نحن فقط، إنها قصة كل الناس، كل عربي مرَّ من هنا، وكل ليبي خرج من بيته، وترك شارعَه، وهاجرَ من وطنه، إنها قصة طويلة.

جاءني صوت عمر وهو يُكرِّرُ من جديد:

- ما زلتُ أقولُ لكِ اختاري رقصتك!

ضحكتُ منه، وكان فستاني الأبيض الناصع، يروق له كعلامة للطهر والعفة، إنه فستان أول لقاء بيننا، ثم قلتُ له بعينين دامعتين:

- هل نضيف مأساتي واغتصابي إلى ثلاث حكومات، ومجلسين، وجيش، وجهاعات خارجة عن القانون باسم الدين؟

نظرَ إليَّ عمر نظرةً طويلة، كأنه يزرع بها حقول القمح في رוחي، فقال ببطء وبنصف ابتسامة عرفته بها:

- سمر، لقد عبرنا معًا منطقة العتمة، والتاريخ الأسود، أنا أتيتُ من زماني، وأنتِ الآن أتيتِ من زمنك وخرجتِ من سجنك، التقينا في هذا الزمن الثالث، حبيبتني نحن نلتقي الآن، نحن نتصرُّ على الأقل.

توقفتُ عن الدوران معه، ثم قلتُ له:

- نعم نحن نتصرُّ، لكن هل الألم باقٍ في حياة شعوبنا؟ في حياة البشر يا عمر؟

شاهدني عمر بدموع ليست لي، ولا من أجلي، فَمَنْ يعمل بالهلال
الأحمر، يتعلم أنه ليس ملك نفسه، وأنه في ديمومة للآخرين.

ثم جذبني إليه، وكأنه يرفض أنصاف الحلول قائلاً لي:

- الألم باق، الحياة مستمرة، زوربا يرقص لا يهتم، إنه يسير حيثما
نحو مساحات النور، انظري حبيبتني للنور أمامك، انظري هناك.
وأشار عمر بإصبعه.

رنوتٌ وراء إشارة إصبعه أتبعها بنظري، وأنا أدورُ معه، وقد بدأتُ
أرقصُ بين يديه رقصة زوربا، شيئاً فشيئاً صرتُ أرى الضوء يلوح لي
كلما تقدّمتنا، شاهدتُ مناطق أهلة بالنور، يجتاحها الناس، أيادٍ تتصافح،
حكوماتٍ تتلاشى، ولون الحقول بدأ يكتسح الأرض البوار، ابتساماتٍ
تغزو الأفق، كل شيء سلبي ومقيت يتلاشى، كل ما يؤرقنا يزول، بدأ
جمع من الناس يترأى لي كشعبٍ. بدأت الصورة تتضح بشدة، أطفالٌ
يتقدمون نحوي، مدارس تفتح أبوابها، شرطي في الاتجاه الصحيح،
جندي في معسكره، سياسي يعمل من أجل وطنه، ودولة تقوم على
قدميها، جوائز دولية، مهرجانات، منظمات إنسانية، هلالنا يكبر، ثم
رأيت طفلي أنا، وعمر. هناك تقف تنتظرنا عند الباب.

استيقظت بعد ساعات أثناء بُ في قلق. كنتُ مشردة، وثيابي ممزقة
من ذلك السفينة، حالتي يرثى لها فعلاً. كانت أشعة الشمس مبهرة

وقوية، تلك شمس الذروة، ذلك يعني أنه الظهر تقريبًا، خلعتُ إشاربي، ومزقته لنصفين، نصف عصبته بشدة على رأسي، والنصف الآخر جبرت به الشق الذي بدا من ثيابي الممزقة.

ما زلتُ الآن سأسيرُ فوق خطوط العرض، أنا بعيدةُ الآن عن مرماهم بطريقة عرضية، قطفْتُ برتقالة وقشرتها، قطفْتُ أخرى وقشرتها، كانت حلوة ولذيذة بطعم حرיתי الآن، نظرتُ لحذائي الرياضي لقد تحملني طويلًا هذا المسكين.

فتشت عن بطارية الشحن والشريحة وواجهة الهاتف، أوصلت الأجزاء بعضها ببعض، قالت لي بهيجة، أن أطلب خدمة كلمني وادفع ثمن المكالمة، بمن أتصل؟ هل أتصل أم أرجئ الاتصال لموقف طارئ؟ حتى أصل لنقطة أتعرف فيها على مكاني.

سرتُ مسافات طويلة، كنتُ أتوقف وأستريح لبعض الوقت فقط، ثم أوصل عرضًا، فكرتُ في تغيير مساري إلى الطول، بحيث أميلُ لأعود إلى خطي الأول الذي خرجتُ عليه، عدلت عن رأيي، فلا بد من نهاية لكل طريق.

الطرق تُشبهُ الناس، في شكلها ووصفها وطباعها .. طرقٌ طويلة تشبه أناسًا يدهم طولى في الحياة، وطرق قصيرة تشبه أناسًا علاقاتهم محدودة بغيرهم. طرقٌ تمتدُّ، وتمتدُّ عبرها سلسلة طرق أخرى، فتشبه أناسًا قضوا حياتهم في التواصل مع غيرهم، كجسور حبٍّ، وودٍّ، وسلامٍ في علاقاتهم. وطرقٌ مهجورة تُشبه أناسًا طووا أنفسهم وراء

الأبواب، فلا زوار لديهم، ولا هم يتزاورون. طرقُ مستوية خالية من المطبات، تُشبه أناسًا واضحين في مبدئهم، تعرفهم، وتحفظ طباعهم، منذ أول مرة تتعرف إليهم. وطرقُ كلها حفر، وندوب، كوجوه متلونة تتعثر في حجارتها، لا توصلك لهدف، ولا تُحقِّق لك غاية، بل تنوّه داخلها؛ حتى تنجو بنفسك منها. طرقُ يكثر قُطَاعُها، كعائلات أفرادها محتالون. وطرقُ تجدها مرصوفة بالأمن، سلسلة في تعاملها معك، كعائلات تتمنى لو تُصاهِرُها.

...

بدأ المساء يُجَيِّمُ، ماذا أفعل؟ أين سأبيتُ؟ كلما تقدمتُ بدأت الأشجار تختفي، قطفت برتقالتين، وضعتُ واحدة في جيبِي، وبدأتُ في تناول الثانية، هنا تظهر مساحاتُ مكشوفة، تتوفّر بها أعشاب طولها يصل لنصف متر تقريبًا، حشائش تصلح للرعي. فجأة علا دويٌّ طيران حربي، نعم، نعم، طائرة، طائرة تابعة للجيش الليبي، شاهدتها. سمعتها تقصف، سمعتها، شاهدتُ دخانًا يعلو. كنتُ أسمع صوت طائرة الميغ، يعلو مرة أخرى، هذه طائرة أخرى قادمة، بل إنه سرب... سرب... يا الله!

أتمنى أن يتحرّر عمر، وبهيجة، وطارق، لقد أرسلت للهِلال الأحمر أخبرهم بمكاننا، وصورت لهم الخريطة، فعلت ما بي وسعي، لا بد أنهم أخبروا عن إحداثيات المكان، سوف يحشرهم الجيش في الزاوية.

رأيتُ الدخان يتصاعد من بعيد، ودعوتُ الله أن يكون الطيران قد
قصف النقاط، التي لا توجد فيها النساء، ومباني السجن، كان المشي
شاقاً وبدأت أشعر بصعوبة في حمل قدميَّ لي، ثم لآح لي طريق عامٌّ، ناءٍ
وصامتٌ، يسيطر على ملامحه الهدوء. سأجلسُ هنا وراء هذه الشجيرة
القصيرة، لأرى لعل ثمة مَنْ يمرُّ.

الليل هنا طويل .. وبنغازي وحيدة، كحبيبٍ فقدَ عاشقه، وفقدَ
ظِلَّهُ في عوالم النسيان .. أنا هنا وحيدةٌ أعدُّ الوقت المتبقي من عمر
الدولة، أحاولُ أن أقبض على قبسٍ من نور، ألتمسُ به الطريق إلى
بنغازي.

وحيدة كبضاعةٍ كاسدة في ميناء مهجور، تنتظر أن يُطلق سراحها،
لتسير نحو موانئ تمرُّ بها رائحة اللقاء، وتعبر أرصفة الماء في فرح.
وحيدة وهذا الليل وحيد مثلي، يكتنز بين شفثيه أحاديث معبأة برائحة
الورد، تنتظر عُشاقها؛ لتكمل معهم كلمات السهر. وحيدة كقارورة
عطر اشتاقت إلى قميص صاحبها، تنتظر ضغطة أصابعه فوق شفثيها؛
حتى يتناثر رذاذها فوق جلده، فتمضي في رحلة الفرح مع الهواء جذلي
بالمرور. وحيدة كسجينٍ بين جدران تسمع أنينه، ويسمعُ رنين مفاتيح
زنزانتة، فما زال في حيرة من غيابه، إلى أن يئن له اللقاء.

لا بد أن نؤمن بأنَّ حجرًا صغيرًا في الزاوية، يمكنه أن يهدم كل ما
فوقه هكذا هي الحرية.

.....

الثالثة صباحا.

صرير آليات قادم من بعيد، سيارات، إضاءة بدأت تقترب من الطريق، هل هم مَنْ وراء سجننا أنا ومجموعتي؟ لا، ثمة جنود يصعدون الآليات، ثمة سيارات موسومة بوسم الجيش الليبي، شاهدتهم بوضوح، يبعدون عني مسافة عشرة أمتار.

أنا هنا وراء شجرة، أنا إناث الفتاة الليبية التي تحتاجُ إلى الأمن والأمان، الفتاة التي تريدُ دولةَ تحميها، وتُقرُّ بحقوقها داخلها كمواطنة صالحة للحياة، أنا هي التي تريدُ الحرية للنساء السجينات، والمغتصابات هناك، يجب إخراجهنَّ، وإبعادهن عن الصراع السياسي.

خرجتُ من مكاني، توجهتُ نحو الضوء، بدأتُ أتوسَّط الطريق وألوحُ بيدي، ألوح بشارة النصر شاهدوني، توقفت بعض السيارات، وتقدم نحوِي بعض الجنود.

أحدهم يتكلم بجهار لاسلكي:

- نقطة البداية .. نقطة البداية، توقفوا، امرأة في الطريق.

سمعتُهم على الطرف الآخر يقولون له:

- معك ... حول، حول.

- سيدي، ثمة سيدة توقفنا على الطريق.

جاء الصوتُ واضحًا وواثقًا:

- توقفوا، تحروا عنها، وعن المكان الذي قَدِمْتَ منه بحذرٍ.

تقدّم نحوي الرجل:

- مَنْ أَنْتِ؟ تعالي إلى هنا يا أختاه!

تلقّني بيده، وأحاطني جنود، نظرتُ إليهم، يرتدون ملابس الجيش، وملابس مدنية، بعضهم مواطنون التحقوا بمسيرة الشرف، وبعضهم عسكريون لم يهملوا نداء الوطن.

تُرى، لماذا لا نُصابُ بالخوف حين نرى هذه الوجوه؟ لماذا حين نُحدّقُ إلى ملامح هؤلاء الأشخاص نشعر بالأمان وبالثقة؟ ولماذا حين وجدنا أولئك الأشخاص أصابنا الرعبُ منهم؟

تذكرت كلمات بهيجة - وهي تضمّني لصدرها، وتقول لي:

- لكل ساعة فرسانها يا بنيتي.

سقطتُ على الأرض، وأخبرتهم بإيجاز مَنْ أكون، ومن معي، ومن أين أتيتُ. سرعان ما انهارت عليّ الأيدي، تُربت على كتفيّ، وأصواتٌ تتكلم وتقول:

- لا تخافي، حمداً لله على سلامتك.

أسعفوني بالماء، ودار حوار بين القادة وغرفة القيادة، كانوا يتقدّمون نحو المعقل الأخير الذي هربَتْ منه، أوصلوني بمجموعتي بالهلال الأحمر، تكلمت معهم حول ظروفنا، وصحة طارق، وبهيجة، وعمر.

سألوني: من أين بدأت الطريق؟ فشرحتُ لهم كم عدد المباني؟
وأين يقع السجناء؟ وأين يقع سجن النساء؟ كنتُ أُجيبُ عن الأسئلة،
إلى أن وصلت لختام حديثي عن العودة من الغزوة، وهروبي.

صَحَّك الجنود على كلمة غزوة، وبدأ بعضهم في المزاح،
والسخرية، ثم قال لي أحدهم - وهو رجل ستييني العمر تقريباً:

- ما أبعد مفهوم الغزوة عما يقومون به يا بنيتي! تعالي، واجلسي
بجانب أبيك، حمدًا لله الذي نجَّاكِ منهم.

هُرَعْتُ إليه، وبكيتُ بشدة لديه، كانت يده المعجونة بطيبة كل
ليبي، تُربت على كتفي، بعينين تدمعان على المصاب الجلل الذي حاق
ببلادنا.

ثم صعدتُ السيارة، كانوا رجالاً ليبيين، ما إن تقدمنا كيلومترًا،
حتى لا قانا تجمعٌ كبير من سكان القرى المدنيين، وقد تسلحوا والتحقوا
بالجيش بواسطة سياراتهم الخاصة، نزلت عند أول قرية ليبية،
واستلمني جنودٌ عند البوابة، ثم بدأت السيارة تأكل بنهم وجه الطريق،
نحو العودة إلى بنغازي.

.....

بعد أيام .. كنتُ في بيتنا أعيشُ القلق، وأعدُّ الوقت المتبقي من
الانتظار، كي أسمعَ خبرًا أو حديثًا عن عمر، زارني الناس، وسألوا
عني، رأيتُ أهلي وأسعدني أنَّ أخي رُزق بمولودة جميلة، أطلق عليها
اسم ليبيان.

لم أستطع عن أسيطر على توتري. ليتنا نملك اختصار المسافة؛
ليمكننا أن نوجز الانتظار الطويل في كلمة! ليتنا نملك أن نقطع سرة
الطريق الطويل، حتى يمكننا أن نفصل عن أرواحنا مشيمة الاشتياق!
ليتنا نملك أجنحة يمكنها أن تُخلّق بنا فوق سماء ترفع أحبتنا إلينا من
على الأرض! ليتنا فقط نملك فرحة القدوم لكل مسافة طويلة، حتى لا
يُرجئنا الانتظار والحنين إلى ساعات أطول!

بعد اتصالات عدة، أفرحني أخي بأن عمر بخير، وبهيجة كذلك،
أما طارق فقد أُصيب بطلق ناري، تمّ إنقاذه وإسعافه.

كانت الأسئلة تقتحم رأسي، تعتدي على سكينتي، تقتلني، تمزّقني
أشلاء، لا بد أن عمر عرف بما حصل لي، وإلا كيف بحثوا عني؟ كيف
فطنوا لهروبي؟ هل سيقبل بي عمر بعد الآن؟ هل سيطلقني؟ هل
سيتمكّن لي كوني امرأة عرفها طوال تاريخه النضالي، وتاريخي المنكوب
بالتعثر؟

كنتُ كلما تذكرتُ عمر، أنطوي وحيدة، يأخذني الحنين والبكاء،
وتستولي على روحي اللوعة، ينتهك القلق حرمة قلبي الأبيض، يُجِلّني
لورقة مرتعشة، مفككة آيلة للاصفار، قابلة للسقوط من شجرة الكون
في غمضة خريف.

أحتاجُ إلى ثقته، أحتاجُ إلى يده تعاضدني، وتشدُّ من أذري، أحتاجُ
إلى قلبٍ يؤمن بالله بأنني مخلوق من عجين رخو، أحتاجُ - فيما أرى -
أحتاجُ، للعدالة والرفق بالقوارير، للإنصاف، لإعادتي كما أنا - لنبلٍ في

زمنٍ قلَّ فيه النبلاء، لفروسية فارسٍ في زمنٍ تحشَّبت لُغته، وكبا فيه
الجواد بفارسه.

كان الليل ليلاً، بلا تسميات، والنهار يأنف قدوم الضوء، الشمسُ
شاحبةٌ، والقمر ضليعٌ في مؤامرة الغياب، كنتُ وحيدةً أقضي وقتي،
وأنا أضرُّعُ إلى الله، أن يُحرِّرني من أرتال الحزن - التي اجتاحت روحي،
ومن كتائب الخوف التي أقامت معسكراتها في قلبي، ومن بنادق
الصمت الثقيل، التي قرأتُ رصاصاتها في العيون التي تلاحقني هنا
وهناك، ومن مخيمات الوحدة التي نصبت خيامها فوق خلاء روحي،
فلم تُبقِ على فرح، ولم تَدَرْ حُزنًا.

تأخَّر عمر، وبدأتُ أقتنعُ أنه لا يريدُ العودة، أصابني الإحباطُ،
وأنهكني التعبُ، سحبَ مني غيابه صحتي، تآكل جسدي من النحافة،
فتغير مقاسي في غضون أسبوعين، أرهقتني الأسئلة والتساؤلات، لم
أستطع أن أنساه، لم أتمكن من تلافي السؤال عنه، لا أخبار، لا أريدُ أن
أرى الناس، انطويتُ بعيداً، انزويتُ في بيتي، مللتُ.

خرجتُ من البيت مساء الخميس، بعد عزلةٍ طويلةٍ. اشتريتُ
بعض الحاجيات للبيت، فقد يزورني أخي وأهله، أو أختي وأبنائها،
بعدما طال غيابُ عمر، لماذا تأخَّر؟ كل مرة يقولون لي شيئاً، فقدتُ
الرجاء في عودته، وتفهمتُ حالته التي يمرُّ بها؛ بسبب ما حصل لي.

كانت بنغازي كعروسٍ ترتدي بياضها ليلة زفافها، تنعمُ بالأمن
والفرح بعد تحرير شهاها في غضون أيام، وكنتُ كلما سرتُ وتقدَّمتُ

نحو الشوارع، رأيتُ الناس يزرعون النباتات، ويعيدون رصف الطرق، الأطفال يلعبون بمرح، والفرح يغزو الوجوه، ويزرع بذوره ابتسامات فوق الشفاه.

هذه المرة الغزو مبارك، وهو فعلٌ يسيرُ على رتم الأفعال: يزرع، و يزهر، ويفتح .. يزرعُ الأمل، ويُزهرُ الفرح، ويفتحُ أبواب اليأس بالحياة .. نحو ليبيا واحدة وآمنة.

يا الله يا ليبيا الموطن، والأهل، والدولة! باركك الله يا بلد الطيوب.
عدتُ للبيت .. بأشْرَ الحنينُ أكلَ قلبي، ونهشَ أشواقِي، سمعتُ صوت جهازِي الحاسوبي، وهو يرطن بشكل متواصل برسائل الفيس بوك، دخلتُ للمطبخ، وضعتُ الحاجيات فوق الطاولة، جلبتُ عصيرًا، وذهبتُ لجهازي، جلستُ في هدوءٍ، والحزنُ يملأُ وجهي، كانت صفحتي باسم إناث ما تزالُ قائمةً .. سرحتُ في منشوراتي، أقرأ، وأستعيدُ آخر ما كتبتهُ فيها، عندما فاجأني السيد فيس بوك، قائلًا في كياسة، وبموضوعةٍ تامة:

- أرسل لك عمر القاسم طلب صداقة. تأكيد؟ أو حذف الطلب؟

عزة سمهود

يناير ٢٠١٧ بنغازي